أحمد خالد توفيق

رفقاء الليل



الجلسة

١

-«هل تدرك معنى ما تقول حقًا؟»
-«قطعًا»
-.«وتدرك تبعات هذا؟»
-.«أنا لا أكلم محققًا .. أعرف أنك تحتفظ بسرية المحادثة كجزء من آداب المهنة»

كان الموقف محيرًا. لا بد أن أكثر من قس اعتراف مر به من قبل، وإنني لأتذكر مسرحية كرسي الاعتراف التي قدمها يوسف وهبي، والتي تدور حول مأزق كهذا .. في فيلم (أنا أعترف) لهتشكوك يجد قس الاعتراف نفسه متهمًا بالقتل مع أنه يعرف القاتل الذي اعترف له! ليس الأمر هنا بهذا السوء والحمدلله..

كلمات المريض مقدسة وسرية، لكن هذا يضعني في معضلة ضميرية حقيقية ..

كان شاكر يجلس على الأريكة يتأمل بطاقة رورشوك التي أعطيتها له، وكنت أنا أجلس خلفه كما تعلم. لا يجب أن تجري اختبار رورشوك والمريض يرى وجهك .. هذه هي البطاقة الخامسة. لا أحب هذه البطاقات التي تظهر بقع حبر، وعلى المريض أن يخمن إلام ترمز، فهي طريقة بالية. ويرى أطباء كثيرون أنها تعكس نفسية الطبيب الذي يفسرها وليس المريض، لكني في أحيان نادرة أعرف شيئًا مهمًا منها ..

هذا الموقف من تلك المواقف بلا شك ...

كان يحدق في بقعة الحبر ويكرر في ثبات:
-ـ«هذه هي روح الفتاة التي قتلتها منذ عام ..»

****

هذه هي الجلسة الثانية لشاكر عندي. هو محام في الأربعين، من ذلك الطراز الذي يقول الناس إنه هادئ مهذب، ويكتشف الطبيب النفسي أنه بالوعة شهوات وآثام. يسمون هذا الطراز في الغرب «الرجل الدمث الذي يمتلئ قبو داره بجثث الأطفال». نحيل .. ذو عوينات سميكة تطل من خلفهما عينان واسعتان مذعورتان متهمتان كعيني بومة .. تساقط الشعر قليلًا عن مقدمة رأسه، وهناك تجعيدتان عميقتان على جانبي فمه، كما أنه من الطراز الذي تملك حنجرته أو (تفاحة آدمه) حياة خاصة بها، فتتواثب كالقردة طيلة الوقت. أبخر نوعًا، وأقرب للتأنق.

لم أحبه منذ اللحظة الأولى، لكن لم يخطر ببالي قط أنني سأخافه. هذا ما حدث فعلًا. في الزيارة الأولى قال لي إن لديه هاجسًا مخيفًا .. يريد أن يقتل زوجته، وهو يخشى ذلك. هذا وسواس قهري واضح .. عرفت فتيات متدينات يبتن على قارعة الطريق خوفًا من أن يدفعهن الشيطان لممارسة الرذيلة مع آبائهن، وعرفت فتية متزنين يغلقون الباب على أنفسهم ويلقون المفتاح من النافذة خوفًا من أن يقتلوا ذويهم أثناء النوم. ليس كل الوسواس القهري غسل يدين متكررًا كما تتخيل.

الخوف من أن يجن المرء ويرتكب عملًا أحمق هو نوع معروف من الوسواس ..

في الزيارة الأولى سألني شاكر عما إذا كنت حقًا حاصلًا على درجة علمية في علم نفس الجريمة، فأشرت إلى الشهادة المعلقة التي حصلت عليها من هارفارد .. لا أعرف إن كان استطاع قراءتها أم لا لكنه شعر بصدق كلامي ..

قال لي وهو يحدق في السقف:

-«كنت مولعًا منذ صغري بفكرة البلورة السحرية التي تحملق فيها فترى ما يفعله معارفك .. لم أستطع الحصول على بلورة ثم وجدت طريقة تقضي بأن يحملق المرء نصف ساعة كل يوم في قدح من الحبر. تحاول أن تتخيل مشهدًا معينًا وتتخيل تفاصيله .. مع الوقت والمران يكتسب الحبر حياة خاصة به، ويمكنك إذ تطيل الحملقة أن ترى ما يفعله الآخرون فعلًا..»

قلت له في لا مبالاة:

-«يسمون هذا عندنا باريدوليا Pareidolia أي أنك ترى ما تريد رؤيته أو تتخيل أنك تراه .. كلنا نرى وجوه نساء في بلاط السيراميك، ونرى أرانب بين السحب، وخيولًا تجري في بقع الماء»

بإصرار قال:

-«لكن ما أراه في صفحة الحبر لا يكذب . وقد رأيت زوجتي تخونني مع جاري .. رأيت هذا بوضوح وقد تكرر مرارًا ..»

قلت له:

-«يمكنني أن أؤكد لك أن هذا هراء، وعلى كل حال فمن الواضح أن هذا هو سبب هاجس قتل الزوجة الذي يطاردك»

كل رجل طبيعي تمنى بالتأكيد أن يقتل زوجته في لحظة ما، لكنه كما قلت لك (طبيعي)... لهذا ينسى الأمر ويشعل لفافة تبغ

مغتاظًا ويخرج ليسهر مع رفاقه، أما الرجل غير الطبيعي فهو ....

عدت أسأله بصوت هادئ:

-«حدثني عن طفولتك ..»

****

الحبل ..

افتتان هذا الرجل بالحبال بدأ منذ طفولته .. هذا رجل قضى جل حياته مع الحبال والحبر كما هو واضح.

كان يلعب كل الألعاب التي يتم استخدام حبل فيها .. لم يكن يتلذذ باللعبة قدر ما يتلذذ بالحبل.. شيء ما في التصميم كان يروق له. شد الحبل .. الوثب بالحبل ...

في سن العاشرة شعر أن الجميع يكرهونه، وأن الحياة قاسية، وأن أهله لا يرغبون في بقائه حيًا. بحث عن حبل الغسيل وقطع منه جزءًا لا بأس به ثم دخل إلى الحمام. صعد على مغطس الحمام الزلق، وعقد عقدة في دوش الحمام، ثم صنع أنشوطة صغيرة في الطرف الآخر كما تعلّم في السينما، ثم وقف على حافة المغطس ووضع الأنشوطة حول عنقه. من الغريب أنه لم يشعر برعب أو قلق.. فقط شعر بنشوة لفكرة أن يلتف الحبل حوله. سوف يأتون بعد فوات الأوان، ولسوف يبكون بحرقة ولات حين مناص. شعر برثاء حار لنفسه حتى أغشت دموعه الرؤية فلم يعد يرى تقريبًا

.. خواطر محزنة تبعث النشوة في النفس .. لذة التعذب ..البائس الصغير يتدلى وقد انتهت قصة حياته .. أغمض عينيه ووثب من

على حافة المغطس، فقط ليسقط على الأرض فوق مؤخرته .
طاخ!! .. لم يحدث شيء .. ونظر لأعلى في خيبة أمل فرأى أن العقدة في الدوش قد ارتخت. لم يكن بارعًا في ربط العقد، وكل ما جناه هو أن آذى ردفيه فعلًا، فلا غرابة في أن يصاب بالبواسير.

-«البواسير لا تصيب من يفشلون في الانتحار ويقعون على مؤخراتهم..»

تجاهل كلامي وواصل السرد. لقد سمع أباه يدق على باب الحمام وقد سمع الارتطام، فهرع يخفي الحبل ويشد السيفون ليوحي بأنه كان منهمكًا، ولعل هذه كانت أول وآخر مرة يجرب فيها الحبل كطريقة لمغادرة العالم ..

في سن المراهقة انتقل ولعه بالحبال إلى لذة أن يكون مقيدًا. كان يبحث عن مكان منعزل أو مغلق ويقيد نفسه بالحبل، طبعًا بطريقة تسمح له بالتحرر، لكنه كذلك كان يحب أن يشعر بأنه عاجز. أحيانًا كان يقنع شقيقه بأن يلعب معه لعبة اللصوص أو رعاة البقر والهنود .. أي لعبة تتضمن تقييده .. هذه لمحة ماسوشية لا شك فيها. رأيت في كتاب طب شرعي رجلًا غريبًا قيد نفسه بالحبال إلى سيارته وجعلها تدور في دوائر لتجره خلفها.. أعتقد أنه وضع قالب قرميد على دواسة الوقود. يتلذذ بهذا الضرب من التعذيب، لكن ما حدث هو أن عجلة السيارة التفت حول الحبل فمزقه الأخير تمزيقًا.

شعرت بقشعريرة لدى تذكر هذا المشهد .. تعذبني فكرة المنتحر الذي يقرر التراجع في آخر لحظة .. بعد الوثب أمام القطار، أو بعد ابتلاع السم الزعاف، أو أثناء السقوط من فوق البناية ..

كانت الجلسة الأولى قد انتهت ، وبالطبع لم أكن أعلم أن الأخ شاكر سيعترف لي فيها بقتل كل الفتيات اللاتي قتلهن ... قتلهن بالحبل طبعًا ...

٢

في الفندق جلست أصغي لبعض الموسيقى، ورحت أنظر لعقارب الساعة في لهفة. بالطبع أجريت مكالمة هاتفية للبيت وأبلغت ثريا أنني سأتأخر .. العمل .. دائمًا العمل.. سأعود فجرًا. قالت شيئًا عن عشائي الذي ينتظرني وعن شريف الذي نام و.. و..

لم أكن رائق المزاج، فأنهيت المكالمة بسرعة وطلبت منها أن تعنى بنفسها. أشعلت لفافة تبغ .. دقات على الباب .. رائحة عطر فاغم يسبقها قبل مجيئها بربع ساعة.. سوسن ..

ينفتح الباب لتدخل سوسن. هي امرأة في الأربعين تستحق كل حرف في كلمة (امرأة) . الأنوثة المطلقة كما خلقها الله. تلهث من الجهد ومن التوتر وهذا يزيدها فتنة. متوترة برغم أنني أعرف يقينًا أن أحدًا في الفندق لن يسألها عن وجهتها. هم تعلموا التجاهل والتظاهر بأن كل شيء على ما يرام ..

تسألني وهي تلثمني هل تأخرت، فأقول لها إنها دومًا متأخرة بالنسبة لشوقي حتى لو جاءت قبلي ..

غريب أمر هذا التعلق الذي لا يرتوي أبدًا .. لو كنا متزوجين لكان الملل قد قضى على علاقتنا تمامًا، وعلى قدر علمي لا يمكن لعلاقة أن تستمر بهذا التوهج عامين كاملين، لكني قدرت أن الشوق العاطفي يمتزج هنا بلذة المغامرة والسرقة .. هناك من

يدمنون السرقة، ومصابون بمرض الكلبتومانيا، وأنا اعتقد أن ما نحن فيه نوع من هذا المرض ..

قالت لي:

-«منصور لن يعود قبل يومين .. لربما كانت الفرصة سانحة كي نلتقي غدًا»

منصور هو زوجها مدير المصرف طبعًا، وأنا لم أره قط لكني كونت عنه صورة عقلية معينة من كلامها. وحش فظ ضخم الجثة لا يحبها لكنه حريص على الحفاظ على أملاكه.. لو كان ثور بيسون لراح يبول حولها ليحدد أن هذه أملاكه ..

ابتسمت وقلت لها:

-«للأسف .. زوجتي موجودة في كل وقت، ولديها شكوكها الخاصة .. لن نتمكن من اللقاء أكثر من مرة أسبوعيًا»

-«والنهاية؟»

-«لا نهاية للحب على قدر علمي .. لا يجب أن تكون هناك نهاية. أحيانًا تكون الرحلة أكثر إمتاعًا من الغاية. يومًا ما سيموت زوجك أو أطلق زوجتي، ولربما تزوجنا .. لكن – صدقيني – ستفقد علاقتنا سحر الكلبتومانيا ..»

-«كلبتو ماذا؟»

سحقت السيجارة وصدري يهتز ضحكًا وأطفأت الأباجورة قائلًا:

-«لم نلتقِ خلسة هنا كي ندرس اللغة اللاتينية .. صدقيني»

****

بعد أسبوع جاء شاكر، ورقد على المقعد المريح وراح يحملق في السقف.. بعد قليل قال:

-«في سن العشرين استولى عليّ هاجس الخنق .. كان مشهد أي شخص يُشنق أو يُخنق بحبل يثير اهتمامي جدًا. فكرة الوجه المحتقن واللسان البارز كانت تجعل خيالي يجمح وقلبي يخفق. احتجت لوقت طويل حتى أكتشف شبكة الإنترنت وأدرك أن هناك أشخاصًا مثلي في العالم ..أنا لست منحرفًا!»

لم أستطع أن أمنع نفسي من التعليق فقلت:

-«ليس الموضوع أنك لست منحرفًا .. الموضوع هو أن هناك منحرفين كثيرين! في صباي كنت أحب مذاق الشاي الذي يُذاب مكعب زبد فيه، وكانوا يعتبرونني فاسد الذوق .. فيما بعد عرفت أن هناك حشدًا من فاسدي الذوق»

ليس هذا أفضل ما يُقال لمريض نفسي، لكني لم أستطع الصمت ..

لم يعلق وواصل السرد وحنجرته تتواثب في عنقه كالعادة:

-«كنت بحاجة ماسة لأن أخنق شخصًا ما .. وتعودت أن أحمل هذا الحبل القصير في جيبي طيلة الوقت وأحلم بما يمكن أن أعمله به..»

وفجأة رأيته يمسك في يده بحبل .. حبل أنيق رقيق واضح أنه من نوع ممتاز. حبل لا يناسب أبدًا هذه الخواطر السقيمة ولا تعليق الغسيل. هل يضع هذا المجنون الحبل في جيبه طيلة الوقت؟

-«فلتخف هذا الحبل وأكمل قصتك»

دس الشيء في جيبه في عدم اقتناع، وقال والعرق ينبت على جبهته:

-«بدأتْ غرائزي تخرج للعالم عندما كنت أزور ذلك الصديق في بناية في الزمالك .. لاحظت عندما دخلت أنه لا يوجد بواب ولا رجال أمن وأن المدخل خالٍ تمامًا .. دققت باب صديقي فلم أجده، هكذا استقللت المصعد لأنزل .. بعد طابق واحد دخلت فتاة رقيقة للمصعد وهزت رأسها محيية.. كان ذلك العنق النحيل الطويل يناديني .. يناديني بلا رحمة ..والمصعد بطيء جدًا والوقت متأخر، لم أستغرق وقتًا للتفكير .. هذه فرصة لن تعود. كانت تنظر لكشاف أرقام الطوابق وهي طريقة معروفة لتفادي التقاء العيون في مكان ضيق، وهنا كان الحبل قد خرج .. التف حول عنقها من الخلف ثم رحت أعتصر وأضغط .. أضغط .. كانت تشهق وبرز لسانها كما تمنيت ... أعتقد أن الأمر استغرق طويلًا جدًا .. لدرجة أنني ظللت معها في المصعد لفترة طويلة في الطابق السفلي، واضطررت لضغط الزر بيدي اليسرى الحرة ليرتفع للطابق الثالث .. ومن جديد عدت للهبوط .. كان جسدها قد ارتخى تمامًا وكفت عن الركل والتنفس، وكنت أنا ثملًا بغير خمر. يجب أن أستجمع قواي حتى أهرب .. ليس الوقت وقت نشوة! سرعان ما صرت في الشارع، ومشيت مسافة لا بأس بها ثم استوقفت سيارة أجرة .. لن يتذكر أحد أنه رآني هنا، وصاحبي لا يعرف أنني زرته. الجريمة الكاملة هي أن تقتل شخصًا لم تره من قبل ولم ترسم أي خطة لقتله من قبل. وفيما بعد جمعت كل أخبار هذه الفتاة التي وجدوها مقتولة في المصعد ... كان اسمها رشا بالمناسبة ..

-«مر عام ثم بدأت أشعر بالحاجة لتلك اللحظات النورانية من جديد .. كان علي أن أغير الأسلوب. جربت أساليب عديدة، منها استئجار شقة باسم مستعار واستجلاب بائعة أو فتاة ليل .. وجربت خنق الأطفال مرتين ..»

كنت أصغي له وأنا أرتجف .. أنا أكره هذه المهنة فعلًا. أكره أن يكشف أحدهم غطاء المرحاض لترى الأشياء على حقيقتها. لكنه برغم كل شيء يشعرك بالتفوق وأنك أفضل.. مهما انحدرت فأنت لن تكون وحشًا مثله.

راح يحكي لي مغامراته في تلذذ حتى تجمعت عصارتي المعدية في أسفل المريء. لكن يظل السؤال المهم هو : كيف تزوج هذا المسخ النفسي؟ ولماذا؟

قلت له:

-«كان من الخطر أن تتزوج .. أن تعيش معك امرأة وسط هذه الجحيم ....»

-«التوبة!»

وارتفعت حنجرته وهبطت:

-«تبت .. وعاهدت الله على ألا أخنق شخصًا آخر. لا بد من لحظة يكف فيها المرء عن المجون. لكن تلك الخائنة كانت تخدعني طيلة الوقت .. كانت تلتقي بأحدهم كلما سافرت. لقد رأيت هذا في قدح الحبر وعرفت أن علي أن أعود للخنق!»

واهتز صدره من النشوة وظهرت أسنانه المتآكلة .. وأردف:

-«لا أكف عن تخيل لحظة أن يلتف الحبل حول عنق سوسن ..»

زوجته الخائنة اسمها سوسن .. مصادفة غريبة بعض الشيء ... قدمي تهتز لا إراديًا. اهدأ يا صاحبي .. هو محام واسمه شاكر .. لا علاقة له بسوسنك زوجة منصور مدير المصرف..

٣

قضيت مع ذكريات الأخ شاكر ساعات رهيبة، وهو يقص عليّ تفاصيل مغامراته مع الخنق، حتى شعرت بأنني على وشك الاختناق أنا نفسي. لقد آلمتني حنجرتي من كلماته.

المشكلة أنه لن ينتحر ثانية .. لن يجرب ألعابًا ماسوشية، فقد وجد غايته النهائية في السادية، وهذا يعني أنه ما زال خطرًا داهمًا.

رجل ذو نظارة سميكة وعينين جاحظتين وحبل في جيبه هو رجل لا يدعو للثقة.

كنت أعرف أنني عاجز عن مساعدته .. من العسير أن تعالج الوسواس القهري، فماذا عن سفاح سادي قتل أطفالًا كما اعترف.

لا أجرؤ ولا يسمح ضميري بأن أبلغ الشرطة ضده.

رباه! سوف تكون لحظة سعيدة في حياتي تلك اللحظة التي يكتشف فيها أنني حمار ويتركني. الخلاص منه يحتاج إلى احتفال صغير بالفعل. لكن المصيبة هي أنه يثق بي. يعتقد أنني ساحر. الشعر الأبيض المحيط برأسي يوحي له أنني عبقري. هذا هو تأثير الهالة halo effect الذي يعرفه الأطباء. طبيب تحيط برأسه هالة من شعره أبيض هو طبيب يعرف كل شيء، وقد عقد معاهدة مع الموت!

في الأيام الماضية قرأت خبرًا في جريدة عن طالبة في مدرسة ثانوية، وجدوها مخنوقة وملقاة في زقاق في الضاحية القاهرية (...). لم تكن هناك سرقة ولم يكن اغتصاب. قضية غامضة جدًا .. علامات حبل على العنق. كنت أنا أدرك على وجه التقريب ما حدث .. أعرف من الفاعل وكيف فعل، ولماذا فعل..

شاكر عندما جاء لعيادتي رقد وأغمض عينيه، وراحت تفاحة آدم تصعد وتهبط كأن لها حياة خاصة. سألته بعد قليل:

-«هل مارست الخنق مؤخرًا؟»

نظر لي وابتسم .. ثم أبعد عينيه، فأردفت:

-«طالبة ثانوي .. زقاق في (...)»

ابتسم من جديد دون أن ينظر لي .. الإجابة وصلت يا ابن الـ (...) .. وصلت كاملة. إذن أنت لا تتحسن..

لو كان بيدي لحقنته بسم في عنقه وأرحت المجتمع، لكن هذا ليس عملي للأسف..

****

منذ فترة لا بأس بها عرفت سوسن. كانت من مريضاتي وقد جاءت للعيادة تشكو اكتئابًا مزمنًا. مع تداعي المعاني عرفت أنها تعاني إحباطًا شديدًا .. إحباطًا عاطفيًا لا بأس به بسبب انصراف زوجها عنها. كانت جميلة بحق .. سوسن تبدو كالسوسن ولها عبير السوسن، وقد بدا لي أن زوجها – الذي قالت ان اسمه منصور – أحمق بالتأكيد. لكن مقولة (ما أقبحك حلالًا وما أحلاك

حرامًا) تتكرر في كل مرة. لا أعرف متى لثمت يدها بلا مقدمات وهي تتكلم، فتبادلنا النظرات وتلاقت عينانا .. ثم ..
بعد هذا كان لا بد من أن نجد مكانًا، وكان ذلك الفندق الذي اعتدت أن أستأجر غرفة فيه كلما جاءت الفرصة. الفرصة هي أن يسافر زوجها، وهو يفعل ذلك مرة كل أسبوع. وفي تلك الليلة لا بد أن أجد كذبة مقنعة تقنع ثريا. أحيانًا أزعم أنني سأبيت بالمكتب، وأحيانًا أقول إنني سأتأخر وهذا معناه أن أرجع قبل الشروق..
في تلك الليلة قالت لي وهي تعبث في شعري الأبيض:
-«هل تعتقد حقًا أن زواجنا مستحيل بسبب الكلبتومانيا؟»
حقًا هذا ألعن شيء يقال لي .. بالطبع لا زواج. لو تمسّكتْ برأيها فهي النهاية. لم أرتوِ منها بعد لكن يمكن للمرء أن يجد زجاجة خمر أخرى.
نظرت لها متسائلًا فقالت:
-«لم أعد أتحمل الحياة مع منصور..»
-«ما الجديد؟»
أخذت شهيقًا عميقًا وقالت
-«أعتقد أنه جن .. أعتقد أنه جدير بأن يكون بين مرضاك»
-«كيف جن؟»
تحسست عنقها وقالت:
-«هل هناك أناس يعشقون الحبال؟ إنه يعلق الحبال في كل مكان! الأهم أنني أراه في بعض الأوقات ينظر لعنقي في نهم ويسيل اللعاب من فمه!»
نهضت متوترًا ثم اعتصرت كتفيها وهززتها بقوة آلمتها:
-«زوجك لا يدعى منصور .. أليس كذلك؟»

قالت في رعب:
-«بلى ... »
-«وليس صاحب مصرف .. هو محام .. أليس كذلك؟»
-«بلى .. كيف عرفت؟»
اسمه شاكر .. محام .. لا شك في هذا. لقد كانت تكذب علي منذ البداية على سبيل التمويه، أما هو فقال صدقًا على طول الخط. أمرتها في عصبية أن تبدل ثيابها وترحل. على الأرجح لن نلتقي ثانية .. لم تفهم وظلت تنظر لي في دهشة وأنا أرتدي السترة وأنتعل الحذاء، وأغادر الغرفة فورًا.

****

يجلس شاكر أمامي وهو ينظر للسقف كعادته .. ربما لأنه يعرف أن الناس ينظرون للسقف عند الأطباء النفسيين..
إذن هو يعرف على الأرجح كل شيء عن علاقتنا أنا وسوسن .. ربما هو الحبر أو الأقاويل .. المهم أنه وصل للحقيقة. افتراض أن هذه صدفة أمر مستحيل. إذن ماذا ينتظر؟ لماذا لم يلف الحبل حول عنقي وينتهي كل شيء؟ إن انفرادنا يتكرر.
على طريقة الاختيار المتعدد في الامتحانات.. هناك أربعة تفسيرات معقولة:
التفسير الأول هو أنه يعرف أنه سيقع في يد الشرطة ويُعدم لا محالة، إذا فعلها في عيادتي، وهناك أكثر من شاهد على تواجده. ربما كان يبحث عن فرصة آمنة.

التفسير الثاني هو أنه يلعب معي لعبة القط والفأر ويطيل لذة الانتظار.
التفسير الثالث هو أنه يأمل في أن أقدم له الشفاء، باعتباري متخصصًا في علم نفس الجريمة. أي أنه يريد أن يجمع بين الشفاء وقتلي.
ربما هذا كله .. السبب خليط من كل التفسيرات.
أنا أميل لهذا الاحتم
ال الرابع. لكن المشكلة هي أنني لن أتمكن أبدًا من علاج هذا الرجل، أو الجلوس معه في غرفة مغلقة.. شاكر يجب أن يموت. موته سوف يجلب لي الأمان، وسوف يحقق للبشرية خدمة أكيدة كالخلاص من وباء التيفوس.
فكرت قليلًا ثم قلت له:
-«أستاذ شاكر .. حان الوقت لتجربة طريقة جديدة للعلاج. أنا أريد وضعك في الظروف المناسبة للخنق بالضبط .. وسيكون عليك أن تقاوم رغبتك هذه. سيتم ذلك تحت إشرافي الكامل».
-«كيف؟»
كتبت له عنوانًا على قصاصة ورق .. مخزن ورق مقوى قديم مهجور في إحدى الضواحي. سأكون هناك في العاشرة مساء الغد .. وسوف يكون هو كذلك هناك. معًا سوف نقاوم تلك الرغبة الجنونية التي سيشعر بها .. سوف أعلمه كيف يحرق الحبل الذي يضعه في جيبه، ولا يخنقني..
نظر لي بوجه مغلق ولم يقل أي شيء. فقط غمغم:
-«هذا خطر داهم ..»
-«لا تقلق .. أنا أعرف ما يجب عمله»

لو كانت الأفكار تظهر في بالون كما في القصص المصورة، لرأيت فوق رأسه بالونًا يظهرني محتقن الوجه بارز اللسان والحبل حول عنقي.. أعرف ما يفكر فيه جيدًا.

****

غادر شاكر مكتبي فانتظرت قليلًا... ثم فتحت شاشة الكمبيوتر ورحت أفتش في الملفات القديمة .. ملفات المرضى السابقين .. هذا هو .. بعد قليل اتصلت بنشأت زاهر .. المهندس الشاب..
جاء صوته يتساءل عن سبب اتصالي، فهذه أول مكالمة بيننا منذ عامين..
قلت له:
-«هل ما زالت تلك الرغبة العارمة تعصف بك؟ أنا سأحقق لك مرادك بالحرف .. فقط تعالَ لعيادتي ظهر غد. سأشرح كل شيء وسأطلب منك أن تذهب لمكان معين في العاشرة مساءً. مخزن ورق مهجور وطبعًا معك ما يلزم»
صاح في لهفة :
-«حقًا! هل تمزح؟ هل تخدعني؟»

-«لا أستطيع شرح المزيد هاتفيًا .. فقط تعالَ ظهرًا»
هذه مزية أن تعمل في علم نفس الجريمة. أنت تقابل الكثيرين. نشأت من مرضاي الذين يتعذبون طيلة الوقت.. نصحته بالصبر والتحمل لفترة طويلة، لكني اليوم أمنحه الفرصة كاملة. من الوساوس القهرية الغريبة، تلك الرغبة الكاسحة التي تجعله يتمنى

أن يذبح قاتلًا من الأذن إلى الأذن. كانت مشكلته الأساسية هي أنه لا يجد قتلة بما يكفي. إن ما أقوم به اليوم هو أدق وصف لتعبير: قتل عصفورين بحجر واحد. ألا ترى هذا معي؟

تمت

معرض الموت

١

لا يجب أن نخلط الوقائع ببعضها، فالمصادفات تحدث أحيانًا، ولا نريد أن نصل إلى استنتاجات غير ناضجة كما تعلم..
في الصباح عندما يدخل حارس المقبرة يجول بين شواهد القبور، في ذلك الجو البارد الذي يجتاح نيو إنجلند مؤخرًا، وقد بدأت طبقة الجليد الرقيقة تغطي الأرض. البخار يتصاعد من فمه وتلك الرجفة اللطيفة الخفيفة التي يعشقها.
لكنه رأى المشهد من بعيد .. رأى كيف يختلط الجليد مع الوحل الذي خرج من المقبرة. يهرع إلى هناك وتنزلق قدمه على الجليد الأملس ثم ينهض من جديد.
هذه مقبرة آل روبنسون وهي من المقابر الجميلة هنا، وقد اعتنت بها أسرة رؤوم لا تنسى موتاها. لكن الأمور لم تعد كما كانت.. يمكنك بسهولة أن تدرك أنه تم حفر المقبرة بعناية .. لماذا؟ كي يخرج أحدهم جثة بالطبع..
المقبرة خالية بالفعل، وقد كانت تخص امرأة اسمها (دوروثي سمارت) توفيت منذ أسبوع. من الغريب أن تتصور أن هناك من جاء ليلاً ومارس أعمال الحفر على ضوء كشاف واهن في هذا الصقيع .. كل هذا دون أن يشعر به أحد..
لماذا يسرق أحدهم جثة؟
حفر القبور وسرقة الجثث body snatching تراث (ثقافي) مهم لدى الغربيين، وبالذات لدى البريطانيين. المشهد الخالد

لحفاري القبور الذين يعملون في الظلام على ضوء كشاف..
بالطبع لابد أن يكونوا ثملين. السبب الأول لشرب الخمر هو بشاعة المهمة وقذارتها .. السبب الثاني هو البرد الشديد الذي يحتاج لقطرات خمر في دمهم. في فترة من الفترات تحول الأمر إلى وباء، وبالطبع لم تكن تُسرق سوى قبور الفقراء. يعملون بعصا خشبية حتى لا تسبب الفئوس ضوضاء. تتم سرقة الجثة، والهدف في ذلك الوقت هو إشباع الحاجة التي لا ترتوي للجثث لدى طلبة الطب. كان علم التشريح يزداد أهمية في ذلك الوقت.
هناك قصة غريبة عن فتاة حسناء تمت سرقة جثتها في القرن التاسع عشر ليرسم الفنانون جثتها العارية، وقد ظلت الجثة تُستخدم كموديل لشهر كامل قبل أن تتحلل. هذه اللوحات موجودة حتى اليوم. وقد نصحت الصحف قراءها وقتها أن يؤجلوا دفن جثث أحبائهم إلى ما قبل التحلل حتى لا تكون ذات نفع لنابشي القبور.
في عصرنا هذا يختلف الأمر نوعًا .. سرقة القبور تتم ضمن طقوس دينية معينة، أو بغرض مثل التهام الموتى .. هناك جثث تم إخراجها من القبور في لندن، وغرست أوتاد في صدورها بدعوى أنها جثث مصاصي دماء.
دارت هذه الخواطر في ذهني وأنا أقف مع رجال الشرطة أراقب الموقف. بالفعل توجد آثار جر على الثلج، ويبدو أن هناك من حمل الجثة إلى سيارة تقف خارج المقبرة. على الأرجح لم يكن وحده..
هذه مصيبة لدى الكثيرين، وبالتأكيد عبء على رجال الشرطة وتهديد بالفشل، لكنه بالنسبة لي موضوع شائق بالغ الأهمية .. هل هناك خيط يمكن الإمساك به؟

****

بعد يومين تم نبش مقبرة أخرى. هناك جسد تم جره وتركوا التابوت مفتوحًا ببطانته المخملية التي اكتست بطبقة ثلج رقيقة. كانت السناجب تتواثب فوق الأشجار التي تحيط بالقبر، عندما وقفت أنا والمفتش جارفيلد ندخن ونتكلم. هو يعرف كل شيء عن كتابي (نكروفيليا) ويعرف أنني ألاحق هذه الحوادث في كل مكان. ما لا يعرفه المفتش هو أنني وجدت شيئًا احتفظت به لنفسي. كانوا يلتقطون الصور ويفتشون المكان، عندما وجدت تلك القصاصة الصغيرة جوار ممر الجليد. أدركت على الفور أنه رقم هاتف تمت كتابته على عجلة بخط رديء. يسهل استنتاج ما حدث. الذي حفر القبر لم يكن يلبس قفازين أولاً، ثم مد يده في جيب معطفه ليخرج القفاز، وسرعان ما طارت هذه القصاصة .. دسستها في جيبي قبل أن يلاحظ أحد.

قال جارفيلد:

- «الصحافة لم تهتم بالحادث الأول، أما مع الحادث الثاني فلسوف نكون قطعة لحم تُرمى للكلاب. هم في حاجة ماسة لشيء يسودون به صفحاتهم، وقد وجدوه»

قلت وأنا أنفث الدخان:

- «ما زال من السهل أن تحكم مراقبة المقابر. ليس من السهل أن ينبش أحدهم مقبرة ويسرق جثة وينجو في كل مرة. لابد من أن يفتضح أمره .. يكفيك حارس ليلي في كل مقبرة»

- «أنا أعرف عملي»

ملت نحوه وسألته في لهفة:

- «هل تخفون عني شيئًا؟ .. أنا بصدد كتاب وليست مقالة في جريدة. أي إنني لن أذيع شيئًا»

ألقى بلفافة التبغ في الثلج لتصنع حفرة صغيرة وهي تغوص. ثم قال:

- «عد لبيتك يا ويليام .. حتى لو عرفت شيئًا فهو مفيد للتحقيق ولن يذاع..»

ثم نظر في عيني وقال:

- «مهنتنا تعلمنا الشك .. كيف أضمن أنك لست من فعل هذا؟»

****

قلت لجين وأنا أصب لنفسي كأسًا من المارتيني:

- «تصوري .. يقول إنه من الوارد أن أفعل هذا ..»

ضحكت جين حيث جلست تراقب التليفزيون، وقالت:

- «كل من يهتمون بالنكروفيليا هم في قائمة الاتهام»

قلت في عصبية:

- «لو كتبت عن جرائم القتل فلا يعني هذا أنني قاتل .. لو كتبت كتابًا عن الأورام فلا يعني هذا أنني خلية سرطانية»

- «الرجل يؤدي عمله على كل حال»

- «أنت تعرفين يقينًا أنني لا أغادر البيت بعد العاشرة ليلاً أبدًا .. على الأقل مؤخرًا. أمقت البرد وأحب عملي»

- «وتمقت الضيوف كذلك»

تركتها ورحت أفتش عن صاحب الرقم الذي وجدته فظهر لي اسم (ماكس برودسكي).. بحث سريع على شبكة الإنترنت أظهر أن ماكس برودسكي مصور..

ماكس برودسكي... يبدو لي الاسم مألوفًا....ثم بدأت أتذكر...ألبوم وقع في يدي منذ عامين، وكان لفنان تصوير يبدو أنه من أوروبا الشرقية .. معظم الألبوم كان يمثل موديلات حسناوات في ثياب هفهافة شفافة، وقد اتخذن أوضاعًا أقرب للموت .. بعضهن كن نائمات في توابيت، وبعضهن مالت رؤوسهن إلى جنب كأنهن مشنوقات. بعض الصور كانت تظهر جثة طافية فوق صفحة المياه على طريقة لوحة أوفيليا الشهيرة... كان هذا الألبوم جنة لمن هم مولعون بالموت ..

فتشت في شبكة الإنترنت عن صفحة الفنان، فوجدته .. لم أعتد قط أن أشعر براحة تجاه الرجال الذين يطيلون شواربهم ليوصلوها باللحى.. تشعر بتأثير شيطاني معين في الوجه، وما يزيد الطين بلة أن يكون الرأس أصلع حتى يقترب في ملامحه من لافي صاحب كنيسة الشيطان.

هذا وجه مناسب جدًا ... ومادة دسمة لكتابي لم أفطن لها من قبل.

الأهم هو أن تجد رقم هاتف هذا الرجل بالذات جوار قبر منبوش.

لا أعتقد بالطبع أن الناس يمشون حاملين أرقام هواتفهم في جيوبهم، لكن من الوارد جدًا أن يكون من نبش القبر مرسلاً من ماكس، وكان يحمل الرقم في جيبه.

دخلت إلى مكتبي وأمسكت بالرقم وضغطت على مفاتيح الهاتف.

٢

كان هذا هو الموعد. قلت لجين إنني سأقابل ذلك الرجل المريب في التاسعة مساء. قالت إنني أضيع وقتي مع المخابيل، لكن

الإجابة كانت حاضرة قاطعة: أنا أجري بحثًا علميًا. طلبتْ مني أن أرتدي ثيابًا ثقيلة نوعًا، الجو بارد حاليًا خاصة في الليل. أمقت أن أعامل كطفل لكني فعلت ذلك.

يقيم برودسكي في بيت كبير في إحدى ضواحي فيرمونت .. هذا هو العنوان الذي ذكره لي.

كان البيت يبدو جديرًا بإحدى قصص ستيفن كنج. لا تنس أننا قريبون من ولاية مين جدًا .. بانجور مين حيث تقع معظم قصص ستيفن كنج المرعبة.

طبقة جليد خارج البيت .. يمكنك أن تدور حوله لترى المرآب وفيه سيارة عتيقة غلف عجلاتها بالجنازير. يمكنك أن ترى رفشًا وفأسًا و.. أشياء تصلح جدًا لنبش مقبرة، لكنها كذلك قد تكون بريئة .. ثم من قال إنه يفعل هذا؟ لقد استنتجت أنه كلف واحدًا آخر بهذا ..

قرعت الباب فانفتح لأرى ذلك الوجه الذي أمقته. أنطون لافي تقريبًا .. رأس أصلع ولحية متصلة بالشارب تحيط بفم مزموم بعصبية. هذا الرأس يطل من ياقة بول أوفر سميك. لو قرر الشيطان التجسد فلن يسعفه خياله بصورة أفضل ..

قلت له في أدب:

-«مستر برودسكي .. أنا ويليام جولدمان .. اتصلت بك بصدد ...».

-«لوحاتي الفوتوغرافية .. أعرف هذا ..».

هكذا وجدت نفسي في بيت واسع مريح. هناك كلب لبرادور جميل يتواثب من حولي. هناك مكتب من طراز عتيق .. أنا لا

أفهم في طرز الأثاث لكن أحسبه ثمينًا .. هناك مدفأة .. هناك مكتبة، وهناك عشرات الصور الفوتوغرافية لموديلاته الميتات ..

صبّ لي كأسًا من الشراب، وقال وقد لاحظ نظراتي:

-«كل موديلاتي من أوروبا الشرقية من حيث جئت .. ثمة سحر معين في النساء في تلك البقعة. الجمال الثلجي البارد الشمعي الذي يوحي بالشهوة ويوحي بالقسوة ويوحي ببرودة الموت .. يمكنك أن تتخيل كل فتاة في هذه البلدان وقد صارت مصاصة دماء».

قلت في انبهار:

-«هذه لوحات مذهلة .. الرسم بالكاميرا بالمعنى الحرفي، لكني لم آت من أجل الفن».

وضع ساقًا على ساق وربّت على رأس الكلب:

-«زيارة لفنان تصوير من شخص لا يبالي بالتصوير .. هل لي أن أفهم؟».

قلت في حذر:

-«أكتب كتابًا عن النكروفيليا .. لدي مراجع عديدة، لكني لاحظت افتتانك بالموت وقررت أن آخذ آراءك كمرجع ...».

-«حقًا أنا مفتون بالموت ولهذا قصة طويلة ..».

ثم قال وهو يضع الكأس وينهض:

-«هناك معرض صور مذهل في القاعة المجاورة .. كلها صور أصلية دفعت فيها مبلغًا هائلاً من المال .. لا يفعل هذا سوى عاشق حقيقي للموت».

الكلب يتواثب حولنا وأنا أمشي خلفه إلى القاعة التي ذكرها.

هنا فهمت على الفور ما يتكلم عنه.

في العصر الفكتوري انتشرت عادة شنيعة لدى الناس، خاصة مع كاميرات داجير البدائية. كل أسرة تفقد واحدًا من أفرادها تقوم بإلباس هذا الشخص ثيابًا عادية يومية، مع فتح عينيه الميتتين، ثم يجلس أفراد الأسرة حوله كأنها صورة عائلية هادئة. هذا هو تعبيرهم عن حبهم للمتوفى الذي يريدون أن يظل معهم للأبد.

النتيجة هي مجموعة شنيعة من الصور لأشخاص ميتين يجلسون بين أحياء، ومن الصعب أن تصدق أنهم موتى. إن الإنترنت يعج بهذه الصور، ولسوف تلاحظ علامة مهمة هي أن الأحياء تبدو صورتهم مهزوزة بينما الميت تبدو صورته واضحة حادة التفاصيل. في ذلك العصر كان عليك أن تبقى أمام الكاميرا نصف ساعة بلا حراك حتى لا تكون صورتك مهزوزة. بالطبع يتحرك الأحياء مع التنفس بينما الموتى لا يتنفسون. هناك قصة من هذا النوع مع الصورة الرئاسية الشهيرة لأبراهام لنكولن. كان قد وضع ساقًا على ساق وظل أمام الكاميرا نصف ساعة. لاحظ المصور أن ركبة لنكولن مهزوزة في الصورة. تبين السبب فيما بعد وهو أن ركبة لنكولن كانت تهتز طيلة الوقت؛ لأنه كان مصابًا بارتجاع في صمام الأورطي، وهي العلامة التي سماها الأطباء فيما بعد (علامة لينكولن).

كل الصور المعلقة أصلية تبدو عليها مخالب الزمن .. صبغة الأيام البنية المصفرة والتجاعيد. صحيح أنها لوحات محمية خلف إطار زجاجي، لكن الزمن أقوى بالطبع. عندما تتصور أن هذه الفتاة الرقيقة الجالسة بين أبويها ميتة، وأنها لن تلتقط أي صورة أخرى معهما، أو أن هذا الطفل الضاحك على حجر أمه قتلته الدفتريا ولن ترى وجهه بعد اليوم. عندما ترى هذه الصور

ترتجف رعبًا .. لها تأثير مقبض عجيب، والحمد لله أن هذه العادة قد انقرضت ..

لكن برودسكي قد استطاع الحصول على مجموعة مذهلة .. لابد أنها لا تقدر بثمن ..

قلت له في افتتان:

-«أنت ثري جدًا».

قال في لا مبالاة:

-«عندما يتسلط عليك وسواس فأنت تبذل المال رخيصًا من أجله. كل هاوي صور قديمة في العالم يعرف أنني أشتريها بسعر باهظ».

-«هل تسمح لي بأن ألتقط بعض الصور لاحقًا؟».

لم ينظر لي .. فقط غادر القاعة وأنا خلفه وهو يقول:

-«بالطبع لا .. هذه صور أصلية وحساسة للضوء جدًا .. كل المتا

حف المحترمة لا تسمح لك باستعمال الفلاش في التقاط صور محتوياتها. كادوا يفتكون بي في متحف الأرميتاج لأنني حاولت».

عندما عدنا لقاعة الجلوس كنت أشعر بانقباض هائل في صدري بعد رؤية المعرض الرهيب. لابد أن هناك خمسين صورة من هذا الطراز عند الرجل.

جلست على أريكة وتأملت المكان من حولي .. هناك رف رصت عليه شرائط فيديو وأقراص مدمجة. هناك جهاز فيديو في الركن. كل جهاز فيديو صار عتيق الطراز بعدما انقرض هذا الاختراع أصلاً. لكن عناوين الأفلام تدعو للتأمل: وجوه الموت – موندو – إلخ ..

أي أنها تلك الأفلام شبه التسجيلية التي تجمع لقطات حقيقية للحظات موت ناس .. لحظات بشعة على الأرجح مثل رجل تلتهمه الأسود أو رجل يمزقه قطار ..

ترى أين يحتفظ بمجموعته من الأطراف المبتورة من جثث؟ بل أين يضع الجثث نفسها؟.

يجلس بردودسكي أمامي وهو يداعب عنق كلبه، والكلب يزوم في مزيج من الاستمتاع والتهديد لي..

هذا رجل فريد .. هذا هو الرجل الذي أحتاج لوضعه في كتابي ..

النقطة الثانية المهمة، هي أنه لو كان في الولايات المتحدة كلها رجل ينبش القبور ويخرج منها الجثث، فلابد أنه هذا الرجل ..

٣

عدت للبيت فأخرجت طعام العشاء من الثلاجة. وجلست ألتهم طعامي. جاء صوت جين التي صحت من نومها تسألني عما هنالك. قلت بفم مليء بالطعام:

-«أنا هنا يا ملاكي.. لا تقلقي»

ثم أنهيت طعامي فصببت لنفسي بعض الشراب وعدت لها حيث جلست في غرفة الجلوس تراقب التلفزيون. سألتني دون أن تنظر لي لانهماكها مع مسلسل سخيف:

-«كيف الحال؟»

قلت في حماسة:

-«رائع.. لو أن إد جين الذي كان يسلخ النساء ويصنع من جلودهن عباءة عاد للحياة فلن يكون سوى هذا الرجل!»
-«هل ثمة علامات على أنه من ينبش القبور؟»
-«لا علامات مباشرة. لكن اهتمامه بالموت مريب. كل العلامات تشير إلى أنه هو الرجل. لا بد أن ألتصق به لفترة»
قالت في استبشاع:
-«لا أعتقد أنها صداقة محببة.. هي كذلك خطرة»
قلت في إصرار:
-«هذا كتاب علمي.. من يكتب كتابًا عن الدرن لا بد أن يقضي وقته وسط مرضى الدرن.. لن يذهب لينعم بالهواء الطلق في الكاريبي ويكتب كتابه».
ثم طلبت منها أن تصمت.. لا أحب إطالة الجدل. هذا عملي في النهاية وشأني الخاص.

****

وكيف لي أن أعرف أن مايكل سيرل كان قد بلغ ذروة تحمله في ذلك الوقت؟ لقد صبر لفترة طويلة، لكن كل يوم كان يفقده صبره أكثر..
هناك كان يجلس في سيارته الليكساس يراقب البيت من بعيد. وأثار دهشته أن نفس الرجل الغريب صار يتردد على البيت في نفس الساعة من كل يوم، وهو يعرف يقينًا أن صاحب البيت لا يزوره أحد.
ما زالت الذكرى تطارده..

المهندس الناجح مايكل سيرل والأسرة الهادئة الجميلة. زوجته بيتي وطفله بيلي والكلب اللطيف والحديقة وأعياد الشكر والكريسماس.. الغد ممتد للأبد كطريق تحفه الورود. كان يوقن أنه من القلائل المحظوظين الذين هزموا الخوف.

اضطررته ظروف السفر إلى قضاء أيام في كاليفورنيا. بعد أيام عاد إلى بيته الجميل..

منذ اللحظة الأولى شعر بدهشة لأن الكلب لم يخرج للقائه.. فتح الباب فلم يخرج بيلي للقائه.. في الداخل لم تأت بيتي للقائه.. أين ذهب الجميع؟

دخل متوجسًا إلى غرفة الجلوس فرآهم. بعد أن ظل يصرخ لربع ساعة اتجه إلى الهاتف ليطلب الشرطة. واكتشف أنه بلل سرواله لأنه لم يعد يتحكم في عضلاته العاصرة..

لم يكن المشهد شنيعًا.. كل واحد منهم قتل برصاصة رقيقة أنيقة في القلب. كأن من قتلهم لم يرد أن يفسد شيئًا. ثم تم وضعهم في المقاعد بشكل أنيق ليبدو كأن بيتي مسترخية والطفل على حجرها، ودارى مواضع ثقوب الرصاص بشريط لاصق ملون. حتى الكلب تم وضع دعمات لتجعله كأنه قابع على السجادة وقد رفع رأسه وخرج لسانه في مرح. تمت خياطة الجفون لتظل مفتوحة. قال المحقق إنه من الواضح أن الجريمة تمت أمس لأن الجثث بحالة ممتازة.

لماذا؟ لماذا يعمد القاتل إلى وضع قتلاه في هذا المشهد العائلي المبهج؟

احتاج الأمر لشهر في المصحة وأطنان من المهدئات إلى أن استعاد روعه. هذا ما عرفته فيما بعد.

ظلت علامات الاستفهام تحوم حول هذا اللغز إلى أن رأى صورًا فكتورية للموتى. تلك العادة الكريهة التي انقرضت لحسن الحظ. هنا أدرك أن الموتى يجلسون في أوضاع شبيهة جدًا بأوضاع أسرته التي ماتت عليها.

ظلت علامات الاستفهام تحوم في ذهنه، إلى أن رأى صورًا معاصرة لموتى. تمت معالجتها لتبدو فكتورية، لكن الثياب والملامح وتصفيفات الشعر عصرية جدًا.. هناك مجنون قرر أن يعيد هذا التقليد الفكتوري. كان هذا موقع إنترنت صربي يبيع لوحاته الرهيبة هذه، زاعمًا أن لديهم مصورًا عبقريًا يعيد استنساخ تلك الصور العتيقة. اتصل بالموقع وعرض شراء بعض اللوحات...

عندما حصل على نسخ مكبرة من هذه الصور راح يدرسها بعناية.. أدرك على الفور أن هؤلاء الموتى معاصرون جدًا. ثم أن هناك علامة يعرفها.. الأحياء تكون صورهم مهتزة في تلك الصور بينما تكون صور الموتى ثابتة محددة لأنهم لا يتنفسون. هنا في هذه الصور يبدو كل شيء ثابتًا محددًا.. أي
أن كل من في الصورة موتى. السبب واضح. لا يوجد في عصرنا هذا من يرغب في التقاط صورة جوار موتاه. كل من في هذه الصور موتى..

أو ربما هم مقتولون..........؟

صار كذلك على ثقة بأنه لو انتظر وفتش جيدًا فلسوف يجد صورة أسرته. لو لم ينشرها المصور فهي ضمن مجموعته الخاصة..

ترى هل الموقع متورط؟ بالطبع لا. لا يوجد موقع إنترنت ينشر صور أشخاص قتلهم. على الأرجح يبيع المصور صوره زاعمًا أنها أوضاع تمثيلية فنية..

اتصل بالموقع بريديًا، وتظاهر بأنه صحفي يريد إجراء حوار مع المصور العبقري، فجاءه الرد بالبريد الالكتروني:

-«يسرنا أن أعمال الفنان ماكس برودسكي قد راقت لك.

ويسرنا كذلك أن نخبرك أن المصور العبقري يقيم في الولايات المتحدة في فيرمونت. لإجراء حوار يمكنك الاتصال به على رقم.........................».

ماكس برودسكي؟ صار على يقين أنه سيجد صورة أسرته القتيلة عند الفنان المزعوم. وهكذا يكون قد عرف القاتل.. أما عن سبب القتل فهو – ببساطة – لأنه مجنون.

استطاع أن يعرف عنوان ذلك البيت في ضواحي فيرمونت. وأمضى بضعة أيام يراقب المكان. يمكنه أن يدرك أن هذا الفنان مريب يتلقى زيارات عجيبة. لا يمكن أن يكون هؤلاء الزائرون موديلات. هم يبدون كاللصوص أو رجال العصابات، أما الفنان نفسه فيبدو وغدًا..

ليس المسدس.. يريد ميتة عنيفة دامية للرجل، لهذا ابتاع بلطة ومجموعة من المدى وكماشة لانتزاع الأظفار، لكن المرء لا يقتل رجلًا آخر لمجرد شكوك باهتة كهذه..

هو بحاجة إلى أن يجد صورة أسرته في بيت ذلك الرجل الكريه..

هو بحاجة إلى الدخول والتفتيش....

٤

للأسف لا يملك المرء قدرة الرواي العليم بكل شيء في القصص. لهذا لم استطع وقتها أن أعرف باقي تفاصيل هذه القصة. كنت أعود لجين العزيزة فأكلمها عن برودسكي، ثم أتناول عشائي، وأمضي الليل في وضع فقرات جديدة من كتابي ..

قالت لي جين في أسى:

-«لم تعد تهتم بي تقريبًا ... لقد استحوذ الكتاب عليك»

قلت لها إنني أكره تلك اللحظة التي يقلن فيها كلهن نفس الشيء لأزواجهن. كل زوجة تتوقع أن يدور الزوج حولها حاملاً البخور، ثم يلثم قدميها ويقعي ككلب ..

قالت لي إنها تحلم بأن تظفر بصحبة في هذا البيت الكئيب . لماذا لا ننجب ؟ . قلت لها إنني سأجلب لها صحبة بالتأكيد . الحق إن عاداتي تغيرت .. كنت لا أغادر البيت بعد العاشرة مساء أبدًا، فصرت أغادره كثيرًا ..

الحقيقة أن برودسكي ومعرضه الغريب استحوذ على تفكيري فعلاً.

ما لم أعرفه هو أن جماعة (ريبيرث) كانت في حالة عارمة من الغضب والضيق. وأنت تعرف أنهم خطرون ..

****

بدأ كل شيء امام ذلك القبر المنبوش في إحدى المقابر المجاورة. تلك الأماكن الكئيبة المكسوة بالجليد والشواهد التي يتدلى منها الثلج.

هناك وقف هؤلاء الأربعة ينظرون لقبر (آلان رادكليف) غير مصدقين. ثمة وغد ما قد جاء ليلاً ونبش المقبرة وسرق الجثمان. كانوا قد سمعوا عن جرائم مماثلة في الفترة الماضية لكن لم يجل بخاطر واحد منهم أن يحدث هذا لآلان ..

قال مارك وهو يضم المعطف الأسود إلى جسده ويرتجف من البرد. كان فارع القامة له عينان وساعتان محاطتان بالسواد تذكرانك بعيني الراكون :

-«الأمر جد خطير .. فلنعد ونتكلم عندي»

وفي خفة عاد أربعة الرجال إلى السيارة، وانطلقوا قاصدين بيت مارك الذي حوله لدار عبادة خاصة بهم. إن حرية العبادة مكفولة عندنا في الولايات ويمكنك أن تؤكد أن دينك يحتاج لوجود تماسيح في دارك، ليسمح لك رجال الشرطة بذلك. لكن جماعة (ريبيرث) كانت تؤمن بالسرية وبأن دينهم ليس للتبشير. لا نريد أتباعًا .. دعني أعترف لك أن طقوس عبادتهم كانت وحشية أو شبه وثنية في لحظات بعينها. خليط عجيب من المانوية والبروتستانتية وعبادة الشيطان. خليط لا يخرج إلا من عقل مخبول. والمخبولون – كما تعلم – لهم تأثير قوي عبر التاريخ .. إنهم يجيدون خداع الناس دائما.

لكن عقيدتهم هذه كانت تقضي بأنهم يجب أن يخرجوا زعيمهم من القبر ويحنطوه ويحتفظوا به للأبد. مات آلان رادكليف زعيمهم ومؤسس الحركة بالسرطان منذ أيام، وقد هرعوا جميعًا لقبره وهم يحملون أدوات الحفر لإنقاذ دينهم . هنا اكتشفوا أن وغدًا ما سطا على المقبرة قبلهم.

كان هذا خطيرًا، ومعناه أن أرواحهم قد ضاعت للأبد. سوف يذهبون لهيدز مملكة الموتى الجحيمية ويتعذبون دون أمل في الخلاص.

هكذا اجتمعوا في دار مارك، وراحوا يلهثون من البرد. أعد لهم مارك بعض النبيذ الساخن الممزوج بقطرات الدم من أجل الدفء وظلوا يرمقون نيران المدفأة لنصف ساعة ..

في النهاية قال مارك:

-«نحن في مأزق .. يجب أن نجد جثمان الأخ الأكبر رادكليف قبل أن يتحلل أو يتبدد»

-«وإلا هي هيدز»

كان عدد أتباع الجماعة أربعين ألفًا في الولايات .. لا يعرف هؤلاء الأربعون ألفًا أن أرواحهم مهددة.والمشكلة أن هؤلاء هم حراس قبره ..

قال مارك :

-«لا يوجد حل سوى طلب عون الشياطين .. هي ستخبرنا بالسر»

-«لكن هذا مخيف»

-«وما نحن فيه مرعب»

تشتعل النيران في المدفأة بينما يضع مارك العباءة السوداء على كتفه. يلبسون جميعًا نوعًا من المسوح، وبالطبع يرسمون على الأرض النجمة الخماسية.. يطفئون الأنوار فلا توجد سوى شموع مشتعلة وضوء المدفأة ..

يسكب مارك دم دجاجة ذبحها حالاً على النجمة. يلتفون حول جمجمة .. الخلاصة أنهم مارسوا الروتين القذر الذي يلجأ له

السحرة في الاتصال ببهيموت. وراحوا يرقصون حول النجمة كالمجانين.

في النهاية تشابكت الأيدي، وبدا أنهم جميعًا يرون ذات الرؤيا في لحظة واحدة.

همس مارك من بين أسنانه:

-«أنتم ترون ما أراه .. أليس كذلك ؟»

-«بلى»

-«قد تكلمت الشياطين»

-«اسمه ماكس برودسكي»

-«نرى وجهه. إنه يشبه لوسيفر نفسه»

-«يعيش في فيرمونت .. نرى داره وسط الثلوج»

-«نعرف أن أخانا هناك»

عندما انتهت الطقوس راحوا يلهثون وارتموا على الأرض في إعياء، لدرجة أن مارك راح ينزف من أنفه من فرط الضغط العصبي. كان العرق يغمر جبهته ويتوهج في النيران..

قال لهم:

-«سوف نذهب هناك ونأتي بأخينا .. اما من فعل هذا فليندمن أشد الندم»

عرفت هذا كله من الصحف فيما بعد .. لقد نشرت الجماعة مذكراتها مسلسلة لمدة شهرين كما تعلم . عدة صحف اشترت حق النشر.

عرفت كذلك أنهم حملوا ما يلزم من سلاح واختاروا سيارة ذات حقيبة كبيرة لتتسع للجثمان، ثم انطلقوا نحو البقعة التي رأوها في أحلامهم.

توقفت السيارة وسط الأشجار، ثم هتف مارك وهو يرفع قلنسوة السترة (أنوراك) لتغطي رأسه وأذنيه:

-«سوف نتحرك ياشباب .. معلوماتي انه يعيش وحده»

هتف أحدهم وهو يشير لسيارة ليكساس تقف بعيدًا وسط الأشجار:

-«من هذا ؟ هذه ليست سيارته .. يخيل لي أنه متلصص مثلنا»

-«لو كان ضيفًا فهو حظه العاثر .. سنجده في الداخل، وليكتشفن أنه الشخص الخطأ في المكان الخطأ ..»

وفي بطء بدأ الرجال يتسلحون ويتأهبون للتحرك ...

الليل يرخي ظلاله ، وهذا سيجعل الأمور اسهل بالتأكيد ..

لا تقلق أيها الأخ رادكليف. لن تمر الليلة إلا ومومياؤك في معبدنا.

٥

هناك دائمًا نافذة قبو صالحة للاقتحام في هذه البيوت. كل بيوتنا حصون مفتوحة لمن يريد الدخول، وقد استطاع أعضاء جماعة ريبيرث أن يدخلوا...

كان هذا قبوًا.. الثلج يتكاثف على زجاج النافذتين الصغيرتين، لكن واحدة منهما تهشمت. وعبر الزجاج المهشم تسلل الرجال واحدًا بعد الآخر.

الرائحة كانت غريبة.. عطنة. يمكن بسهولة أن تخمن وجود أجسام متحللة هنا. تبادل الرجال النظرات، ثم أدركوا أن هذه الأحواض جوار الجدار ليست أحواض سمك.

– -«يا لموهول!»

موهول هو إله من آلهتهم . معنى الكلام هو (رباه!). وانطلق شعاع خافت من النور يتفحص الأحواض الزجاجية. كانت مليئة بسائل شفاف لعله الفورمالين، وفي السائل يسبح جسد.. لعله متحلل أو سليم.. لكنه ميت جدًا...

برغم أنهم رجال أشداء خلقوا ليثيروا الخوف، فإن أنفسهم طارت شعاعًا لهذا المشهد الغريب. هناك نحو ستة أجساد مغمورة، وهناك أكثر من دن ثقيل لابد أنه يحوي كيماويات التحنيط.

راح مارك يتفقد الوجوه، ثم تصلب أمام وعاء زجاجي وهتف:

-«هذا هو أخونا.. رادكليف هنا.. لقد صدقت الرؤيا».

تكأكأ الجميع ينظرون في احترام ورهبة إلى وجه أخيهم الأكبر الطافي وسط الفورمالين. يعرفون أن عليهم أن يحرروه ويلفوه في بطانية ويحملوه لمعبدهم..

-«ليس بعد..»

قالها مارك وهو يخرج مديته اللامعة، ويلوح بها:

-«الذي فعل هذا ودنس قبره سوف يدفع الثمن»

-«أجل..»

وهكذا خرج الرجال الغاضبون من القبو، يلقي ضوء الكشاف ظلال الغيب على الموجودات فتدب فيها روح خاصة.. خرجوا إلى قاعة ممتدة كأنها معرض. ونظرة منهم إلى الجدران جعلتهم

يدركون أنها كلها صور فكتورية الطابع لأشخاص ينظرون للكاميرا، عندما كان اسمها (داجيريت).. ما هذا المكان؟ وما سر هذه الصور..

على باب الغرفة الأخرى كان هناك كلب مقتول.. كلب لبرادور جميل للأسف. لماذا يمتلك أحد الأشخاص كلبًا مقتولًا يسيل منه الدم مهما كان مخبولًا؟

دخلوا القاعة التالية التي تبدو كأنها غرفة جلوس.. مكتب من طراز عتيق ومدفأة.. ثم تصلبت عيونهم إذ رأوا – في ضوء لهب المدفأة – رجلًا يركض نحوهم طالبًا الغوث، وقد بدت عليه أفظع علامات الرعب.. كان رجلًا وسيمًا وعلى قدر من الرقي، لكن الهلع بدل ملامحه تبديلًا. لم يكن هذا هو الوجه الذي رأوه في الرؤيا.

صرخ وهو يترنح:

-«اهربوا! الشيطان يسكن هنا! إنه الشيطان!!»

لم ينتظر مايكل ليفهم، بل عاجل المهندس المذعور سيرل بطعنه نافذة في صدره، وسرعان ما انهالت عليه الطعنات من الغاضبين. لم يعرفوا جرمه ولا سبب قتله، لكنه موجود هنا وكفى. وكما قال مايكل من قبل:

-«لو كان ضيفًا فهو حظه العاثر.. سنجده في الداخل، وليكتشفن أنه الشخص الخطأ في المكان الخطأ..»

هنا تصلبوا.. رفعوا رءوسهم فأدركوا حقيقة ما يتدلى من السقف.. كان هذا هو الوجه الذي رأوه في رؤياهم. ماكس برودسكي الذي يشبه الشيطان. كان يتدلى مشنوقًا من السقف، وهو ينظر للعالم بغباء من حوله...

من قتله ومتى؟
هنا خرجت من موضعي خلف المكتب ووقفت أمامهم..
عرفوا على الفور أنني لست كما أبدو.. تساقطت المدي من أيديهم وهم يتراجعون، بينما بدأت أتقدم منهم ببطء... قلت لهم:
-«لقد مات برودسكي، وورثت أنا كل هذا المتحف بما فيه من صور وما في القبو من جثث سرقها.. كان هو تجسد أنوبيس. ابن آوى.. حارس المقابر والمسئول عن التحنيط لدى الفراعنة، ظللت أجمع معلومات لكتابي عدة أعوام، إلى أن وجدت الرجل الذي أبحث عنه.. الرجل الذي قررت أن أكون بدلًا منه. عندما وجدته قتلته لأكون أنا التجسد الجديد...»
ثم رفعت يدي منذرًا:
-«والآن أيها الصبية.. غادروا المكان حالًا قبل أن ينفذ صبري!»
لم ينتظروا أوامري.. عندما رأوا وجهي وسمعوا صوتي، عرفوا أنني بحق قد نطقت.. أنا هو الموت نفسه.. سرعان ما ركضوا هاربين من حيث جاءوا وسمعت محرك السيارة...

****

لم تعد جين تعيش معي في بيتي.. جين الرقيقة الحسناء أخذوها مني، ودفنوها تحت التراب.. القتلة!
قال لي دكتور (ستيف) وهو يقلب صفحات ملفي:
-«هل سمعت عن دكتور كارل تانزلر؟»
-«طبعًا»

لم يهتم.. كان يريد أن يواصل الكلام:

-«كان ألماني المولد لكنه يعيش في فلوريدا، وكان يعشق زوجته الكوبية إيلينا ميلاجرو، فلما توفيت بالدرن تسلل لقبرها بعد شهرين، وسرق جثتها وعاد بها لبيته.. وعاش معها.. عندما سقط جلدها أصلحه، وعندما سقط شعرها صنع لها جُمّة منه.. وكان يسكب عليها العطور والمطهرات ليخفي رائحتها. ظل معها سبعة أعوام كاملة حتى انكشف أمره ودفنوها. أعتقد أنك تعيد نفس قصة تانزلر. أنت عشت هنا عدة أعوام تكلم جثة متحللة محنطة، وتكتب كتابًا غامضًا عن النكروفيليا وتزور أشخاصًا غامضين»

يريد إقناعي أن جين ميتة وأن كل كلامها معي كان وهمًا في ذهني.. يريد إقناعي أن كتاب النيكروفيليا وبرودسكي والمهندس وجماعة ريبي

رث كلها خيالات صنعتها لنفسي، لأنني أعشق الموت.. ولأن حبي لزوجتي وفقدها قد جعلا أسلاك عقلي تحترق كلها..

هذا الرجل يهذي. يومًا ما سأخرج من هذه المصحة، وأعود لذلك البيت وسط الثلوج في فيرمونت.. سأجد أفراد جماعة ريبيرث وسوف يحكون لهم عن لحظة التحول التي رأوها جميعًا عندما صرت أنا أنوبيس...

يومًا ما سأجد جين من جديد، ولسوف تعيش معي للأبد...

سيرون...سيرون.

تمت

حكايات مومياء الثلوج

١

ألا تخشى اللعنة حقًا؟

هذا كلام فارغ يا صاحبي.. أنت تعرف أن هذا الكلام الفارغ يُقال عن كل المومياوات في التاريخ، منذ مومياوات الفراعنة حتى مومياوات الأنكا. التعامل مع الموتى يدعو للتطير في كل مكان وزمان.. إن اللعنات تولد طيلة الوقت . أليس كذلك يا مصطفى؟ كم من كلام قيل عندكم في مصر حول هذا الموضوع!

لا توجد لعنة.

عليك أن تصدق هذا وتتصرف على أساسه..

هذا الرجل جِدّي.. أعرف هذا يقينًا، وأعرف أن دمه هو دمي.. ليس هذا فحسب، بل هناك كثيرون في الإقليم يمكن أن أؤكد لك أنهم يمتون له بصلة قربى. لقد قمت بعمل تحليل DNA مرارًا.. أنا طبيب وأعرف ما أقول، ولا شك أن هناك تطابقًا جينيًا بنسبة ٨٠%.

هذا الرجل جدي.. وهذه المومياء ملكي.. وجدي لن يؤذيني..

****

كانوا يتكلمون همسًا وهم يمشيون وسط ردهات المتحف الصامت شبه المظلم.. لم يكن هذا أنسب وقت للمناقشة، لكنهم في الواقع كانوا يحاولون تبديد توترهم..

باولو قد عطل الكاميرات وجهاز الإنذار، فهو يعرف ما يفعله جيدًا، بينما مصطفى قد قام بتخدير الحراس.. سوف يكون الأمر سهلًا.

والآن أنا مدين لك ببعض أشياء.. أولًا يجب أن أخبرك أننا في ردهة متحف جنوب التيرول في بولتسانو، بإيطاليا.. الإيطاليون يسمون الإقليم (آلتو أديجي) ويقع في شمال إيطاليا. النمسا قريبة جدًا بالمناسبة. ومن الغريب أن معظم السكان في جنوب التيرول يتكلمون الألمانية، لكن الإيطالية هي لغة بولتسانو..

ثانيًا يجب أن أخبرك أن هؤلاء هم شاب مصري قوي البنية له شعر مجعد طويل يتدلى على كتفيه، ولا يكف لحظة عن إزاحته عن وجهه بيده ذات القفاز. الرجل الثاني له ملامح دقيقة هشة كأنه دمية صغيرة الحجم، ورأسه أصلع وله عينان زرقاوان واسعتان . اسمه د. (باولو).. طبيب إيطالي. الثالث مهندس إلكترونيات إيطالي نحيل جدًا وطويل جدًا، حتى كأنه أول قلم رصاص حي في التاريخ..هذا هو (لورنزو)..

إيطاليان ومصري يزحفون في هذا المتحف في ساعة متأخرة من الليل، أو للدقة الجغرافية نحن في الساعات الأولى من الصباح.

ليست الحراسة بهذا التعقيد، فنحن لا نحرس مجوهرات تاج أو حلي ملكة أو قناع توت عنخ آمون.. نحن نتكلم عن بعض المومياوات الموضوعة وراء حواجز زجاجية، ولا أحد يسرق

المومياوات على قدر علمي إلا إذا كان عالم آثار يفهم عمله. نحن نتكلم إذن عن سرقة علمية شديدة التحذلق..

سرقة علمية.. أو سرقة طقسية..

يمكنك أن ترى الواجهة الزجاجية المضاءة بأنوار ساطعة، وهناك مقياس رطوبة ومحرار.. وفي وسط القفص الزجاجي ترقد المومياء. هي مومياء تشبه أي مومياء أخرى.. نفس العيوب والمزايا.. نفس العينين الفارغتين والأنف المتآكل.. لو وضعوا لافتة تقول إنها مومياء بعنخي أو سنوسرت الأول لما بدا الأمر غريبًا، لكننا هنا نرى الاسم بوضوح:

أوتسي... رجل الثلج التيرولي

عالج لورنزو بعض الدوائر الكهربية، وبعد خمس دقائق انفتح الغطاء الزجاجي...

-«سوف يكون الأمر صعبًا.. يجب ألا تتفتت هذه المومياء»

المشكلة أنها لم تكن مومياء. كانت هشة جدًا ونوع التحنيط الوحيد هنا هو الثلج الذي تعرضت له على مدى آلاف السنين. من السهل أن تتحول إلى مسحوق بسهولة.

بسرعة وبدقة، أخرج المصري كيسًا من البلاستيك مما تنقل به الجثث، وقاموا بحذر وبأيدٍ تكسوها القفازات بوضع الجسد المتخشب داخل الكيس، ثم حمله الفتى المصري على كتفه.. لم يكن الأمر صعبًا فالجسد ضامر خفيف الوزن كأنه طفل في السابعة..

-«هيا بنا....»

قالها الدكتور لاهثًا بينما هم يندفعون جريًا نحو باب الخروج. لا بد من كاميرا منسية سوف تلتقط صورة لهم، لا بد من حزمة أشعة

تحت الحمراء يقطعونها فتدق جرس إنذار في مكان ما.. إنها مخاطرة كبرى بلا شك.

العامل الوحيد الذي يمنحهم بعض الاطمئنان، هو أن هذا كنز علمي وليس كنزًا ماديًا.. لهذا ستكون سرقته أسهل نوعًا..

في الخارج كانت السيارة (الفان) تقف في الظلام ومحركاتها دائرة بينما الشارع خال تمامًا. خرج لهم (داريو) السائق وفتح لهم الباب الخلفي، وسرعان ما ألقوا بالجثة داخلها. ثم أمره الدكتور اللاهث بأن ينطلقوا..

لا تنسَ أن لورنزو وداريو يحملان نفس الجينات مثل المومياء. أما الفتى المصري فهو يدرس علم ترميم الآثار في إيطاليا منذ خمسة أعوام، ولديه خبرة لا بأس بها بالمومياوات...

بعد رحلة استمرت ساعتين أو أكثر، كانت السيارة قد غادرت بولتسانو ودخلت شاتو شيليار.

هناك عند ذلك الكوخ الجبلي توقفت السيارة وترجل الراكبون، ثم حملوا المومياء إلى داخل الكوخ..

-«لا تضعوه قرب المدفأة حتى لا يتلف»

قالها لورنزو.. هذه المومياء تعتمد بقوة على البرد الذي وجدت فيه منذ القدم، ولا شك أن الجو غير صحي على الإطلاق. هناك قفص زجاجي آخر تم التحكم في درجة حرارته ورطوبته، وضعوا فيه المومياء ثم أغلقوا الغطاء.

كان د. باولو يشعر براحة أكيدة. لقد نجح في أن ينقذ جده.. جده الذي يُعامل كأنه حيوان في حديقة الحيوان، يأتي العالم كله ليراه ويلتقط له الصور. لقد حق لهذا الجد أن ينعم بنوم طويل مريح.. لا ينتهك خلوته أحد..

كان الدفن واردًا بالطبع، لكن من المجنون الذي يحرم البشرية من أثر عظيم كهذا؟ السياسة المثلى هي أن تحتفظ به في ظروف مناسبة لكن امنعهم من إهانته.

تساءل مصطفى وهو ينظر للمومياء الراقدة :

-«ماذا تنتويه بعد ذلك؟»

قال الدكتور الإيطالي وهو يشعل غليونًا لأول مرة منذ أربع ساعات، لذا سحب الدخان في جشع:

-«سوف أدعو بعض الشخصيات المهمة من الذين يحملون نفس الجينات ليزوروا جدهم.. النمساويون يعتقدون أنه أقرب لهم، بينما أنا أعتبره مواطنًا إيطاليًا»

ثم نظر لمصطفى وسط سحابة الدخان الكثيف:

-«هل تقبل من يقول لك إن رمسيس الثاني لم يكن مصريًا على الإطلاق؟»

-«سوف أفجر رأس من يزعم هذا»

-«نحن لن نفعل هذا بالضبط.. سوف نفعله بشكل أكثر رقيًا . لقد أخذنا المومياء لنا.. لن يجدوها أبدًا»

****

دعنا من هذا السخف إذن..

أنت تعرف كما أعرف أن هذه المومياء ستعود للحياة. من الغباء أن أفترض أنك لم تخمن ذلك. القصة دائمًا هكذا ربما منذ عصر (جوهرة النجوم السبعة) لستوكر.. لا يمكن الكتابة عن

مومياء دون أن تعود للحياة. لا بد أن المومياء التي لا تفعل هذا سيئة الأخلاق..

ليس هذا هو المهم.. المهم كيف سيحدث هذا؟ والأهم هو مصير ذلك الشاب المصري.. وماذا عن كلارا الحسناء؟

٢

لا يعرف الوقت..

فقط كانت الشمس تنحدر نحو الغرب، وقد بدأ اللون الأرجواني الممزوج بالأزرق يلطخ كل شيء.

كان يحمل البلطة النحاسية ويتلفت حوله في رعب. ما اسمه؟ لا اسم له.. إنه هو. هذا زمن تعرف فيه الشخص برائحته وشكله وصوت زئيره، لكننا للتسهيل نطلق عليه اسم أوتسي..

لا بد أنك خمنت أننا قد عدنا بآلة الزمن الخيالية ٥٥٠٠ عام في الماضي.. هناك خمسة وخمسون قرنًا تفصلنا عن هذه اللحظة.

بالتأكيد لم تكن صحة أوتسي على ما يرام. مفاصله متآكلة تمامًا من النقرس والروماتزم.. ولديه أكثر من حصوة في المرارة.. أما أمعاؤه فمليئة بالديدان وأسنانه تالفة.. ويبدو أنه كان يعاني تسممًا مزمنًا بالزرنيخ والنحاس. هذا بالطبع يقضي على أسطورة الرجل القديم المتمتع بصحة رائعة.. هذا رجل سقيم..

البرد جعل جلد وجهه مشققًا كأنه مدبوغ.. لو ضحك – وهذا مستحيل – لسمعت صوت تمزق الأنسجة..

هناك يمشي والبخار يتصاعد من فمه. يمكنك أن ترى الوشم الذي رسمه على عنقه. لو نزعت ثيابه لأدركت أنه موشوم أكثر

من أي مطرب راب معاصر. كانوا يصنعون الوشم بإحداث شقوق ثم حشوها بالفحم. يبدو أن هذا أقدم وشم في التاريخ، ويرى بعض العلماء أن هذا كذلك أقدم علاج بالإبر الصينية في التاريخ!

شعر بجوع شديد.. لقد بدأ يهضم ما تبقى من لحم التيس الذي اصطاده منذ يومين..

هناك بعض النباتات النامية التي بدأت تظهر من بين الثلوج الذائبة. لقد اقترب الربيع، لكنه بالطبع لم يكن يملك أي نوايا شاعرية.. اتجه للنبات وراح يبحث عن غايته بين الأزهار. فيما بعد سوف يستطيع العلماء تمييز كل حبة لقاح في معدته، ولسوف يرسمون رحلته بالضبط عبر ثلوج التيرول..

كان يعرف أنهم يطاردونه. لا يعرف لهم أسماء لكنهم الأعداء..

يجب أن يتحاشاهم بأي طريقة..

كان لا يخاف المرتفعات، فهو قد قضى أعوامه الخمسة والأربعين بينها يرعى الماشية، وكانت رئته بحالة ممتازة، لكن من الواضح أنهم يجيدون تسلق المرتفعات مثله..

يمكنك أن ترى ثيابه المعقدة المناسبة للبرد.. كلها مصنوعة من جلد وفراء الحيوانات.. ومن الطريف أن تلاحظ أنه صمم حذاء يصلح للمشي فوق الثلوج. الحاجة أمّ الاختراع فعلًا. هناك جيب يضع فيه إزميلًا ومطرقة..

على ظهره جعبة فيها عدة أسهم وقوس..

يعرف أنه وحيد، لكن لربما استطاع ببعض التحايل أن يخدعهم أو يهرب منهم... شعر بالعصارة الحمضية تتجمع في صدره..

ما كان يجب أن يأكل لحم التيس بعد ما بدأ يتلف، لكنه كان بحاجة للطاقة..

والحقيقة أن هذه الوجبة لن تُهضم أبدًا.. حتى بعد ٥٥٠٠ عام..

****

عندما انتهى مصطفى من إنهاء إجراءات الحصول على الجنسية، كان قد قرر ألا يعود إلى مصر أبدًا بعدما انقطعت علاقاته هناك كلها. الأب والأم توفيا.. الأخوات تزوجن ولا يبالين به.. حبيبته تزوجت.. لم يعد هناك مايربطه بمصر سوى النيل والهرم وطبق الفول.. سوف يحاول أن يجد بديلًا في إيطاليا ويحاول أن يحب البيتزا والباستا، وبالتأكيد سوف يجد حبيبة في مكان ما.

كان قد درس ترميم المومياوات، لكنه تحاشى أكثر من مرة أن يعود لمصر. على الأقل في الفترة التالية. يعرف أن مصر نداهة سوف تناديه لأحضانها مهما ابتعد.. هو فقط غير مهيأ لهذا العناق بعد.

كان يعاني الفاقة.. دخله يكفي بالضبط للطعام والمسكن.. وكان يقيم مع طالبة إيطالية حسناء اسمها كلارا. كانت كلارا تحبه حقًا لكنها ترفض مبدأ الزواج تمامًا.

عندما قابل د. باولو في الجامعة، قدر أنه على شيء من الجنون. لكن الجنون معدٍ، وقد سمع من الرجل كلامًا كثيرًا مبهرًا عن مومياء أوتسي.. بالواقع لم يكن الرجل يفكر إلا في أوتسي..

ولما زار مصطفى المتحف في بولتسانو رأى المومياء، فلم تبد له مبهرة جدًا.. لا يمكن أن ينبهر المصري بمومياء أبدًا بعد كل ما رآه، لكنه عرف أن العلماء قد فحصوا كل شعرة في رأس هذا الرجل البائس.. أجروا مئات فحوص الأشعة ومئات تحاليل الحمض النووي.. لا بد أنهم يعرفون شكل حبيبته لو كانت له حبيبة..

هنا توقف د. باولو أمام صورة عملاقة في ركن القاعة..

رأى مصطفى رجل كهف مدثرًا بالفراء، له شعر طويل ولحية، يحمل فأسًا ومدية.. قال له د. باولو إن هذه صورة خلقها الكمبيوتر لأوتسي. هناك علم كامل في الطب الشرعي يقوم على إعادة تشكيل وجوه الجماجم ومعرفة كيف يبدو أصحابها. لاحظ أن باولو ينظر له وللصورة ويبتسم.. هنا فهم سبب اختياره هو بالذات..

مصطفى يحمل نفس ملامح أوتسي.. لو أنه أطال لحيته طبعًا.

همس مصطفى في حنق:

-«لا تقل إنني أحمل جينات هذا الشخص..»

كان يعرف أن التيرول يعج بجينات أوتسي.. هناك أقارب وأحفاد كثيرون له هنا.

قال د. باولو وهو يضع إصبعه أمام فمه بمعنى (خفض صوتك):

-«لم أقل هذا.. لكنني أتحدث عن روح تناسخت في شكلين..»

-«تناسخ الأرواح كلام فارغ.. أنا أؤمن بهذا..»

-«وأنا أؤمن بالتناسخ»

كانت هذه محاورة عابرة وانتهت، لكن ما حدث بعد هذا هو أن مصطفى تلقى عرضًا مغريًا جدًا كي يتعاون مع الدكتور في سرقة المومياء. كان الأمر أقوى من أن يُرفض، ثم أن الأمر يقع ضمن نطاق اهتمامه على كل حال.. نحن نتكلم عن المومياوات..

****

في العام ١٩٩١..

على الحدود النمساوية الإيطالية يقف الزوجان هلموت وإيريكا فوق هذا المرتفع.

كانا ينظران في دهشة وذهول إلى الجثة التي وجداها في ممر تيسنيوخ.. كثير من المتسلقين سقطوا هنا ولقوا حتفهم، وقد خطر لهما أنها جثة سقطت قريبًا..

كانت المرأة ترتجف من الرعب وهتفت:

-«هذا شنيع!!»

قال هيلموت وهو يحتضنها بقوة:

-«سوف نعود ونجلب بعض الرجال غدًا»

كانت عملية تخليص الجثة المتجمدة من تحت الثلوج عسيرة جدًا. ومنذ اللحظة الأولى أدرك من استخرجوا الجثة أنها قديمة جدًا، وقدر عالم حفريات أنها تعود لأربعة آلاف عام..

حدث خلاف على تقسيم الحدود..

في النهاية جاء قرار التحكيم بأن أوتسي ينتمي لإيطاليا وليس النمسا. وذهب أوتسي إلى متحف جنوب التيرول..

من الغريب كذلك أنهم وجدوا حجرًا تم استخدامه في كنيسة قريبة، وهذا الحجر يعود لذات حقبة أوتسي.. على الحجر ترى صورة لا بأس بها لرجل يتلقى سهمًا في صدره. نفس موضع إصابة أوتسي. من هو أوتسي؟ وما أهميته لدرجة أن يصنعوا له نقشًا على حجر؟

حكاية مومياء الثلوج ٣

أوتسي يرقد على بطنه فوق صخرة ويراقب الأفق.. البخار يتصاعد من فمه كأنه سحابة صغيرة، حتى شعر بأن هذه السحابة سوف تفضح أمره..

تحسس البلطة وتحسس قراب السهام..

لا شك في أنه قادر على إلحاق ضرر بالغ بهم. سوف يهشم صدر ورأس أربعة منهم، لكن النهاية قريبة على كل حال. لا مفر سوى المراوغة..

أخيرًا استطاع أن يراهم. كانوا هناك.. عددهم لا يقل عن عشرة، وهم يتسلقون الصخور في حركة اقرب للتمشيط.. وأدرك أنهم يحملون جثة. لا يمكن قول إنها جثة صديقه. لا توجد صداقات في زمن كهذا، لكن يمكن أن نعتبره (حليفه).. يصطاد معه ويستطيع أن يغمض عينيه عنه. الآن يمكنه أن يرى جثة هذا الحليف يحملونها والرأس يتدلى ويتأرجح مع كل هبوط أو صعود.

لماذا يحملون الجثة؟ أنت تعرف أنهم لم يكونوا أكلة لحوم بشر. لكن أوتسي كان يعرف سبب الاحتفاظ بالجثة. سوف يتركونها فوق صخرة شامخة كي تلتهمها الأرواح . عقيدة عبادة الأرواح راسخة لدى البشرية منذ زمن سحيق.

يمكن أن يطلق سهامه الآن.. لكن لن يطول الأمر حتى يصل له الباقون..

فليبق ساكنًا...

لكن الخطط من هذا الطراز تكون هشة جدًا. هذا الماعز الجبلي اللعين كثيف الفراء وثب من جواره، وبما أن الجليد لم يذب بعد، فقد انزلق حافره.. تمالك نفسه بصعوبة، لكن قطعة ثلجية عملاقة انحدرت من أعلى محدثة دويًا وتناثرت..

رفعوا رءوسهم.. وأدرك أوتسي انهم رأوه.. تصاعدت صيحات النصر.

لم يعد هناك داعٍ للتخفي.. إنه في مكان عالٍ ويمكن أن يؤذيهم بقسوة قبل أن يموت. جرد سهامه وأطلق على الرجال ثلاثة أسهم.. وسرعان ما رأى رجلين ممددين على الصخور يحاول كل منهما أن يخرج السهم من صدره.. ثم همد أحدهما..

انطلق يصعد لمستوى أعلى وهو يلهث من البرد والانفعال...

هنا فوجئ بواحد منهم يعترض طريقه وهو يزأر بوحشية ويلوح برمح.. لحيته منتفشة وعيناه من نار واللعاب يسيل من شدقيه كالضباع. وأدرك أنه جاء من طريق مختصر بين الصخور ليهاجمه من الخلف.

لم ينتظر.. طوح بالبلطة فشج رأس المهاجم إلى نصفين.. بعد ٥٥٠٠ عام سوف يندهش العلماء لأن هناك أكثر من نوع من الدماء على البلطة وعلى ثياب أوتسي. ثم يقررون أن السبب هو أنه قتل كثيرين قبل موته.

طار سهم من مكان ما فانغرس في صدره..

لا جدوى من الهرب، سينتهي كل شيء حالًا، والمهم أن ينتهي بسرعة..
عندما استدار للخلف كان أول ما رآه البلطة العملاقة المتجهة نحو جمجمته...

****

على مائدة العشاء سال الكثير من الخمر، والتهم الرجال أطنانًا من المكرونه. هناك نوع من النبيذ العجيب يقف بالضبط بين النبيذ والجعة، وهو يشي بالامتزاج بين الثقافة النمساوية والإيطالية التي تميز هذا المكان من التيرول، وكان مصطفى يفضله بشكل خاص، أما الرجال فتناولوا النبيذ العادي. كان البرد شديدًا وهم جياع لذا التهموا الكثير..
د. باولو كان مرحًا وقد بدا أن خطف المومياء قد سره جدًا. هذا حلم ليس هينًا.. منذ رآها للمرة الأولى حلم بأن تكون له..
تساءل مصطفى بلسان ملتو وهو يشرب كأسًا رابعة:
-«كم من الوقت تعتقد أنه سيمر قبل أن نجد رجال الشرطة فوق رءوسنا؟»
قال لورنزو بفم مليء بالطعام:
-«بفرض أن هناك كاميرا أفلتت منا ومن خبراتي الإلكترونية، فهم سيجدون صور أشخاص ولن يعرفوا من هم.. ليست لأحدنا سوابق أو صور، كما أننا لا نتمتع بالشهرة. سوف يذيعون صورتنا في التلفزيون وعلى شبكة الإنترنت لكن هذا سيعطينا وقتًا للتحرك. رأيي الخاص أن هذه عملية محكمة»

هكذا واصلوا الأكل في صمت..
قال مصطفى ورأسه يتأرجح وجفناه ثقيلان كأنهما من صخر:
-«أعتقد أن الأحداث كانت مرهقة.. أعتقد كذلك أنني أفرطت في الأكل.. أفتح عيني بصعوبة بالغة»
كان د . باولو يعرف أن السبب هو المخدر الذي دسه في النبيذ الذي يفضله مصطفى، لكنه واصل أداء دوره حتى النهاية وبدا كأنه موشك على النوم بدوره..
في النهاية وضع مصطفى رأسه على المنضدة، وراح يغط بصوت عال.. وغطى شعره الطويل وجهه. بدا هشًا مثيرًا للشفقة..
قال لورنزو وهو يلقي بالمنشفة:
-«انتهى الأمر..»
وقال السائق داريو:
-«سوف يتعبنا في حمله»
قال د. باولو وهو يملأ كأسًا أخرى:
-«لننتظر قليلًا.. ربع من يتم تخديرهم يستيقظون في اللحظة الأخيرة ليضربوك.. اجلسوا حتى نتأكد من أنه نام»
مرت عشر دقائق، ثم أن د. باولو أشار للرجال فحملوا مصطفى ثقيل الجثة..
خلال دقائق كان المشهد قد تغير تمامًا في الغرفة الداخلية. تم وضع منضدة تشبه مناضد الجراحة.. وتعاون الرجال على إرقاد مصطفى على المنضدة.. الآن يأتي لورنزو بجهاز معقد شبيه بأجهزة القلب الصناعي، ويتحرك على عجلات، فيوصل مجموعة من الأقطاب برأس مصطفى..

في الوقت نفسه فتح داريو وباولو القفص الزجاجي . أخرجا المومياء ووضعاها على الأرض، ثم تعاونا على توصيل مجموعة أقطاب برأسها المهشم...

بدا الأمر

للحظة كأنه لقطة من فيلم فرانكنشتاين يونيفرسال، مع مؤثرات ستريكفادين الكهربية الشهيرة. بالفعل بدأ عداد الكهرباء يسجل استهلاكًا مخيفًا وبدأ المصباح يتراقص.

كان الرجال يعرفون ما يفعلون، فلم تكن هناك أسئلة.. لقد تم ترتيب هذا السيناريو مرارًا. دعني أشرح لك بعض النقاط: د. باولو يملك نظريات معينة مخبولة بصدد جده، وهي نظريات تخلط بين علم الفيزياء والميتافيزيقا. كان يؤمن بأن أوتسي قد وجد عبر العصور على عدة أشكال.. وكان يؤمن أن القدر قاده إلى مصطفى الذي يشبه أوتسي تمامًا. هذه رسالة تخبره أن التجربة قد آن أوانها..

قال للورنزو بصوت مرتجف:

-«تأكد من كل شيء... »

لو سارت الأمور على ما يرام، فلسوف ينتقل وعي مصطفى إلى أوتسي.. سوف تدب الحياة في المومياء وتنهض. في الوقت نفسه سوف تفرغ الحياة من مصطفى ولسوف يسقط ميتًا... ببساطة لأن المومياء لا تملك وعيًا..

ستكون هناك جثة، لكن في التيرول يمكنك التخلص من عشرين جثة لو أردت..

حبس أنفاسه، وهو يراقب سريان الموجات الكهرومغناطيسية التي يسجلها ألف عداد ومؤشر، ثم هتف بلهجة مسرحية:

-«الآن يا شباب.. سنغير التاريخ!»
وضغط على الزر الأزرق..

٤

للحظة تألقت الغرفة بضوء أزرق غريب .. يشبه الأمر ذلك الضوء الذي يغمر الشارع كله عندما يكون هناك من يقوم بعملية اللحام. رائحة أوزون قوية لو كانت للأوزون رائحة ..
كان التأثير الكهرومغناطيسي قويًا وشعر الرجال الثلاثة بأنهم في خلاط أسمنت .. طنين يصم آذانهم .. غثيان ..
ثم بدأ دخان يغمر المكان ..
هتف داريو وهو يقاوم حتى لا يفقد الوعي:
-«هناك شيء خطأ ... ثمة حريق في مكان ما ..»
لكن لورنزو والدكتور كانا يتوقعان هذا .. المهم أن تنتهي هذه اللحظات سريعًا. للأسف لا يمكن الضغط على زر لإنهائها. هذه دورة تستمر ٨٠ ثانية ولا بد من استكمالها ..
فجأة دوى الانفجار، وشعر ثلاثة الرجال بأنهم يُقذفون للخلف . كان داريو قد أوقد فرن الموقد ذات مرة بينما كان مليئًا بالغاز، فانفجر وطار هو ليرتطم بالجدار. لقد تكرر ذات الشعور من جديد.
كان هناك .. يتنفس بصعوبة وهو على الأرض. نهض وراح يتفقد الآخرين ...

كان هناك خليط من الأجساد المكومة. الدكتور .. مصطفى .. لورنزو .. استطاع أن يدرك أنهم يتنفسون .. الدخان يتصاعد من الجهاز..

راح يصفع خدي الدكتور حتى يفيق.. ثم بدأ يصفع لورنزو. من المؤكد أن مصطفى لم يمت .. صدره يعلو ويهبط بلا توقف ...

فتح الدكتور عينيه بصعوبة وغمغم:

-«لقد فشل كل شيء . فشل كل شيء»

ثم فتح عينيه عن آخرهما وهتف:

-«أين أوتسي ؟»

بالفعل لا يوجد أثر للمومياء .. فقط تتدلى الأقطاب في الهواء وتتأرجح. لا يمكن أن تكون المومياء قد تفتتت لأن من تسقط فوقه قنبلة ذرية يترك بعض الفتات. هنا لم تعد هناك مومياء أصلاً..

– -«الغليون .!... أين الغليون!»

غريب أن يكون الغليون أول ما خطر له .. لكن غرابة الأطوار مقبولة لدى العائدين من انفجار كهذا. نهض لورنزو بدوره وراح يتفحص أطرافه الطويلة .. من الواضح أنه سليم. على الأقل ما زالت أطرافه موجودة ..

هتف لورنزو متحسسًا رأسه:

-«المومياء !... هناك من سرقها !»

-«كف عن هذا الكلام الفارغ !،، نحن لم نغب عن الوعي أكثر من دقائق ..»

-«إذن ؟؟»

قال د. باولو وهو يحشو الغليون الذي وجده:

-«الاحتمال الوحيد بالنسبة لي هو أن الطاقة قد بخرت المومياء .. تلقت شحنة حرارية هائلة محتها من الوجود»
-«رباه»
-«وهذا معناه أننا فقدنا أثرًا تاريخيًا لا يقدر بثمن .. لقد كانت مغامرة بائسة، وقد دفعنا نحن والعالم ثمنها غاليًا»
هنا رأح مصطفى يئن، فألقى د. باولو نظرة كارهة عليه وقال:
-«لم يحدث شيء لهذا اللعين .. حساباتي خاطئة !!»
تساءل داريو:
-«وماذا نقول له عندما يفيق ؟»
همس الدكتور حتى لا يسمعه مصطفى الذي يجيد الإيطالية تمامًا:
-«الانفجار سوف يساعده على تصديق أي قصة .. سيحسب أن قطاعًا قد مُحي من ذاكرته مع الانفجار، ولسوف يكوّن ذاكرة زائفة عما حدث»

****

رأى مصطفى البلطة الهائلة تتجه نحوه فارتمى فوق الثلوج ..
لم تصبه البلطة .. كان يشعر بالسهم يبرز من صدره، وقدر أنه لم يؤذه جدًا. مد يده وبقوة انتزع السهم فانبثق خيط من دم وراءه.
أين أنا؟ ماذا أتى بي هنا؟ هذا البرد الشديد .. لماذا أرتدي هذا الفراء؟
من اين جاءت هذه الثلوج الكثيفة ؟ من هؤلاء المهاجمون .. ؟

على كل حال رأى رجلين يهرعان نحوه، وكان على حافة جرف زلق. عرف أن أي حركة ستلقي به من عل، لا يستطيع عمل شيء. الأقدار تدخلت في اللحظة المناسبة، فقد انهارت الأرض تحت أقدام الرجلين، فصرخا وتناثر الجليد الناعم ..

رأى عددًا من السهام تنطلق نحوه فركع على الأرض ...

ماذا حدث؟ كان يشرب النبيذ مع البروفسور في الكوخ الدافئ، ثم حدث شيء ما .. هذا كابوس ...

صاح بأعلى صوته بالإيطالية:

-«ماذا تريدون مني؟»

فجاءته الإجابة أقرب للزئير .. هونجا هونجا .. مووووووووه ....!

هؤلاء نوع من الوحوش .. لا شك في ذلك ..

كانوا قادمين من أسفل الجرف وهم يعوون ويزأرون ملوحين ببلطات نحاسية ملفوفة بجلود الحيوان. أدرك أن قطعة الجليد التي يقف خلفها قابلة لأن تتفكك .. ركع وهوى عليها بضربات متسارعة بالبلطة. ركلها بقدمه.. تدحرجت لأسفل ككرة ثقيلة راحت تزداد حجمًا وسرعة وهي تندفع ..

عندما بلغت المهاجمين كانت سلاح قتل .. أسقطت اثنين في الثلج وبعثرت اثنين ولعلها مرت فوق واحد .

صرخ بأعلى صوته:

-«أنتم تتلقون العقاب!»

أسند ظهره للجدار وراح يحاول تهدئة ضربات قلبه الموشك على الانفجار .. اهدأ .. اهدأ .. من الواضح أنهم أغبياء ..

شرسون لكنهم أغبياء.   أنت تملك الذكاء وبالتأكيد سوف تتمكن من قهرهم ..

راح يتأمل الوشم الغريب على ذراعيه .. ثم راح يهرش شعره المنكوش .. التقط قملتين من شعره تفحصهما في هلع، وشعر بأن هناك بركان نار في معدته ..

أين رأى هذا الوشم من قبل؟

ثم ارتجف هلعًا .. كان هذا منذ ساعات ..

المومياء !!!

****

-«هل ترغب في الرحيل يا مصطفى؟ سنعيدك إلى بولتسانو»

-«هل أنت بخير؟»

-«أنت بحاجة لنوم عميق»

قال د. باولو:

-«إنه في حالة صدمة عصبية .. أرى أن نعيده لمسكنه حالًا.. كلارا صديقته تعرف كيف تعنى به .. لا .. لا أطباء»

لم يتكلم مصطفى .. بينما شعره الطويل يغطي وجهه وهو يستند إلى داريو ولورنزو .. أطلق صوتًا غريبًا من بين شفتيه وزاغت عيناه .. بدا كمن يحملونهم للشنق عندما تتخلى أقدامهم عنهم ..

في توتر سانده الرجلان متجهين إلى خارج الكوخ .. لحق بهما د. باولو وهو يرمق الكوخ في حسرة ..

جلس في السيارة الفان جوار السائق داريو، بينما جلس لورنزو جوار مصطفى في الجزء الخلفي .. دار المحرك وانطلقت السيارة وسط طريق الجبال، بينما بدأ الأفق يتلون .. إن الفجر قادم بعد ليلة عصيبة طويلة.

كان باولو شارد الذهن ... يدخن الغليون محاولًا فهم لماذا فشل ..

أنت تعرف طبعًا أن وعي مصطفى انتقل ليسكن جسد أوتسي .. بينما وعي أوتسي قد صار في جسد مصطفى، لكن هؤلاء الحمقى لا يعرفون ذلك ..

إنهم سذج .. أليس كذلك؟

٥

في الشارع الهادئ الخالي الذي بدأ ضوء النهار النضر يكسوه، لكن الناس لم تصح من نومها بعد. يترنح ستافرو ممسكًا بزجاجة الخمر التي لم يبق منها سوى قطرات. يتمسك بعمود نور وهو يتساءل عن سبب تحول قدميه إلى مكرونة مسلوقة. يرى العالم في غشاوة ولكم تمنى لو رأى الأفيال الوردية التي يقولون إن السكارى يرونها. لكنه لم ير فيلاً ورديًا ....

رأى السيارة الفان الواقفة ..

ترتج .. شيء يرتطم بها من الداخل كأنها تقل فيلاً هائجًا. هل هذا صوت صراخ؟

«عندما يحملك أحدهم من قفاك ليضرب برأسك سقف السيارة، فإنك لا تدري هل تختنق أم تموت من إصابة الرأس».

ثم رأى رجلين يترجلان .. أحدهما صغير الحجم والآخر قوي، وهما يهرعان إلى الجزء الخلفي من السيارة .. يفتحان الباب..

جو عام من الانزعاج والذعر .. يقفزان للداخل ..

«الأسنان التي تطبق على الحنجرة ليست أروع شيء في العالم .. صدقني».

صرخة مكتومة، ورأى دمًا ينتثر على زجاج العربة، ثم صرخة مكتومة أخرى.. هذه المرة سقط رجل من الباب المفتوح .. وخيل للسكير أن الرجل بلا صدر.. أو أن هناك ثقبًا هائلاً في منتصف صدره ..

من الباب الخلفي للسيارة وثب رجل ضخم له شعر طويل يتدلى على كتفيه .. كان وجهه ملوثًا بالدم، كأنه أسد فرغ من التهام وعل .. نظر حوله في توحش .. ثم داس جثة الرجل الملقى على الأرض الذي لم يعد لديه صدر ...

تلفت العملاق حوله، ثم مشى نحو بناية قريبة ...

نظر ستافرو إلى الزجاجة، وقدّر أنه شرب أكثر مما ينبغي.. هذا الذي يراه لا يمكن أن يكون حقيقيًا. على الأرجح هي أفيال وردية من نوع جديد ..

قال لنفسه:

-«هيك!.. الساحرة الشمطاء في بيتي معها حق. كان علي أن أنام في فراشي وأنعم بالدفء .. هيك!».

ثم طوح بالزجاجة في أقرب صندوق قمامة.. في الواقع لم يكن قد بقي فيها الكثير ..

****

كلارا هرعت لتفتح الباب لأن البوّابة نائمة على الأرجح.
هي بناية متواضعة من خمسة طوابق. لها ذات الطابع الأوروبي القديم المميز. كل شقة تتكون من غرفتين ومطبخ وحمام ضيق والمواسير عتيقة والجدران مشققة، وهناك جهاز تلفزيون ينتمي لعصر ما قبل جهاز التحكم عن بعد.
صديق لمصطفى اتصل بها فجرًا على هاتف مصطفى وقال إنهم سيحضرونه لأنه ليس على ما يرام. أصابها الهلع، وراحت تنتظر سماع سيارة في الشارع الهادئ.
كلارا فتاة إيطالية لديها سمات الجمال التي تحمل شيئًا يبهر كل واحد، وقد كانت محظوظة لأنها قابلت ذلك العملاق المصري طيب القلب مصطفى. قضت معه أعوامًا سعيدة لكنها رفضت كل محاولاته للزواج .. تريد أن تظل حرة تطرده متى أرادت ..وكانت تؤمن أن كل شخص حتى شارلي شابلن نفسه سوف يصير مملاً لا يطاق بعد فترة طالت أو قصرت. عندها لا تريد أن تتحمل شخصًا مملاً.
سمعت صوت سيارة فأطلت من النافذة ..
لم تفهم ما يحدث لأن السيارة الفان تقف عند المنعطف .. ثم رأت مصطفى قادمًا من خلف السيارة ..
أصابها الجزع!. إنه ملوث بالدم!! وجهه وصدر قميصه .. ماذا دهاه؟
هرعت ركضًا على الدرجات المنحدرة ثم مدت يدها تولج المفتاح القديم في البوابة الخارجية. خرجت له في الشارع تنظر لعينيه الزائغتين والدم الذي يغطيه ويسيل من بين أسنانه ..

-«مصطفى!.. ماذا دهاك؟؟»
واندفعت نحوه لكنه أزاحها بخشونة، ثم مد يده يطبق على معصمها ..
جرها معه نحو البناية، وهي لا تفهم شيئًا ..
مصطفى/ أوتسي كان يشعر بشيء غامض يقوده في هذا الاتجاه بالذات .. ثمة شيء غريزي يحركه، كأنه جاء هذا المكان مرارًا .. السبب الآخر هو أنه كان بحاجة إلى الارتواء بعد كل ما لوث فمه من دماء. كانت معركة جيدة جندل فيها خصومه ومزق حنجرة أحدهم وكسر عنق الثاني، ثم مد يده في قلب القالث فانتزعه .. هو كالوحوش يريد شرب الماء ليزيل مذاق الدم ..
ثم أنه يشعر بحاجة قوية للتكاثر .. غريزة التكاثر تدفعه دفعًا نحو هذه الأنثى ..
-«مصطفى .. لماذا تشدني بهذه القوة؟».
لكنه أصدر نوعًا من الزئير ..
ثمة شيء غريب هنا .. انظري له جيدًا يا بلهاء. هذا ليس مصطفى .. هاتان ليستا عينيه. هاتان عينا مجنون ..
انظري جيدًا يا بلهاء .. هذا الدم على وجهه وفمه وصدر قميصه لم يأت من اي جرح في جسده .. لا توجد جراح .. ألا تلاحظين هذا؟ هذا دم غرباء!
إنه يفتح الباب .. إنه يصعد معك إلى الشقة وهو يصدر خوارًا ...

****

الكهف كان دافئًا .. تشعر بقشعريرة عندما تتذكر البرد القارس بالخارج، وكل تلك الثلوج ..

هناك مساحة واسعة وسط الهوابط، تتلظى نار ممتعة. وهم جميعًا يلتفون حول النار وينظرون لك في ذعر.. رائحة لحم يشوى في مكان ما ..

تتقدم مرغمًا فوق الصخور وأنت تلوح بالبلطة منذرًا. يبدون بالضبط كالرجال الذين هاجمتهم بالخارج، لكنك مرغم على الانضمام لهم لأنك لم تعيد تطيق الصقيع ..

يا للرائحة الكريهة!.. يأكلون وينامون ويتغوطون في م كان واحد ولا يستحمون ..

تتقدم نحو النار. أنت لا تعرف بروتوكول رجال الكهف، ومن الوارد أن ترتكب خطأ قاتلاً. تجلس وتنظر لهم .. تقول لهم:

-«أنا قد جئت في سلام .. لا أريد سوى بعض الدفء!».

هنا بدا عليهم الذعر والذهول.. وتراجع بعضهم غير مصدق .. أحدهم لوح بالرمح وهتف .. فقلت أنت:

-«ماذا تريدون يا رفاق؟».

من جديد بدأ الصياح ..

أدرك مصطفى الحقيقة .. هؤلاء لا يعرفون الكلام .. لا يعرفون سوى تلك الأصوات المخيفة من حلوقهم، فلابد أنهم يعتبرونه ساحرًا أو إلهًا ..

تأكدت الفكرة عندما مد أحدهم يده في النار وأخرج فخذ تيس مشوية يقطر منها الدهن، وقدمها لمصطفى وهو يرتجف ...

تأكدت أكثر عندما جاء أحد الرجال يحمل شيئًا وألقاه عند قدمي مصطفى فانتفض مذعورًا .. كان هذا رأسًا .. بالتأكيد رأس واحد

ممن قتلهم وقد قطعوه وجلبوه له لينال رضاه .. أو هو نوع من القرابين ..

تأكدت الصورة أكثر فأكثر عندما رآهم يجلبون له كائنًا قذرًا منكوش الشعر كريه الرائحة، وأدرك من نظرة سريعة أن هذا الكائن أنثى ..

طبعًا .. الزعيم يجب أن يظفر بالقرابين وأفضل قطع اللحم وإناث القبيلة .. يبدو أنه سيحب حياته الجديدة فقط لو فقد حاسة الشم ..

متى وكيف حدث هذا؟ ولماذا صار أوتسي؟

****

كلارا كذلك كانت تخوض أسوأ لحظات حياتها في تلك اللحظات ....

٦

لم تتصور قط أن توجد هذه الفظاظة وكل هذا التوحش في شخص. لربما كان هذا ليروق لها في وقت آخر، فبعض النساء يعشقن فكرة رجل الكهف الفظ الذي ينال ما يريد بالقوة، لكن الأمر هنا بدا مريبًا .. كان فظًا بشكل حقيقي مروع. وخطر لها أنه لا يتكلم كذلك وإنما يصدر أصواتًا حلقية.

لماذا هو حافي القدمين؟ كأنه فقد حذاءه في حادث أو انفجار.. هل انقلبت به عربة؟

-«مصطفى .. لو كنت تعتقد أنني أحب هذا فأنت تبالغ!»

تمقت بشدة هؤلاء الذين يستمرون في الدعابة بعد ما يدركون أنها سخيفة. وهكذا أطلقت إنذارًا أخيرًا:

-«مصطفى !..أنت غير متحضر!»

كانت هذه أصدق عبارة قالتها في حياتها. وفتحت فمها ثم أطبقت بأسنانها على الساعد الغليظ المشعر، فسمعت صرخة حيوانية.. أطلق سراحها فتملصت وانطلقت تركض قاصدة غرفة النوم.. الثلاجة الصغيرة التي لم تجد لها موضعًا في الشقة سوى هناك.

«التكاثر!.. التكاثر!»

أغلقت الباب خلفها.. نظرت إلى فراشها الذي مازال ساخنًا. إنها الساعات الأولى من النهار. توقفت الضوضاء على الباب.. سمعت صوت الماء يتدفق من صنبور الماء في المطبخ.. المواسير كلها تترجرج والجدران كذلك. لم تفهم سبب لهفته على الماء لكننا نفهم أنها الحاجة إلى الارتواء.. الدم.. لابد من غسل الدم الذي ملأ فمه. وما لم تعرفه وعرفناه نحن، هو أنه قضى حاجته هناك في قاعة الجلوس جوار جدار.. لم يستطع أن يعيد غلق السروال لأن الزمام شيء لا يفهمه..

من جديد تسمع ضرباته على الباب.. مع زئير قوي..

«عاااه !.. »

هل تطلب الشرطة؟ للأسف سقط الهاتف منها في الخارج .. لابد أن تصمد .. ثم من قال إنه لا يمزح ؟

تتوالى الضربات ..

مصطفى !.. كف عن هذا الذي تفعله .. أنا مذعورة فعلاً.. ثق أنني لاأجد ذرة إثارة في هذا..

هل هو ثمل؟ أصدقاؤه قالوا إنه ليس على ما يرام. فهل هذا هو السبب؟ أين رفاقه؟

«التكاثر!.. التكاثر!»

هرعت إلى النافذة لتفتحها وليتسرب الهواء البارد. هل تصرخ؟ هنا رأت السيارة الفان عند المنعطف لم ترحل بعد.. السيارة التي جاءت به.. برغم المسافة البعيدة، فقد أدركت أن هناك من يزحف على الأرض جوار الإطار الخلفي.. يزحف وهو يرتجف ...رجل طويل الأطراف كالعنكبوت أو كأنه قلم رصاص آدمي.. كان الدم ينزف بغزارة من رأسه محدثًا بركة مخيفة من اللون الأحمر.

زحف بضعة سنتيمترات أخرى ثم همد نهائيًا.

هذا الدم لم يكن دم مصطفى.. هذا دم من كانوا مع إذن..

مصطفى لم يعد هو. هناك شيء مخيف ..

كانت فتاة ذكية، وقد قدرت أن الباب سيتهاوى حالاً.. عضلات المصري القوي سوف تنتزعه من مفاصله قريبًا...

اتجهت للثلاجة.. أخرجت زجاجة الماء وبيد راجفة سكبت السائل عند مدخل الباب وحول عتبته، بحيث صار من المستحيل أن يمشي أحدهم دون أن يبتل..

نزعت قابس الثلاجة، ثم قطعت السلك بالمقص، وأعادت القابس إلى الفيشة، وبحذر طوحت بالسلك العاري ليتلوى على الأرض كثعبان... يتلوى وسط بقعة الماء فيكهربها بالكامل....

هرعت إلى المصباح الثقيل المجاور للفراش، فانتزعته من مكانه.. يصلح للضرب باعتبار هذه هي الخطة (ب) لو فشلت الخطة (أ)...

وقفت في ركن الغرفة تبكي وتنشج. لو دخل هذا الوحش الغرفة وفشلت خطتها فقد انتهى أمرها فعلاً.

«التكاثر!.. التكاثر!»

هي ضحية هشة سجينة في غرفة يوشك وحش مسعور على اقتحامها. كابوس الطفولة يتحقق يا كلارا..

تهاوى الباب ثم ظهر مصطفى وهو يزأر كأنه مذءوب في فيلم رعب..

ثم أنه صرخ وارتجف تلك الرجفة الكهربية (الجلفانية) المميزة .. وصار صوته رفيعًا حادًا، وبدا عاجزًا عن التحرر من مكانه .. ثم سقط أرضًا ...

****

أوتسي الذي صار مصطفى كان يجلس هناك أمام النار .. النار التي تتلظى في حفرة عميقة مخيفة يلتفون حولها.

لقد التهم الكثير من اللحم، وشرب شيئًا مبهمًا في نصف جمجمة.. كان الاشمئزاز يخنقه لكنه وجد نفسه مضطرًا لذلك.. رأسه يدور ومن الواضح أن هذا نوع من الخمر.. كل مجتمع عبر التاريخ صنع خمره الخاصة..

ألسنة اللهب تتعالى ...

ثم أن بعض الكائنات منكوشة الشعر راحت تثب كالقردة حول النار. هذا رقص!.. رقص بدائي جدًا يثير الغثيان ..
من الصعب أن يبقى متيقظًا برغم أن الحذر يدفعه لذلك ..

كان الآن قد بدأ يفهم تفاصيل هذا الذي حدث.. ليس كل شيء. لا يعرف ظروف ما حدث، لكنه انتقل فجأة عبر ٥٥ قرنًا ليصير هو أوتسي رجل الثلوج التيرولي.. هذا واضح.
بدأ يغيب عن الوعي بفعل الدفء.. بفعل الإرهاق.. بفعل تراقص النيران... بفعل حركة الراقصين..
ووسط ألسنة اللهب رأى..
رأى مصطفى الذي يعرف نفسه على شكله..
رآه يتقدم في غرفة يعرفها.. رآه يتلوى ويصرخ.. رأى كلارا تصرخ....
هل هو يحلم؟

****

عندما نهض مصطفى من جديد أدركت كلارا أن أسوأ كوابيسها قد تحقق ..
لقد سقط فتحرر من دائرة الصدمة الكهربية، وي
بدو كذلك أن الكهرباء كانت أضعف من الفتك بهذه الجثة العملاقة .. فقط حطمت عظامه وجعلته أكثر جنونًا.. إنه سليم.
صرخت والتصقت بالنافذة ...

قبضت على المصباح بقوة وصممت على أن تهوي به على رأسه، برغم أنها تعرف جيدًا أنه سيقبض على ساعدها بأصابع من حديد ...

هذا ما حدث بالفعل. رفعت المصباح عاليًا، لكن مصطفى الذي غطى الشعر الطويل عينيه قبض على معصمها بقوة وثنى الرسغ فسقط التمثال منها ...

-«مصطفى !.. أي مس شيطاني أصابك !!»

هنا تدرك فعلاً – وقد اقتربت منه جدًا – حقيقة أنه لا جروح في جسده. هذا كله دم آخرين.

لاااااااااااااااااااا !!!

****

هناك حول النيران كانت سرعة الرقص تتزايد ..

صوت خوار وزئير ... غرغرة من الحلوق ..

كان أوتسي يرى بعيني الخيال، وعبر ٥٥٠٠ عام كلارا الجميلة تصرخ وتبكي ... يرى مصطفى يضربها بقسوة. لا شك أنه سيفتك بها فتكًا ..

إن خيالاتهم تتراقص على جدران الكهف ..

الرائحة الكريهة ..

هنا أدرك الحقيقة: سوف يقتلونه. لقد قرأ كتاب الغصن الذهبي لفريزر يومًا، ويعرف أن قتل الأب وأكله عقيدة قديمة في المجتمعات البدائية، لأنهم يعتقدون أن هذا ينقل لهم قواه السحرية. وبعد هذا صارت عقيدة قتل الطوطم. إنه هو طوطم هؤلاء القوم..

لقد مجدوه وعبدوه وقدموا له القرابين والإناث كريهات الرائحة، وفي نفس الليلة سوف يفتكون به .. ولربما يأكلونه.

للأمر طابع ديني أكيد ...
مد يده إلى البلطة الملقاة بجواره، وفكر في أن يطبق عليها، لكن يده كانت رخوة تمامًا .. لابد أن هذا الذي شربه كان يحوي نوعًا من الأعشاب المخدرة..
فكر أن يقاوم، لكنه كان عاجزًا عن ذلك ...
هوت أول ضربة على كتفه فمزقته، ثم انغرس رمح في كتفه .. ليكونن موتًا بطيئًا شنيعًا إذن ..
ثم خطر له أن موته قد يكون الأفضل فعلاً ..
لن يتحمل الحياة في هذا الزمن ومع هؤلاء القوم ..
قد يؤدي موته لإنقاذ كلارا، فالحقيقة هي أن وعي أوتسي يحرك هذا المسخ ..
فقط يجب أن يحترق هذا الجسد .. يجب ألا توجد مومياء يجدها العلماء بعد ٥٥ عامًا .. يجب أن ينال أوتسي الراحة النهائية، وإلا جاء عالم مجنون بعد كل هذه القرون وأعادها للحياة من جديد..
برغم الطعنات التي شلت حركته مع المخدر، زحف نحو النيران المتأججة وألقى بنفسه فيها ..
وارتجف البدائيون الذين لم يفهموا ما حدث .. بدل أن يقتلوه وجدوه يقتل نفسه بنفسه.. يتلظى في النيران ويصرخ...

****

ارتجف مصطفى الذي حاصر كلارا في الركن ..
زاغت عيناه، ثم تهاوى أرضًا ...كأنه دمية ماريونيت بلا خيوط ...
على الأرض تكوم ولم تكن هناك أي علامة للحياة سوى تنفسه ..
زحفت على ركبتيها حتى وجدت المصباح الثقيل. حبست أنفاسها وأغمضت عينيها وهوت على رأسه .. مرة . مرة .. مرة ..
فتحت عينها وراحت ترمق الجسد الضخم الذي رقد بلا حرك والدم ينز من رأسه ..
ما لم تعرفه هو أنها قضت على جسد مصطفى ووعي أوتسي .... بينما عبر ٥٥ قرنًا احترق جسد أوتسي ووعي مصطفى ..
نترك للقارئ استنتاج ما حدث لقاعة للمومياء في متحف التيرول .. هل اختفت أم هي موجودة؟
لربما تغير التاريخ بالكامل. لا يعنيها هذا .. ما يعنيها هو أن مصطفى قد مات، وأنها لن تنسى هذا الفجر المخيف ..

تمت

حكاية للأطفال فقط

١

شادي

في تلك الليلة كانت عينا فيروز تتوهجان بلون غريب. العينان المراوغتان اللتان فشل كل شخص في العالم في معرفة لونهما الحقيقي. في محمية راس محمد بشرم الشيخ نهر يُقال له (المسحور)، والسبب هو أن لون الماء فيه يتغير في ذات اللحظة التي تنظر له فيه، فتارة هو أزرق وتارة هو أخضر أو بنفسجي.

لو أنصفوا لضموا عيني فيروز إلى المحمية باعتبارهما ظاهرة كونية غامضة.. في تلك الليلة كانت شفتا فيروز تهمسان باسمي، وأرجعتْ رأسها الصغير للخلف وقالت شيئًا .. شيئًا لم أعرف ما هو لكنه بدا رائعًا.

في تلك الليلة قرر العصفور الصغير في يدها أن يكف عن المراوغة والطيران وأن يستريح بين أناملي .

في تلك الليلة كانت أنفاسها تلمس شحمة أذني.. هناك قوم لا يخرجون الأنفاس ولكن الأنسام. أحسب الطبيعة أنثى كونية المقاييس تتنفس بذات الطريقة، فيصدر عنها النسيم الذي يداعب أوراق الشجر ليلاً. الطبيعة أنثى.. الشمس أنثى... السعادة أنثى.

في تلك الليلة تكف الفتاة عن هوايتها المفضلة: تعذيب الرجل، وتقرر أن تعترف له بأنها تريده كما أرادها.. ياه ! هي ليلة نزع الأقنعة إذن، وما أجملها لحظة.

في تلك الليلة هناك، كانت الألحان تتفجر في رأسي لكني لم أكن أستطيع كتابة نوتة موسيقية ولا عزف نغمة واحدة على أي آلة موسيقية. لربما كان الحل الوحيد هو أن يسمع عازف موسيقي ما في رأسي ويترجمه.. لن أتمكن من الدندنة لأن هذا سيتلف اللحن.

في تلك الليلة أنتصر على نفسي وشكوكي الداخلية وأقهر عقدي الخاصة.. أنا سعيد.. أنا محبوب.. هناك من يريد أن أكون معه للأبد.

في تلك الليلة انتظرتْ جواري فيروز حتى خلا الشارع. عند ركن الزاوية الذي يضيئه نور الكشاف الخافت، كان هناك ذلك الفتى الضخم المشعث يركض وجواره رجلان يحاولان أن يركضا بنفس سرعته، وقد بدا عليهم جميعًا توتر غريب... لا أعرف السبب لكنهم يلاحقون لصًا على الأرجح. نظرتْ لهم ونظرتْ لي .. وابتسمت في مكر حتى تواروا عن العيون وصار الشارع لنا من جديد.

جرت فيروز لنهاية الشارع الخالي من المارة وهي مغمضة العينين تمامًا، وقد فردت ذراعيها كأنها طائرة جامبو.. تنورتها تطير حولها كمظلة طيار احترقت طائرته، ثم دارت وعادت نحوي مغمضة العينين أيضًا.. الحذاء الرياضي الخفيف يجعلها هفهافة بلا ثقل على الأرض.

وقالت دون أن تفتح عينيها:

-«شادي .. أنا .. أنا سعيدة بحق ...»

انحنيت لألثم شفتها وهي مغمضة العينين، لكنها شعرت بما أريد ووضعت سبابتها منذرة على شفتيها ثم عادت تكمل دورة طيران أخرى في الشارع دون أن تتعثر بقطعة حجر أو بالوعة واحدة ..

ظللت لفترة ماطًا شفتي للأمام كأبله، ثم مددت يدي فأعدت شفتي لمكانها....

لا يمكن الاكتفاء من هذه.. لا يمكن أن تشبع منها.. الطريقة الوحيدة هي تذويبها في سائل تحقن نفسك به في العروق على طريقة أفلام فرانكشتاين القديمة.. وأذكر قول الشاعر ابن الرومي:

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها – وهل بعد العناق تدانِ؟

وألثم فاها كي تذوب حرارتي – فيشتد ما ألقى من الهيمانِ

كأن فؤادي ليس يشفى غليله – سوى أن يرى الروحين تمتزجانِ

ابن الرومي كان يتعذب حقًا .. هذه أبيات صادقة تقطر دمًا...

أحيانًا أجد هذه الأبيات القديمة جافة سخيفة، لكنها مثل السمك البكالاه الذي كان أبي يبتاعه لنا في طفولتي. قطع جافة شبيهة بالخشب .. ضعها في الماء قليلاً.. تصر سمكًا نضرًا شهي الطعم. عش قصة حب ولسوف تكتشف أن أبيات كثير عزة أو قيس بن الملوح أو العباس بن الأحنف عبقرية. عش وحدك ولسوف تتساءل عن قيمة هذه الحفريات التي تقف كلماتها في حلقك.. نفس الشيء ينطبق على أغاني أم كلثوم. عش وحدك ولسوف تجدها مملة طويلة جدًا لا تكف عن التكرار كأن الجمهور معتوه.. قَع في قصة حب ولسوف يبكيك كل حرف في أي أغنية..

مشيت معها إلى حيث حزام الأشجار الذي يطل على الحديقة المهجورة ليلاً. هناك كشاف يبعث ضوءًا واهنًا، وفي هذا الضوء كنت أرى في الماضي العشاق الذين يتوارون عن العيون.. كنت أحسدهم وهذا الحسد يتسربل في شكل غضبة أخلاقية على ما وصلت له أخلاق الشباب المتردية.. كنت أكرههم بصدق، لكنني

الآن وأنا في لحظة الحقيقة أعترف بأنني كنت أحسدهم ..أحسدهم ولا أعرف ذلك.

جلست على الكلأ وطلبت منها أن تأتي.

دنت مني في رفق، فأشرت إلى كتفي كأنني أطلب منها أن تريح رأسها عليه. في رفق تربعت على الأرض ثم استلقت للخلف وأراحت رأسها هناك، وتركتْ لأناملي الجشعة أن تعبث في خصلات شعرها.

في تلك الليلة اكتمل بدر أحلامي، وصار الواقع أكثر جموحًا من أي ليل..

كان قلبي يتواثب بين الضلوع .. وهمست لها:

-«أغمضي عينيك. وتخيلي أنك تسافرين.. تسافرين وراء الغمام ووراء قوس القزح..»

قالت مغمضة العينين:

-«لم أر في حياتي قوس قزح!»

-«إذن تخيلي قوس القزح ثم تخيلي أنك تحلقين فيما وراءه»

أن تصف اللون الأزرق لشخص كفيف أمر معقد، لكنه لا يخلو من شاعرية...

في تلك الليلة عرفت أن اللحظة قد جاءت ولن تأتي فرصة أخرى كهذه ..

مررت أناملي على أوردة عنقها.. ثم بدأت أشعر بدقات الشريان السباتي الداخلي.. الوريد الودجي الوحشي ..

قالت ضاحكة وهي مغمضة العينين:

-«هل تحاول معرفة إن كنت أجريت استئصالاً للوزتين؟»

هنا كنت قد غرست نصل السكين في الشريان بعمق، ثم حركته بالعرض بعمق ... ولم أحاول أن أنظر للمشهد القاسي ... أعرف أنني لو رأيته فلن أستطيع النوم ما حييت..

سمعت حشرجة بسيطة.. ثم استرخت يداها.. مزية هذه الطريقة هي أن النصل يقطع القصبة الهوائية فلا يصدر صراخ ..

هذه بقعة هادئة ولا يأتيها أحد، لذا كان العشاق يفضلونها.. لكن علي أن أبتعد بسرعة، لأن سروالي وكفي قد تلطخا بالدم .. لا تترك السكين بأي ثمن لأن بصماتك عليها .. لفها في منديلك واخفها في جيبك. ماء !.. أريد ماء !

في تلك الليلة كفت فيروز عن أن توجد. سوف تقضي بضع ساعات على منضدة التشريح الباردة ثم ثلاجة المشرحة، وبعدها هو التراب ...

لست فخورًا بما قمت به، لكنه ضروري ... أنت تقر بهذا أليس كذلك ؟

٢

جودت

المهن العقلية قد تكون أشغالاً شاقة أعقد بمراحل من أي مهنة جسدية، وأعتقد أنني حيث جلست هناك أمام شاشة منسق الكلمات كنت أحسد أي بنّاء يحمل أجولة الأسمنت في الشمس الحارقة إلى

الخلاط. عمل شاق نعم، لكنه سيعود لداره وينزع ثيابه ويخرج ليسهر مع رفاقه في المقهى، وينسى كل شيء حتى اليوم التالي، أما أنا فلسوف أحمل صليب الكتابة في كل مكان . سوف أفكر وأنا أتناول طعامي أو وأنا أشاهد التلفزيون أو وأنا في الفراش .. لربما وأنا نائم كذلك .. سوف أشعر بأنني مدين أربعًا وعشرين ساعة ..

اسمي جودت، ولابد أنك أدركت أنني سيناريست ومؤلف سينمائي. في الخامسة والثلاثين من العمر، أعيش في شقة مفروشة فاخرة في حي المهندسين، وغير متزوج .. لابد لمن يعيش حياتي أن يعبث قليلاً، وهو ما لن تقبله زوجة من لحم ودم. قدمت ثلاثة مسلسلات لا بأس بها وفيلمًا سينمائيًا واحدًا، وخطة حياتي بسيطة جدًا: أستيقظ في الثالثة عصرًا لأجلس في مقهى معين، وأتناول غداء سريعًا من المكرونة والدجاج هناك ثم افتح اللاب توب وأشرب الموكا والكابوتشينو وأدخن ألف سيجارة، وعلى الأرجح ينتهي اليوم بكتابة مشهد واحد ... وعند منتصف الليل أخرج مع فتاة أخرى .. وغدًا يوم آخر ..

هل تعرف الكافيه الذي أجلس فيه ؟ اسمه (أرجوس) .. يمكنك أن تراني هناك عصر كل يوم وأنا أرمق الشارع من وراء الزجاج وآكل المكرونة.

الفكرة التي كانت تلاحقني مؤخرًا هي فكرة الصدمة .. طفل برئ يلهو ثم يحرق قطة حية.. في فيلم (حياة يائسة) لجون ووترز ترى (سيرفيس) طعام شديد الفخامة والأناقة طيلة تترات الفيلم، ثم يرفع أحدهم غطاء الطبق الرئيس فتكتشف أنه فأر مشوي.

هكذا كتبت مشهدًا يصلح لفيلم رومانسي.. الفتى شادي مع الفتاة الجميلة فيروز في موعد في مكان هادئ. ليلة رومانسية ساحرة تنفتح فيها طلاسم صناديق العشق الموصدة، وينتصر الهوى السكران. ثم في الذروة وفي لحظة عاطفية متأججة يهوي الفتى بالسكين على عنق الفتاة لينحره ..

هي لحظة صادمة بالتأكيد. لكن لماذا وكيف؟

في فيلم (كلب أندلسي) لبونويل يشق البطل عينًا بشرية بالموسى، ولا نطالب المخرج بأي تفسير لهذا المشهد لأن الفيلم سريالي ومن حقه أن يكون مجنونًا.. لكن كيف يتصرف من لا يقدم فيلمًا سرياليًا ؟

كنت غارقًا في مصيدة هذا المشهد الذي راق لي، لكنك بالتأكيد لا تستطيع أن تجد له مبررًا واضحًا ..

جلست في الكافيه ورحت أراقب مطفأة السجائر التي فاضت بما فيها وكادت تنسكب.. لكنها تطالب بالمزيد. وقد كنت جاهزًا لأمنحها ما تريد ..

عبر سحب الدخان أرمق ذلك الفتى الذي يجلس في الركن في الضوء الخافت، وقد طوق كتف فتاة. ظهرهما للمكان مما يدل على أنهما يداريان قصة الحب أو الاشتهاء هذه ..

كان له شعر طويل معقوص عند مؤخرة رأسه على شكل (ذيل خنزير)، وله لحية مشعثة .. أما هي فلم أتبين سوى أن شعرها بندقي جميل ..

-«فيروز!»

دوى الصوت الرفيع الفضولي من خلف كتفي فاستدرت..

واحدة من الفتيات المزعجات إياهن اللاتي يلتقطن لأنفسهن صورًا بفم البطة طيلة اليوم. كانت تقف هناك وتضع يدها على فمها منادية:

-«بنت يا فيروز !»

ثم أدركت أنها تنادي الفتاة الجالسة التي تعطيني ظهرها. التفتت هذه محرجة وقد بدا واضحًا أنها تكرهها .. أسوأ وقت تناديها فيه إحداهن هي هذه اللحظات. لكن الثانية الحمقاء مصرة على عمل فضيحة وإلا عملت فضيحة أسوأ..

نهضتْ الفتاة الخجول في تردد وضيق، بينما هرعت الفتاة المزعجة إياها تدنو منها فتعانقها ..

-«أيتها الكلبة القذرة !»

لسبب ما تستعمل الفتيات هذه الشتائم عندما يعبرن عن حبهن لصديقاتهن، وقد تبادلت الفتاتان القبلات ثم صافحت الحمقاء الشاب ذا الشعر المعقوص في فضول كأنه حيوان غريب، ووقفوا يتبادلون كلمات سريعة ..

اسمع بعض مقاطع الكلام:

-«إذن أنت شادي !.. حكى لي مصطفى عنك .. مكتبة وسط البلد.. الخ»

والفتى يهز رأسه في أدب .. كله تململ ورغبة في انتهاء المحادثة..

غريب أن يجتمع هذان الاسمان معًا .. شادي وفيروز .. المشهد الافتتاحي الذي بدأته كان هذان بطليه ..

أعتقد أنني فكرت في الاسمين بسبب أغنية فيروز (أنا وشادي)، وهو نوع مألوف من تداعي المعاني، لكن لماذا يجتمعان في عالم الواقع؟

ثم رحت أنظر لوجه فيروز في اهتمام.. ألم تكن هذه هي الملامح التي زارت خيالي وأنا أكتب المشهد؟.. وماذا عن لون العينين؟ اللون المراوغ الذي يعجز الجميع عن وصفه.. ألوان الخليج المسحور .. ألم أقل هذا أمس؟

عندما انصرفت الفتاة المزعجة كنت قد فتحت اللاب توب ورحت أتفقد ما كتبت ..

حاليًا لم يعد لدي شك. أني رأيت هذين من قبل وسمعت اسميهما، لكني لم أعرف ذلك. ترسبا في العقل الباطن ليخرجا عندما فكرت في شابين متحابين لقصتي ..

كانا الآن يجلسان في وضع ممتاز بالنسبة لي. أراهما ولا يريانني.. هما ينظران للجدار وكوبي العصير في الواقع، بينما أنا املك نظرة شاملة. همس الفتى في أذن الفتاة بكلمات فضحكتْ، وقالت بصوت استطعت أن أسمعه:

-«اختشي!»

اقتراحه وقح طبعًا ..لكن لهجتها تشي بأنها لا تريد منه أن يختشي جدًا ..في النهاية مات أولئك الذين اختشوا. رأيتها تنهض وتسوي ثيابها ثم تنطلق باتجاه الحمام..

رحت أرقب الفتى حيث جلس. نظر حوله مرتين، ثم استدار نحوي بالضبط في اللحظة التي دفنت فيها وجهي في اللاب توب. ثم رأيته من الظهر يتحسس منشفة صغيرة فيفتحها.. رأيت طرف

سكين عملاقة لربع ثانية، ثم أنه لف المنشفة من جديد، ورأيته يدس المنشفة في جيب السويتر المعلق على ظهر المقعد خلفه..

تعود فيروز وهي تجفف يديها، ثم تحمل حقيبتها وتدعوه للرحيل ..

يضع بعض أوراق العملة في الحافظة على المنضدة، ثم ينصرفان ..

ما معنى هذا؟

أشعر بغباء شديد .. وفي الآن ذاته أنا عاجز عن فعل شيء...

هذا موقف غير معتاد، ولا أجد في جعبة خبراتي ما يسمح لي بالعثور على رد.

ليس الجواب هو أن أصيح في الفتاة: «يا آنسة .. أنت بطلة سيناريو أقوم بكتابته، وفيه يقوم هذا الفتى بذبحك .. أرجو أن تأخذي حذرك!»

لا أجد طريقة أفضل ولا أقصر من هذه لقضاء باقي الليلة في القميص غير ذي الكمين..

ثم ما هي مبرراتك؟ تشابه الأسماء وكون الفتى يحمل سكينً؟ من حق كل إنسان أن يحمل سكينًا لو كنا نتحدث عن عالم ديمقراطي ..

رحت أرقبهما يرحلان شاعرًا بالعجز والفشل .. الحقيقة أن الموقف قد أعطاني بصيصًا يمكن أن أفسر به الجزء الذي كتبته من قصتي..

٣

رافــان

سامية كانت مرهقة جدًا عندما زرناها في البيت.

هناك كانت جالسة في الفراش وقد أسندوا ظهرها بالوسائد، ملكة متوجة على عرش الأمومة، على وجهها ذلك الشحوب الراضي المميز لأنثى تحققت أنوثتها، وكانت تفوح من أنفاسها رائحة الحلبة، بينما أم رءوم مسنة تعنى بها كطفل ..

الرضيع جوارها على الفراش وهو يقرقر .. بينما تضع فيروز مظروف (النقوط) على الوسادة جواره.. فتضحك سامية في امتنان شاكرة .. تعبت نفسك ...

سألتها نازدار أختي وهي تشرب الشاي:

-«هل قررت تسميته؟».

قالت سامية وهي تمد إصبعها ليطبق عليه الرضيع بقبضته:

-«ما زال الوقت مبكرًا .. ربما أطلقنا عليه اسم (عباس) مثل والد محمود!»

تبادلنا النظرات الساخرة وقلصت نازدار أنفها مستنكرة .. ربما هو اسم مناسب لرجل ضخم بشارب، لكنه بالتأكيد لا يناسب هذا الرضيع الجميل .. ليس ذنبه أن يصير اسمه عباس..

فيروز أختي ظلت صامتة ..

أنا أعرف أسرار فيروز .. هي تحب أن تخبرني بأسرارها وتضن بها على نازدار.. نازدار صارمة قاسية نوعًا ولا تفهم دلع البنات، دعك من اضطراب نفسيتها .. أعرف جيدًا أن فيروز بعد خروجها من هنا ستذهب للقاء شادي... قصة الحب التي دامت عامين ..

لم أحب قط منظر شادي لأنني لا أميل لرجل ملتح يعقص شعره خلف رأسه، وأفضل المنظر الكلاسي للرجال، لكن هذا شأنها على كل حال .. لم يطلب مني أحد أن أحبه، لكن الوقت قد حان كي يقابل أبانا .. أبانا المسن الذي أثقلت مسئوليات ثلاث فتيات ظهره ..

هنا لا أخفيك سرًا فأنت صرت من الأسرة ..

نازدار غير مستقرة نفسيًا، وقد أرغمناها على تلقي العلاج .. لكن لا أحسبها تتحسن. هذه مشكلة أخرى تثقل كاهل أبي. قال لي في تلك الليلة وهو يدفن رأسه في كتاب:

-«نازدار تعاني بلا شك مشكلة الحرمان من الأم .. لم تر أمها منذ كانت في السادسة .. لا شك أن لهذا آثاره».

قلت له في غيظ:

-«ونحن؟.. ألم نحرم من أمنا مثلها؟».

-«كنتما أنت وفيروز أصغر سنًا .. هناك سوابق كثيرة لأطفال حرموا من أمهاتهم في سن مبكرة جدًا قبل أن يفهموا معنى الموت أو الطلاق. بالنسبة للطفل سيتحول هذا إلى (عدم وجود) للأم فحسب .. ويتأقلم مع أي أنثى أخرى. واضح أن نازدار لم تتأقلم».

أمي عراقية .. لا شك أنك استنتجت هذا من أسمائنا غير المألوفة في مصر، لكننا مع الوقت صرنا موضة وصارت سيدات كثيرات يستعملن نفس الأسماء، وبالطبع كلما سألت سيدة منهن عن معنى الاسم قالت إنه (زهرة) بالفارسية أو (نهر في الجنة).

نهضت سامية متأهبة كي تذهب إلى الحمام، فتعاونت الأم مع فيروز على مساعدتها على النهوض. مترنحة وضعت قدميها اللتين ما زالتا متورمتين على الأرض، وراحت تنقلهما في وهن مستندة على المرأتين. لحقت بها لأساعدها ..

خرجت معها إلى الصالة وهي تئن وتمشي ببطء. وفتحنا لها باب الحمام لتفرغ مثانتها.

هنا تذكرتُ ....

هرعت إلى غرفة النوم في الوقت المناسب لأرى المشهد الذي كنت أتوقعه. لقد نسينا نازدار وحدها في الغرفة، وكانت تقف هناك منحنية على الفراش ممسكة بوسادة ثقيلة، وبدا واضحًا أنها ستهوي بها على وجه الطفل الرضيع ليختنق بعد ثانية واحدة .. مفاجأة غير سارة كانت ستقابل سامية لدى العودة لغرفة النوم ..

انتزعت الوسادة من نازدار فنظرت لي بعينين جميلتين متوحشتين.. نازدار رائعة الجمال كما تعرف .. قالت لي وهي ترتجف وتترك الوسادة دون مقاومة تذكر:

-«دعيني .. رافان!!».

أمسكت بمعصمها وأرغمتها على الجلوس. جلست كأنها دمية بلا إرادة فقلت لها همسًا:

-«لن تستطيعي أن تهربي من جريمتك!».

قالت وهي ترتجف:

-«لا أبالي!.. هذا أقوى مني .. تعرفين!».

أعرف .. أعرف أن هذا الهاجس صار يطاردها. ربما هي لم تحققه، لكني أعرف يقينًا أنها ستفعل. ستنجح يومًا ما .. ستخنق طفلاً رضيعًا ولربما امتصت دمه. هذا الهاجس النفسي يؤرقها ويجعل حياتنا جحيمًا لأن عليّ أن أراقبها طيلة الوقت، وعندما وضعت سامية قريبتنا طفلها كان علي ألا أحضر نازدار بتاتًا.. لكن اختفاءها كان ليثير الريبة..

سمعت صوت الأم العائدة لفراشها، فساد الصمت ..

نظرت إلى نازدار فوجدت وجهها استعاد قناعه المرح الذي اكتسى به من قبل ..

****

لابد أن هذا كان منذ شهرين قبل الولادة..

في تلك الليلة نام أبي، وفي منتصف الليل سمعت نازدار تتنحنح .. تنهض من الفراش فتهز فيروز لتوقظها .. ثم تهزني لتوقظني، وكنت متيقظة فعلاً..

كان ضوء (السهرية) خافتًا، ينعكس في عينيها الجميلتين وهي تقول لنا كلامًا كثيرًا غريبًا ..

النداء الذي أشعر به .. النداء الذي ستشعران به بعد قليل، والبذرة التي بذرتها فينا أمنا ..

ثم همستْ بصوت كالفحيح:

-«نحن الشقيقات إمبوسي ... مورموليسيا ...! هل تفهمن هذا؟».

تبادلت وفيروز نظرات الذعر .. البائسة جُنّت تمامًا ..

قالت نازدار في ثبات:

-«ألا تفهمان بعد؟ نحن جئنا من أرض بين النهرين، حيث سادت أساطير عشتار وليليث .. أمنا لها اسم لا يثير الشكوك لكنها في الحقيقة تدعى لاماتسو .. لقد انتقل الإرث لنا نحن الأخوات إمبوسي .. نحن الذئبات المفترسة!.... في الماضي كنا نقتل الحوامل أو نخنق الأطفال الرضع ونمتص دمهم .. ».

صرخت فيروز في توحش:

-«هلا كففت عن هذا؟ أنت مجنونة!!».

وقلت أنا في ذهول:

-«إن الطبيب النفسي الذي يعالجك فاشل تمامًا!».

-«لأن ما أنا فيه ليس مرضًا .. إنه ميراث الأجيال.. لابد أن جدتي كانت تعابث جلجاميش وتتحدى عشتار هناك في بابل .. أبونا تزوج أمي ثم أصابه الذعر عندما عرف طباعها فطلقها، وعاد ببناته الثلاث لمصر .. لم يعرف الحقيقة ..».

صرخت فيروز من جديد:

-«اخرسي يا سافلة .. أنت تثيرين رعبي!».

ضحكت ضحكة خافتة مخيفة، ودون أن تقول كلمة اخرى التفت بملاءتها وأدارت لنا ظهرها وغرقت في النوم ..

لكنها كانت قد ألقت بذرة الرعب في نفوسنا ..

لسبب ما شعرت وشعرت فيروز أنها ليست مجنونة تمامًا .. نحن لا نعرف شيئًا عن أمنا .. فماذا يعرف أبي؟ لماذا طلق أمي؟ ولماذا لم تحاول الاتصال بنا منذ الطلاق؟

لكننا عرفنا على الأقل أن نازدار خطرة .. من المخيف أن نتركها مع أي طفل رضيع. هناك لحظة دائمة تدرك فيها أنها توشك على خنقه أو قتله وننقذ الموقف بصعوبة. هي مجنونة ولسوف ترتكب جريمة كارثية.

الأسوأ أنني عرفت أنها بحثت عن وظيفة .. وقد بارك أبي هذا طبعًا خاصة انني وفيروز ما زلنا ندرس.

كانت خريجة لكلية الآداب، ثم عرفنا أنها وجدت عملاً .. أين؟... في إحدى دور رعاية الأطفال!!.. لا أعتقد انها ستقابل الكثيرين من الرضع، لكن هب أن هذا حدث؟.

ازداد الأمر سوءًا عندما سمعنا بعد شهر عن وفاة غامضة لطفلين في تلك الدار. الصحف كتبت عن هذا وتحدث أطباء كثيرون عن SID وهو موت الرضع المفاجئ الذي ينجم عن وضع الطفل الرضيع في وضع غير مريح حراريًا.. كابوس العالم الغربي. لكننا لم نرتح كثيرًا لهذا التفسير ..

هل هو تأثير بنات لاماتسو؟

في جميع الأحوال نحن في مأزق خطير .. لا يمكن أن أخبر أبي بمخاوفنا، وفي الوقت نفسه لا أستطيع أن أتكلم عما قالته نازدار في تلك الليلة السوداء.

الحل الوحيد هو أن أنتظر ..

٤

جودت

هكذا بدأ الإلهام يولد.

كنت أجلس هنالك في الكافتيريا أدخن في نهم، ولا تتوقف أناملي عن قرع مفاتيح اللاب توب. هناك طريقة سرد مشهورة، تبدأ بالذروة ثم نتراجع للخلف في فلاش باك؛ لنفهم كيف حدث هذا. يطلقون على هذه الطريقة:

In medias res

كأن ترى مشهد قتل اللص في بداية الفيلم، ثم تبدأ التترات ونعرف مع تطور الأحداث كيف قام بجريمته، حتى نصل لمشهد القتل الذي بدأنا به. وهكذا قمت أنا بمعالجة مشهد مقتل فيروز الذي بدأت به القصة، فصارت للقصة خلفية وأبعاد.

الشقيقات إمبوسي القادمات من العراق وعليهن الوفاء بعهد الدم. ويمكنني بالطبع أن أعرف أن نازدار مجنونة تمامًا.. لا أحد يصدق القصص المماثلة عن ليليث وجاجاميش..

لكن هذا الجنون سوف يدفعها دفعًا إلى أن تكون قاتلة..

ماذا سيحدث بعد هذا؟

رحت أتأمل سحب الدخان، ثم ألقيت نظرة إلى الفتاتين الجالستين عن قريب.. كانتا جميلتين بشكل واضح، وقد تدفقت الهرمونات في دمي بشكل عابر لبضع دقائق.. واحدة منهما قوية الشخصية حادة التقاطيع، أما الأخرى فدمية رخوة ساذجة..

كانتا تتلفتان حولهما، وفي العيون الجميلة قلق وتوتر.. تخشيان شيئًا أو تنتظران شيئًا..

هناك شاب مكتنز العضلات من مرتادي (الجيم) كما هو واضح، يتسلق الدرجات قادمًا من الطابق الأسفل.. لاهثًا من فتحتي منخريه كثور، يتقدم إلى المائدة التي تجلسان عليها..

يجلس ويشعل لفافة تبغ قبل أن يلتقط أنفاسه.. ثم يقول:

-«لا شيء.. لا أثر..»

ضربت الفتاة الساذجة خدها بكفها وهتفت:

-«لابد من جواب!»

نفث الفتى سحابة دخان كثيفة من منخريه ثم قال:

-«بالفعل لا أثر .. أعتقد أن إبلاغ الشرطة صار واجبًا.. والآن يجب أن تأكلا شيئًا.. منار»

قالت الفتاة الحادة:

-«مستحيل .. لا أستطيع ابتلاع لقمة واحدة.. كأن فُمّ معدتي مسدود بالخرسانة»

التفت نحو الفتاة الأخرى وكرر عرضه، فتقلص وجهها.. لا.. شكرًا..

-«رزان .. يجب أن تأكلي شيئًا لتتمكني من الصمود..»

-«مستحيل»

رزان .. اسم جميل يناسب الفتاة فعلاً.. الناس القلقون في كل مكان، لكن لدي مشكلتي الخاصة وعلي أن أكتب الخطوط الأساسية لما سيحدث بعد هذا.. لا وقت لمراقبة الجميلات..

دفنت وجهي في شاشة اللاب توب وواصلت الكتابة...

٥- شادي

فيروز يجب أن تموت..

نازدار يجب ان تموت..

رافان يجب أن تموت..

أعرف أنك تتهمنني بالجنون، فهذه كلمات لا يمكن أن يتلفظ بها شخص عاقل.. أنت تعرف أنني أهيم حبًا بفيروز. هي الأولى والأخيرة، ومنها يتدفق نهر الحياة ليغسل غابة أيامي المغبرة... لا أستطيع أن أكتفي من فيروز، أو أقنع بما أنال منها. لو أنني صنعت لها بيتًا في الضلوع حبستها فيه فلن أقنع بهذا، ولكننا في لحظة نحتاج إلى أن ندمي قلوبنا بأيدينا.. هناك من يقطعون شرايين أيديهم ويراقبون الدم الأحمر المتدفق في بلاهة..

قد بدأت أوقن أن (فيروز) وأختيها شيطانات... ومعرفة هذا قد اقتضت الكثير مني.

جثث أطفال خمسة كان لابد أن ترقد في قبورها قبل أن أفهم الأمر..

فيروز تتغير. فيروز ترتجف.. فيروز قلقة.. فيروز تخفي سرًا.. فيروز لا تنام..

ذات ليلة جلسنا في مكان هادئ، فقررتْ أن تتخلص من العبء النفسي الذي أرهقها، وحكت لي ببساطة قصة أختها نازدار المريضة نفسيًا.. بدا لي كأنها حكتها مرارًا من قبل. تحكيها بحنكة غريبة..

كنت أرمق عينيها الجميلتين وهي تتكلم..

قالت لي بعد ما جرعت كوبًا من العصير من أجل ريقها الجاف:

-«طبعًا لا أصدق حرفًا من هذا الهراء... لكن الحقيقة المخيفة هي أن أختي تعاني مرضًا نفسيًا متقدمًا. لا أعرف ما يجب أن أفعله»

كنت أفكر في عمق. هل هذا المرض النفسي يُورّث؟ يعني هل تحمل فيروز شعرة الجنون هذه؟

قلت لها:

-«الوسواس القهري يفعل أكثر من هذا.. قرأت عن هذا كثيرًا... هناك فتيات يبتن في الشارع لأنهن يخشين أن يذبحن أهلهن وهم نائمون».

ابتلعت ريقها وقالت همسًا:

-«وفاة الرضع في دار رعاية الأطفال التي تعمل فيها . هل هي صدفة؟»

-«طبعًا صدفة»

لم تبد مقتنعة.. لكنها ابتلعت اعتراضاتها..

ليتني صدقتها.. ليتني فعلت!

****

الطفل الأول بالنسبة لي كان ابن أختي شاهنده.. اسمه (رامز). ظل يحمل هذا الاسم يومًا واحدًا في حياته، منذ ذهب أبوه لمكتب الصحة. ثم زارت فيروز أختي حاملة هدية. لقد أصرت على هذا.. المشهد المعتاد للأم المنهكة الفخورة التي ترتدي الروب وتتأوه وهي جالسة في الصالة مع ضيوفها.

قالت أختي وهي تفتح العلبة القطيفة الصغيرة:

-«كلك ذوق... لقد أتعبت نفسك بحق»

لابد أن هذه (ما شاء الله) مما يقدمونه للرضع. لكن أختي رفعت كفها فلمحت فيها قطعة ذهب غريبة أقرب لرمز مبهم متشابك.

كانت تعرف عن قصة حبنا، وتعرف أنني لم أحب واحدة قط كما عشقت فيروز، لذا كانت تتكلم بشيء من الخبث المحبب. وحملت فيروز الطفل وراحت تهزه وقالت له كلمات عذبة في أذنه...

ثم أعادته لأمه التي ثبتت الحلية الصغيرة في جلبابه الصغير..

غادرنا البيت وتبادلنا عبارات المزاح على الدرج، وكان مدخل البناية خاليًا فخطفت قبلة من خد فيروز، فقالت في دلال:

-«كلب!»

وافترقنا.. بالطبع ليدق جرس الهاتف في المساء.. عرفت من زوج أختي أن (رامز تعيش انت). كيف؟.. فجأة كف عن النفس وازرق لونه، فحمله الأب للمستشفى ملهوفًا، لكنهم أخبروه هناك أنه يحمل جثة..

ما التفسير؟

قال الأطباء إنه على الأرجح عيب خلقي أفصح عن نفسه في اليوم الرابع، أو لربما هو إنهاك حراري مما يصيب الرضع الذي يعرفه الغربيون باسم SID..

كنت أرتجف من التأثر.. أرتجف من الرعب.. اتصلت بفيروز أخبرها وأنا أبكي أن الدمية الجميلة التي كانت تلعب بها ظهرًا قد فرغت منها الحياة.. أشهد أنها بكت بحرقة وراحت تردد أنها نحس...

لا تقولي إنك نحس.. أنا أحبك جدًا.. انت الأروع على الإطلاق ....

فقط لو لم يكن شبح أختك المخبولة نازدار يحوم حولنا......................

بعد أسبوعين زارت فيروز الحضانة التي افتتحتها جارتها في نفس البناية، ولعبت مع الأطفال كثيرًا.. بعد يوم توفي طفلان في الرابعة.. لا يعرف أحد سبب الوفاة، وقيل الاختناق وقيل سوء التغذية. هل سوء التغذية يفتك بالطفل فجأة؟

لا شك أن بيوتًا كثيرة قد خربت وتحقيقات أجريت، لكني ظللت أتذكر كلامها عن نازدار أختها والأطفال الموتى... الأخوات أمبوسي بنات لاماتسو.. كلام فارغ طبعًا، لكن هل يمكن أن يلعب

الجنون دورًا؟ لا يوجد مصاصو دماء، لكن في كل الفترات التاريخية وجد ناس يعتقدون أنهم مصاصو دماء وتصرفوا على هذا الأساس..

كانت الغيوم تحتشد في ذهني، وتوشك على رسم صورة جلية واضحة..

فيروز .. من أنت؟

٦

جودت

بدأت نواة القصة تتشكل.. تسارعت أناملي على مفاتيح الكتابة..

العاشق الذي بدأ يرتاب في حبيبته.. لدرجة ذبحها؟ لا أعرف .. لابد أنه سيجد مبررًا قويًا يدفعه لذلك... لكن ما هو؟

توقفت للحظة لأشعل سيجارة وأرتب أفكاري، هنا حانت مني نظرة إلى الحسناوين الجالستين مع ذلك الشاب ضخم الجثة. يبدو أنه أقنعهما بالتهام قطعتين من البيتزا.. تأكلان دون شهية على سبيل أداء الواجب فقط..

قال للفتاة الأولى:

-«سوف تشعرين بتحسن في حالتك عندما تتغلبين على نقص سكر الدم يا رافان!»

الاسم؟ رافان.. أنا الأحمق سمعته (رزان).. ومن الأخرى إذن؟ الاسم كان منار..

-«كلي يا نازدار!»

تقلصت أمعائي وتمسكت بطرف المنضدة حتى لا أفقد الوعي.. نازدار وليس منار.. أنا إذن أجلس على بعد مترين من بطلتي قصتي! هل يوجد تفسير؟ ببساطة لا يوجد تفسير..

كأنما لم يحدث شيء نهض الثلاثة وغادروا الكافتيريا، طبعًا بعد ما ألقوا قنبلة من علامات الاستفهام. لسبب ما أقابل أبطال قصصي في هذا المكان بالذات..

منذ أعوام قرأت (ست شخصيات تبحث عن مؤلف) تحفة الإيطالي لويجي براندللو، لكنها تختلف كثيرًا عن الوضع الحالي. أنا أعيش في شبكة معقدة من المصادفات.. لا شك في هذا..

لكن ... كم فتاة تعرفها اسمها (نازدار)؟ وكم (رافان)؟ هل هناك مصادفة كهذه؟

عدت أطالع النص، ثم قررت أن أترك هذه الأسئلة السخيفة وأن أعود لاستكمال ما بدأته. وجدت على مائدة مجاورة جريدة مطوية.. هذا مشهد غير معتاد لأن الناس لم تعد تقرأ الصحف كما تعلم. صارت الصحف الورقية شيئًا نادرًا مسليًا، وقد خطر لي أن أقلب صفحات الجريدة بحثًا عن إلهام أو شيء ممتع..

نهضت وأخذتها ثم عدت للمائدة، وجاء النادل فطلبت كوبًا من النعناع بالليمون (الموخيتو) .. ثم رحت أقلب الصفحات في تؤدة.. غريب هذا .. صفحة الحوادث فيها ثلاثة أخبار عن رضع أو أطفال ماتوا في ظروف غامضة. الأمر يحدث فعلاً.. لو أن طبيبًا نفسيًا سمع بهذه القصة، لقال إنني عرفت القصة كلها وقابلت هذه الوجوه من قبل، ثم إنها خرجتْ من عقلي الباطن عندما أردت كتابة قصة، مع لمسة من ظاهرة Jamais vu التي توحي لك

بأنك ترى للمرة الأولى أشياء رأيتها مرارًا من قبل. كثيرًا ما يكون الكاتب بريئًا من اتهامه بالسرقة الأدبية، وإنما هو يستخرج ذكريات نسي أنه يعرفها. فهل أنا عايشت هذه الأحداث كاملة قبل أن أكتبها؟

القصة جيدة.. قصة الشقيقات إمبوسي القادمات من العراق وعليهن الوفاء بعهد الدم، أو بمعنى أدق يتوهمن أنهن كذلك.. ثلاث فتيات جميلات.. ربما صرن اثنتين فقط..

علي أن أتجاهل هذه الظواهر الغريبة وأستكمل قصتي ...

المشكلة الأولى هي أن أجد مبررًا لقتل فيروز..

ما يحدث هنا هو تكرار لمشهد شهير في قصة برام ستوكر المخيفة: دراكيولا. أنت تعرف أن أبا الفتاة لوسي انتظر في المقابر ليلاً مع فان هلسنج. قرب الفجر استطاع أن يرى المشهد المخيف لفتاة تحمل طفلاً وقد تلوث فمها بالدم.. عندما دقق أكثر أدرك أنها لوسي ابنته. هكذا صدق. وعندما أغمضت عينيها كان على استعداد لأن يطيع فان هلسنج للنهاية.. يغرس الوتد في قلبها ثم يقطع الرأس ويحشو الفم بالثوم..

لقد راقب الفتى شادي فيروز جيدًا...

لعله طلب منها أن تطلب رأي الطب النفسي، ولربما وعدته لكنها لم تفعل. لا أحد يذهب للطبيب النفسي ليقول له إنه يتمنى قتل طفل.

زار معها أحد مستشفيات الأطفال حيث كان يطمئن على ابن واحد من أقاربه، وقد لاحظ نظراتها الزائغة.. ثم – دعنا نتخيل

ذلك – منعها من خنق طفل في دورة المياه.. منعها في آخر لحظة..

هكذا أدرك أن فيروز التي يهيم بها حبًا لعنة على نفسها وعلى البشرية كلها..

على الأرجح رافان ونازدار مثلها.. لكنه على الأقل قادر على الخلاص من فيروز كبداية ..

وضع الخطة واختار مكانًا آمنًا يمكن أن يرتكب فيه جريمته.. أنا رأيت استعدادات الجريمة، والله وحده يعلم كيف حدث هذا...

هكذا يمكن القول إننا بررنا الجريمة.. ليس السبب قويًا لهذا الحد ولا يتناسب مع بشاعة الجريمة، لكني لا أجد حلاً أفضل..

السؤال الآن هو رد فعل الشقيقتين.. ثم ماذا عن الشرطة؟ سوف تتكلم رافان وتحكي عن الفتى الذي يخرج مع فيروز ويهيم بها حبًا.. ماذا عن رد فعل الأب؟ ماذا ستفعل نازدار عندما تعرف؟

هذه أسئلة سيكون علي أن أجيب عنها..

****

في اليوم التالي جلست في كافيه أرجوس كعادتي.. انتهيت من التهام غدائي والساعة الرابعة عصرًا. أشعلت لفافة تبغ وبدأت أضغط على أزرار اللاب توب، وفجأة شعرت بوجود شخص ما.. شخصين ..

رفعت عيني فوجدت فتاتي أمس: رافان ونازدار.. إنهما تدخلان الكافتيريا .. تجلسان إلى ذات المنضدة. تنظران لي للحظة ثم تتجاهلانني. تجلسان وقد تقارب الرأسان وهما تتكلمان.. من

الغريب أن الصوت مسموع لي. دنا النادل فتوقفتا عن الكلام وطلبت نازدار قدحين من الكابتشينو ثم عادت تتكلم مع أختها.

سمعت رافان تقول:

-«كل علامات الاستفهام تحوم حول ذلك الفتى شادي. هو الذي يخرج معها وينفرد بها..»

قالت نازدار في عصبية:

-«حمقاء أنت !.. أشياء كهذه لا يمكن أن تداريها عني. كنتما تتآمران معًا وتعتقدان أنني مجنونة. أليس كذلك؟»

لم ترد رافان .. ساد الصمت، ثم قالت:

-«المهم أن نعرف ماذا حدث.. أقترح أن نبلغ الشرطة ونتهمه بشكل مباشر».

قالت نازدار وهي تشرب الكابتشينو:

-«كلام فارغ .. أنت تعرفين أننا لا يمكن أن ندخل الشرطة في حياتنا.. هذا غير وارد»

-«والحل؟»

-«الحل الوحيد هو أن نعذبه ونستخرج منه الحقيقة.. بعدها نمتص دمه ونلقي به في نهر دجلة»

-«النيل .. تقصدين نهر النيل»

كنت أسمع هذه الكلمات وأرتجف.. أنا قد جننت حتمًا. لا مجال للشك فيما يحدث. آرثر كونان دويل يسمع محادثة بين شيرلوك

هولمز وواطسون. طبعًا هذا مستحيل ومعناه ببساطة أنني جننت. اخلق عوالم خيالية ثم أجد نفسي وسطها..

هل صارت رافان من الأخوات أمبوسي بدورها؟ كانت مستنكرة مندهشة في قصتي. حسب قصتي قد تغيرت فيروز فعلاً..

أجفلت عندما استدارت نازدار للخلف ونظرت نحوي. أقسم أن عينيها كانت تشعان نارًا..

ثم أنها مالت على رافان وهمست بصوت مسموع:

-«هذا الجالس خلفنا ..الذي يجلس أمام لاب توب أقسم أنه سمع محادثتنا»

ألقت رافان نظرة سريعة ثم قالت:

-«لن يفهم شيئًا.. لا عليك!»

قالت نازدار وهي تنظر نحوي:

-«بل هو يفهم ويتابع المحادثة.. عيناه تشيان بذلك. لاحظت أنه كان يتابعنا أمس باهتمام شديد.. أعتقد أنه شاهد خطرًا! أنا لا أهتم سوى بالأطفال، لكن قائمة من أريد الخلاص منهم بين الكبار تتمدد»

كنت أرتجف خوفًا...

لابد من تفسير واضح لهذا الذي يحدث..

أنا لا أريد كتابة هذه القصة .. سأمزق الورق وأمحو الملف من ذاكرة الكمبيوتر. لكن هل يؤدي هذا لزوال هاتين الشيطانتين من عالمي؟

سأنقطع عن هذا الكافيه لفترة.. لربما أنسى تفاصيل هذه القصة...

هكذا لم أتناول غدائي من المكرونة والدجاج كالعادة، وإنما عدت لشقتي الخالية. واسعة جدًا هذه الشقق، ولا تناسب الأشخاص الوحيدين.. عبير ليست هنا.. أم أنها ميادة هي التي ليست هنا؟ لابد أن موعد اليوم كان مع ميادة لكنها اعتذرت.. لا بأس. لا أملك المزاج الرائق للنساء بصراحة.

بدلت ثيابي وأعددت لنفسي بعض الشاي المثلج بطعم التوت، ثم جلست في الصالة الواسعة وفتحت اللاب توب.. لست معتادًا بصراحة على الكتابة هنا. البيت للفتيات والعبث فقط، أما الكتابة فمكانها الوحيد هو الكافيه.. لكني مضطر لذلك.

على قدر ما أفهمه فأنا قد أوجدت كابوسًا. كتبت قصة مسلية لكنها تتحقق بشكل مخيف. أمس كتبت خطابًا لجاري الطبيب النفسي مصطفى أحكي فيه كل شيء، على أنني أغلقته ووضعته في مغلف أكبر، ثم كتبت وريقة صغيرة أطلب منه ألا يفتح الخطاب إلا لو حدث لي شيء، شيء مثل ماذا؟ لا أدري

لكن نظرة نازدار تلك جمدت الدم في عروقي.. لقد تجاوز الأمر حدود المنطق ليتلمس جوانب الخوارق.

لقد حان الوقت لإنهاء هذه القصة بطريقة قاسية بعض الشيء. سأكتب ....

٧

شادي

نظرت لساعتي وقدرت أن الوقت قد حان.

كانت السكين في جيبي، وزجاجة المنوم.. وكان قلبي يتواثب كالطبل من التوتر. لكني سأفعلها.. أعرف أنني سأفعلها. كمال صديق عمري وقريبي معي وهو يؤمن بما سأفعله ويثق في.

كانت الساعة الثامنة مساء.. لا بأس.. هذا موعد مناسب للناس كي يفتحوا الأبواب مطمئنين للطارقين. ألقيت نظرة على الدرج القديم المتسخ.. لا يوجد شهود ولا توجد كاميرات. أنت تعرف أن كل مكان في العالم يعج بالكاميرات اليوم. دق الجرس فسمعت من يتحرك بالداخل...

«من؟»

صوت رجل...

«أنا زميل فيروز!»

الكلمة السحرية.. الأسرة التي تفتش عن ابنتها.. سوف يفتحون الباب بالتأكيد..

سمعت صوت المزلاج ينفتح ثم ظهر رجل مسن يلبس منامة وقد تدلت عويناته على أنفه، وهو حافي القدمين.. عيناه تتساءلان عن اسمينا وغرضنا من المجيء..

«ما الذي ....؟»

هنا كنت قد أزحت الباب بقوة، واندفعت للداخل، وقبل أن يفهم كنت قد وضعت قطعة القماش المبللة على أنفه وكتمت أنفاسي.. نم أيها الرجل الطيب.. نم.. لا أحد يريد منك شيئًا..

تكوم على الأرض .....

هنا اندفع كمال إلى داخل الشقة، وظهرت تلك الفتاة قادمة من الداخل. لعلها رافان أو نازدار لا أدري، قادمة من الداخل.. ارتجفت وأنا أرى تلك النظرة المخيفة في عينيها.. هذه ليست نظرة كائن بشري بل شيطان...

قبل أن تفعل شيئًا هوى كمال على جذور عنقها بسيف يد فتكومت أرضًا...

ثم سمعنا صوت الفحيح.. لقد كانت الأخت الثالثة قادمة. لابد أن هذه نازدار نفسها فهي أكثرهن قسوة وتوحشًا. كانت تنقض علي واللعاب يسيل من فمها..

الأخوات أمبوسي.. الآن فقط أعرف أن الأسطورة حقيقية.. لقد فعلنا الشيء الصحيح.

كانت قادمة كالعقاب نحو كمال وظهرها لي، فجريت نحوها ووضعت نفس الخرقة المبللة على أنفها وأنا أكتم تنفسي.. لابد أن رائحة الكلوروفورم خانقة يمكن شمها من الشارع...

قاومت قليلاً.. توقعت مقاومة شنيعة من أكبر الأخوات أمبوسي لكنها انهارت بسرعة وتهاوت كالكيس الفارغ على الأرض..

ثلاثة أجساد ممددة على الأرض.. خرجت لخارج الشقة وأخذت شهيقًا عميقًا لأن رأسي بدأ يدور، وكذا فعل كمال .. ثم أشرت له كي نكمل ما بدأناه ..

سنحز عنق الفتاتين ونرحل.. بالتأكيد سوف يموت الأب بنوبة قلبية عندما يفيق ويدرك ما حدث لبناته الثلاث، لكننا لن نحمل دمه على أكفنا .. سوف تكون جريمة بشعة تتسابق الصحف على نشر تفاصيلها، لكنهم لن يعرفوا أنني قمت بأسمى عمل ممكن للبشرية..

قلت لكمال همسًا وأنا ألوح بالسكين:

-«هيا ننته.. لا تلوث يدك بالـ..»

٨

جودت

كنت أكتب بسرعة جنونية ..

وحدي في الشقة أمام شاشة اللاب توب وبقايا الكابوتشينو يتصاعد منها الدخان ..

سوف يتم ذبح الأختين الآن ويفر شادي مع صاحبه، وقد قضيا على هذا الكابوس. لو كانت تصوراتي صحيحة وكنت أنا من يخلق هذه الكوابيس، فلسوف تموت الفتاتان فعلاً في عالم الواقع.. هناك من سيجد جثتيهما المذبوحتين غدًا وبعد أيام سيجدون فيروز..

لا أجد حلاً آخر، فقد برهنت هذه القصة على أن خيالي حي أكثر من اللازم. ثمة شيء ما يتعلق بهذه اللعنة جعلها تتحقق على يدي.. لا أريد أن تطاردني شخصيات قصصي المخيفة.

أشعلت لفافة تبغ، وطقطقت أصابعي ثم بدأت أصف مشهد شادي وهو يلف شعر نازدار المخدرة على كفه ويرفع السكين باليد الأخرى متأهبًا للـ ..

ثمة شيء يتحرك في داخل الشقة ..

من أين تأتي تيارات الهواء هذه؟

بسرعة.. لننه مشهد القتل، لا أعرف السبب لكني أشعر بأنني لست وحدي. صوت همسات في الغرفة الداخلية.. لو أردنا الدقة لقلنا إنه صوت امرأتين تتكلمان .

إن أعصابي مرهقة. لا شك في هذا ..

هل أسمع صوت خطوات من خلفي؟ بالتأكيد هي العصبية المعتادة..

إن مشهد القتل سوف يستغرق عدة أسطر .. بعدها أتحرر من الخوف ..

فقط علي أن ....

علي أن ....

٩

دكتور مصطفى

جودت قد مات .

مؤلف السينما متوسط النجاح الذي يعيش وحيدًا قد وجدوه ميتًا في شقته. جثة ممزقة بشناعة.. كان يكتب سيناريو فيلم جديد ولم يكمله. لن أندهش على كل حال، فهؤلاء القوم يعيشون حياة ماجنة صاخبة .. لا بد أن تكون نهايتهم دامية.

من قتله ؟ لا أحد يعرف ....

لن يجدوه أبدًا. كل هذه القصص تنتهي بشكل مماثل..

اسمي د. مصطفى الخراط.. أستاذ الطب النفسي بكلية طب (...)، وعيادتي قريبة جدًا من شقة هذا الجودت ..

على أنني فتحت الخطاب الذي تركه لي لسبب مجهول، فوجدته يتكلم عن مواضيع عجيبة. لقد كان مجنونًا بشكل تام. تصور – الأحمق – أن خيالاته تخرج لعالم الواقع، وأن شخصيات قصته المرعبة تحيط به. لم يذكر أسماء في الخطاب لكنه تكلم عن ثلاثة شياطين جاءت من بلاد ما بين النهرين.. الخ ..

إن هؤلاء المبدعين يعانون حالة متفاقمة من تداخل الواقع والخيال ..

ذكرتني حالته بفتاة تتردد على عيادتي منذ فترة، وتقول إنها شيطانة مهمتها قتل الأطفال الرضع. اسمها غريب حقًا.. نازدار. أظن أنك لم تسمع هذا الاسم قط في حياتك. هي من أجمل من رأيت في حياتي بالمناسبة.

أمس جاءتني هذه الفتاة، وقالت إنها لا تتحسن.. أحيانًا تشعر بأنها فكرة في خيال مؤلف مخبول ..

ضحكت كثيرًا لهذا الفكرة، فسألتني في براءة:

-«هل يمكن للشخصية القصصية أن تظل موجودة بعد رحيل مؤلفها؟ بل هل يمكن أن تقضي عليه لتعيش هي؟»

بدا لي هذا كله سخيفًا وصارحتها برأيي... جميلة لكنها مخبولة تمامًا، ولا أعتقد أن لدي من الوسائل ما يشفيها ...

قلت لها:

-«الحياة خاضعة لقوانين فيزيائية صارمة. هذه الأفكار البلهاء لا تتفق مع الواقع. دعكِ من أن حكاية الشياطين التي تلتهم الأطفال الرضع هي نفسها حكاية للأطفال.. ألا ترين هذا معي؟».

رفقاء الليل

١

اسمه إسماعيل

لو كانت هذه القصة بضمير المتكلم الأول، لبدا هذا كأنه أول سطر في رواية ملفيل «موبي ديك»: «سمّني إسماعيل»، لكنك بالطبع تعرف أن عم إسماعيل لا يملك القدرة على كتابة قصة، وهو يقرأ بصعوبة بالغة.

يمكنك بسهولة أن ترسم صورة ذهنية لعم إسماعيل، فهو نحيل.. أشيب الشعر.. له عين واحدة مغطاة بسحابة رمادية أتلفت القرنية.. له شارب كث يليق بطبقته التي تعتبر الشارب من علامات الفحولة. له طابع ريفي واضح، وبوسعك في أي لحظة أن تجرده في ذهنك من بذلته الميري لتتصوره بالجلباب والبُلغة في قريته، جالسًا على المصطبة يشرب الشاي الثقيل. الحقيقة أن هذه حقيقته طيلة اليوم باستثناء ساعات العمل في الحديقة. هل تحتاج للمسة أخرى؟ بالطبع. لن تكتمل الصورة بصريًا من دون لفافة تبغ خلف الأذن.

عم إسماعيل يقترب من سن التقاعد، وهو يتوق لذلك اليوم بعد عمر طويل حافل عانى فيه الكثير. لديه ابنتان تزوجت واحدة منهما، وعامة هو لا يحكي الكثير عن بيته. لا يحكي عن همومه ومشاكله.

يمكنك فقط أن تراه من حين لآخر جالسًا جوار قفص الضباع، يقرب فمه من السلك ويحكي.. يحكي عن كل شيء، لكنك لا تتبين ما يقوله. يذكرك هذا المشهد بحوذي تشيكوف الذي لم يجد من يحكي له عن تعاسته سوى الحصان.

الحياة تمضي رتيبة بلا أحداث

مملة هي حياة حارس قفص الضباع في حديقة الحيوان. هو كذلك يشرف على الطواويس وثعالب الفنك.. ومع الوقت يكتشف الحارس أن هذه الحيوانات أقرب له من زوجته وأهله جميعًا.

يمكنه أن يرى نظرة معينة في عين الضبع الكبير فيعرف ما يمر به من مشاكل نفسية.

لكن المشكلة هي أن دخله ليس مجزيًا. أفضل شيء يمكن عمله هو أن يضع قطعة لحم على عصا ويناولها للطفل الذي يمررها في حذر لأحد الضباع عبر السلك. ثم يناوله أبو الصبي ورقة من العملة، عاصرها إسماعيل منذ كانت نصف جنيه حتى صارت خمسة جنيهات، لكنها لن تتجاوز ذلك أبدًا. من الطريف أن تلاحظ التفاوت الطبقي بين حراس الحديقة. حارس الفيل أو الأسد بادي النعمة أنيق الثياب. فهو ينال مبالغ كبيرة من المتفرجين، وكل طفل في العالم لابد أن يناول الفيل موزة أو قطعة من البطاطا، ثم يؤدي له الفيل (سلام حمادة).. أما حراس الحيوانات الحقيرة أو غير الشعبية على غرار الضباع أو القنافذ وأبي شوك فهم سيئو التغذية رثو الثياب.

لسوء الحظ لم يكن عم إسماعيل مسئولاً عن حيوانات ناجحة..

الحياة تمضي رتيبة بلا أحداث، إلى أن يأتي اليوم الذي تم تمزيق رشدي فيه..

****

رشدي مسئول عن أقفاص القردة، وهو شاب قوي البنيان من سوهاج جاء إلى الحديقة منذ شهر.
لم يكن متزوجًا، وهو يقيم مع قريب له في الجيزة.. عامة هو شاب ظريف مقبل على الحياة، ويروق للفتيات كثيرًا. غراميات فظة لكنه مستمتع بها.
بدأ يكسب جيدًا.. فالقردة من الحيوانات ذات الشعبية التي يدفع لها الناس الكثير، وعندما يجد أنك متحمس فعلاً فهو يقتادك إلى المدخل الخلفي للقفص – الجزء الذي أطلق عليه كواليس القفص – حيث يمكنك أن ترى الشمبانزي العملاق الذي يحمل ملامح بشرية إلى درجة مرعبة. عندها تخرج الورقة ذات الجنيهات العشرة..
كان رشدي قد بدأ يعتاد المكان. ثم يأتي هنا موضوع السهر الليلي. الحقيقة أن إدارة الحديقة قررت أن توزع نوبتجيات ليلية على الحراس بدلاً من استخدام خفراء. وبالطبع كانت هناك زيادة لا بأس بها في الراتب. إلا أن أحدًا لم يكن راغبًا في قضاء الليلة وحيدًا في هذه الحديقة المتسعة المظلمة لا يؤنسك سوى زئير الأسود. مهما كانت المكافأة فهي لا تكفي لتعويضك عن حرمانك من البيت والأسرة ودفء الفراش. والنتيجة هي أن كثيرين اعتذروا أو لفقوا تقارير مرضية تعفيهم من السهر، ولكن الوحيد الذي تحمس وعرض أن يأخذ أربع نوبتجيات كل أسبوع هو عم إسماعيل. كثير من الرجال يفضلون الانهماك بالعمل لأنه يعفيهم من كآبة وهموم البيت. هذه متلازمة شهيرة.. في النهاية لن

يوبخه أحد لأن عذره جاهز دائمًا: الرزق يحتاج إلى ما هو أكثر. هموم البيت ورعاية الأولاد ومدارسهم وأخلاقهم مسئولية الأم. لا تطلب شيئًا من الأب فليُعنْه الله..

هكذا اعتاد عم إسماعيل أن يمضي ليلته.. بالطبع كان يفتح غرفة الحراس التي فُرشت فيها بطانية على الأرض مع وسادة ومعدات الشاي. هناك جوزة أيضًا يبقيها مفككة في كيس ليجمعها ويشعلها عندما يحل الظلام. افتح المذياع على صوت أم كلثوم ولسوف تكتشف أن الحياة رائعة.

جاء رشدي ليعرض على إسماعيل أن يتولى نوبتجيتين أسبوعيتين. واحدة يمضيها معه والأخرى يمضيها مع حارس آخر هو بسيوني. وافق إسماعيل، فلا شك أن وجود رفيق لليل الطويل أمر محبب.

سارت الحياة على الوتيرة المعتادة لمدة أسبوعين، ثم استيقظت الحديقة على جثة ممزقة دامية غمر نصفها في بركة البط.. جثة رشدي طبعًا، وقد جاء رجال الشرطة وأجروا تحقيقًا. كان على رشدي أن يسهر تلك الليلة مع بسيوني، لكن هذا الأخير تغيب عن العمل، ولديه حجة غياب ممتازة.. لقد كان في المستشفى ومعه تقرير بذلك.

المشكلة التي حيرت رجال الشرطة هي أن جثة رشدي ممزقة بشكل حيواني. لا يوجد قاتل يقتل بهذه الطريقة حتى لو أراد ذلك. جروح قطعية بأداة حادة أقرب إلى الأنياب والمخالب، وبعض العظام مجرد من اللحم تمامًا.. هناك أعضاء اختفت تمامًا..

كل الأقفاص مغلقة.. لم يفر دب أو أسد أو ضبع من قفصه.. لا شيء يبرر منظر هذه الجثة.. إنها لغز حقيقي.
النظرية التي خطرت لرجال الشرطة هي أن أسدًا فر من قفصه بسبب الإهمال، ومزق الحارس، ثم قامت إدارة الحديقة بإعادته لقفصه بسرعة خشية المحاسبة.. لكنها نظرية غير قابلة للبرهنة عليها.
عندما استجوبوا عم إسماعيل قال:
- «أشياء غريبة تحدث في الليل يا بك..»
- «أشياء مثل ماذا؟»
حك عم إسماعيل رأسه وأصلح من وضع الطاقية وقال:
- «مساحة أشجار بهذا الاتساع.. الليل والظلام والوحدة وسط كل هذه الفدادين.. عواء الذئاب... زئير الأسود.. لو لم تجد العفاريت هذا المكان موضعًا فأين تقيم يا بك؟»
- «هل تريد القول إن العفاريت هي التي قتلت رشدي؟»
- «لا أعرف شيئًا يا بك.. فقط أعرف أنني لم أقتل رشدي.. لا أنا ولا بسيوني..»
لكن عم إسماعيل كان يعرف ما هو أخطر بكثير. الأيام التالية برهنت على أنه يعرف الكثير فعلاً.

٢

جاء نجاتي بعد رشدي .
نجاتي من قرية جوار كفر الشيخ، وهو شاب في الثلاثين، لكن الصلع المبكر وتجاعيد الهموم على الوجه.. كل هذا جعله يبدو

متقدمًا في السن حتى إنه يقارب عم إسماعيل. نجاتي متزوج، وهذه هي النقطة التي جعلته موضعًا للسخرية.. فهو النموذج الحي للكيفية التي يبدد بها الزواج المبكر رونق الشباب.

- «هي ابنة عمي.. عندنا في بلدنا ليست لديك فرصة التفكير. متى بلغت سن الثانية والعشرين تجد نفسك متزوجًا من ابنة عمك ولديك طفلان»

يسأله عم إسماعيل مازحًا:

- «ولو كانت ابنة عمك قبيحة مثل عديلة؟»

عديلة هي أنثى الشمبانزي طبعًا. وهي ضمن مسئولية نجاتي، فيقول نجاتي في حرارة:

- «قبيحة أو جميلة.. تحبها أو تكرهها.. هذه أمور غير ذات أهمية. هي ابنة عمك وكفى».

ثم يلقي بلقيمات خبز لعديلة التي تتمسك بالقضبان ويتمسك طفلها بثديها، ويقول:

- «ثم إن عديلة ليست قبيحة.. لعلها بالنسبة للقردة جميلة الجميلات»

بصفته الأحدث في الحديقة، وبصفة عم إسماعيل هو الأقدم تقريبًا، فقد كانت هناك جلسة طويلة مع الأخير علمه فيها الكثير عن مهام عمله. بالطبع كان نجاتي سيرث رعاية القردة بعد رشدي، وقد كلمه إسماعيل كثيرًا عن رشدي وعن عمله ونهايته الغامضة.

ثم إنه سأله:

- «هل تنوي أن تأخذ نوبتجيات سهر؟»

قال نجاتي في حماسة:

- «بالطبع .. أنا بحاجة لكل مليم من الدخل»

نفث إسماعيل سحابة كثيفة من الدخان وقال:

- «نصيحة.. خذ كل نوبتجياتك معي..»

- «والسبب؟»

قال عم إسماعيل وهو يرشف الشاي الثقيل:

- «هذه الحديقة موحشة.. كبيرة جدًا... وصدقني أن هناك أشياء غريبة تحدث من وقت لآخر. ما كانت العفاريت والشياطين لتجد مكانًا أفضل ليلًا»

ضحك نجاتي في عصبية.. هذه القصص..

- «أنا كنت في الجيش أمضي الليل في الجبل وحدي.. صدقني لا يقدر شيء على جعلي أصاب بالفزع..»

- «وأنا لم أحاول جعلك تشعر بالذعر.. فقط أنا أحذرك..»

ثم أزاح الطاقية ليحك شعره:

- «رشدي يرحمه الله سخر من كلامي في البداية..»

- «رشدي قتله حيوان مفترس أو قاتل مجنون. لم تقتله العفاريت»

- «هكذا يقال»

على كل حال كان نجاتي يدرك أنه لن يشعر براحة لو قضى الليل وحده في هذه الحديقة، ومهما بلغ من شجاعة. لا شك أن قضاء الليل مع إسماعيل يمكن أن يكون آمنًا ومسليًا.

هكذا بدأت ليالي السهر. مغامرة تتكرر مرتين كل أسبوع، ولا شك أن لها طابعًا فريدًا يكسر الملل. هناك رهبة بالتأكيد لكنها رهبة محببة. الغرفة الدافئة وأكواب الشاي وصوت الست أم كلثوم.. من حين لآخر يأخذ جولة في الحديقة مع عم إسماعيل، وتكون هناك بعض أعمدة النور مضاءة بينما يعتمدان على الكشاف في أماكن أخرى.

الأقفاص المظلمة.. لا ترى ما فيها إلا العيون اللامعة لوحش يراقبهما، دعك من أن معظم الحيوانات تبيت ليلتها في الأقفاص الخلفية غير معروضة على الجماهير.
بعد صلاة الفجر غالبًا ما يغلبهما النوم بعض الوقت، لكن عم إسماعيل يفيق مبكرًا ويعد كوب الشاي ولقمة للإفطار. بالطبع يكون اليوم التالي إجازة بعد نوبتجية السهرة.
الحياة ليست سيئة..

****

لم يلحظ نجاتي شيئًا مريبًا أو غريبًا إلا بعد أسبوعين من السهر الليلي.
كان يمشي بين الأقفاص، ثم عاد إلى حيث يجتمع مع إسماعيل.
هنا سمع صوت حوار.. هناك من يتكلم مع عم إسماعيل. دنا أكثر واستطاع أن يرى في الظلام أن إسماعيل يجلس مع رجل آخر، وكلاهما يدخن لفافة تبغ. كانا جالسين على العشب...
قال إسماعيل في مرح:
- «تعال يا نجاتي.. تعال أعرفك على جابر»
جابر في الظلام أسمر اللون له عينان لامعتان وشعر منكوش ثائر. من أين أتى؟
قال إسماعيل وقد سمع هذه الأسئلة في ذهنه:
- «جابر صديق عزيز.. لا تبال من أين أتى ولا كيف دخل.. فقط اجلس معه واستمتع بصحبته..»

نجاتي بدأ يتوتر.. ما معنى أن يدخل الحديقة ليلاً شخص غريب؟ ما دور الحارس الليلي إذن؟

ثم خطرت بذهنه أفكار أسوأ. كان يسمع عن حراس يخفون الهاربين من الشرطة في الحديقة ليلاً، وسمع عن حراس يسمحون للعشاق باللقاء المحرم في الحديقة.. مقابل مال طبعًا. إسماعيل ليس أمينًا على الحديقة إذن..

من جديد قال عم إسماعيل:

- «حاول أن تتناسى كل ما في ذهنك من هواجس.. تعال واجلس معنا»

لم يدر ما يقول.. في الظلام زحف على العشب ونزع صندله ثم جلس القرفصاء. وجد لفافة تبغ مشتعلة في يده فسحب منها نفسًا عميقًا..

قال جابر بصوت خفيض:

- «البرد في الليل يمنعك من النوم.. ترتجف. والرجفة تطرد النوم طردًا. ثم إن رائحة الأقفاص تجعلك عاجزًا عن الاسترخاء»

ثم ضحك ضحكة غريبة.. قهقهة مدوية لا مبرر لها. بدت مألوفة لدى نجاتي لسبب ما لم يستطع أن يتبينه. كان يحكي قصصًا غير مألوفة..

ثم سمع نجاتي صوت خطوات قادمة فأجفل. استدار للخلف فرأى ما كان يخشاه. هناك فتاة وشاب قادمان وقد تعانقت أيديهما. هذه أسوأ مخاوفه تتحقق. إسماعيل ليس حارس حديقة فقط..

قال إسماعيل بلهجة هادئة:

- «درية.. وسامح.. سوف تحب صحبتهما..»

كانت الفتاة – برغم الظلام – بارعة الجمال رشيقة بدرجة غير معقولة.. أما الفتى فكان مرن الجسد فارع الطول، والغريب الذي لاحظه نجاتي هو أنهما يلبسان أسمالاً على جسدين عاريين كما هو واضح.. هذه ثياب قديمة مهترئة جدًا..
من جديد دارت محادثة لم يستطع نجاتي أن يفهم معظمها... فقط لاحظ أن سامحًا يسعل من وقت لآخر سعلة طويلة قوية تجعل لسانه يتدلى. عندما قدم لهما عم إسماعيل شطيرتين من الشطائر التي يجلبها للعشاء، لاحظ نجاتي أنهما يأكلان بفظاظة وبلا تكلف..
لماذا لا يشعل إسماعيل النار؟
أخرج عود ثقاب ووضع بعض قطع الخشب الجاف فوق بعضها، وأشعل العود عازمًا على أن يشعل بعض النار لتشيع الدفء. هنا سمع صرخة محذرة.. وهتف إسماعيل:
- «لا تفعل!.. إنهم يريدون الظلام!»
ارتجف نجاتي.. الصرخة كانت رفيعة جدًا وغير بشرية على الإطلاق.. لو أردنا الدقة لقلنا إنها صرخة حيوانية....!

٣

تلكم أغرب مجموعة من البشر يمكن للمرء أن يمضي أمسيته معها. كان نجاتي يفكر في قلق... في البدء هذا الأخ جابر غريب الأطوار، ثم يأتي الفتى والفتاة الرشيقان اللذان يكرهان النار.. بعد قليل ظهر ضيف آخر.. رجل طويل القامة له جلد مجدور غريب..

شدقان طويلان.. يمكنك برغم الظلام الدامس أن ترى هذا كله وتشعر بالغصة في حلقك..

رباه!.. لماذا لا تشعر بالراحة؟

الإجابة سهلة.. لأن وجود بشر في حديقة الحيوان ليلاً أمر غير معتاد. والأدهى أنه لا تفسير لوجودهم، لكن إسماعيل يتعامل كأنه قديم العهد بهم..

لكن تظل هناك إجابة أخرى... ثمة شيء غير مطمئن في هؤلاء القوم، حتى لو قابلتهم جالسين على المقهى في شبرا في وضح النهار.

للمرة الأولى يشعر نجاتي بأنه يفضل لو كان في داره مع زوجته التي تشبه الشمبانزي عديلة.

تقول درية في تقزز:

- الطعام يزداد قذارة وسوءًا.. نحن نعيش في زمن أسود فعلاً. في الماضي كان الطعام رائعًا وكنت تشم رائحة اللحم من على بعد مائتي متر.

يقول عم إسماعيل في الظلام:

- السبب هو الغلاء.. الغلاء يحاصر كل شيء، لهذا لم نعد نشتري نفس نوعية الطعام.

يقول الرجل طويل القامة الذي جاء مؤخرًا:

- الأسماك كذلك لم تعد طازجة كما كانت. من الجلي أنها تالفة.. لم أستطع قط أن أحب مذاق هذه الوجبات.

برغم الظلام يدرك نجاتي أن إسماعيل يختلس نظرة له من حين لآخر ليرى رد فعله.. الواقع أنه بلا رد فعل، هو فقط يتعامل مع كل شيء بمزيج من الصمت والبلاهة..

ازداد الأمر سوءًا عندما ظهر خمسة أشخاص قادمين في الظلام الكثيف. يمكنك أن تتبين أن بينهم امرأتين.. ثمة شيء غريب في هذه المجموعة هي أنهم ضخام الجثة فعلاً، ولهم صوت غليظ مميز.. كلهم كذلك. يمكنك سماع العشب الجاف يتهشم تحت أرجلهم.
النقطة التي تتكرر دائمًا هي أن كل هؤلاء يلبسون الأسمال..
وجد نجاتي أنه يجلس وسط عدد كبير من هؤلاء القوم، وقد قدر منذ اللحظة الأولى أنهم ليسوا بشرًا.. هؤلاء من الجان بلا شك.
إسماعيل ذو الخبرة العتيدة قال له من قبل:
- هذه الحديقة موحشة.. كبيرة جدًا... وصدقني أن هناك أشياء غريبة تحدث من وقت لآخر. ما كانت العفاريت والشياطين لتجد مكانًا أفضل ليلاً.
وقال:
- رشدي يرحمه الله سخر من كلامي في البداية..
لكني لن أسخر يا عم إسماعيل. ما نحن فيه هو موقف (عفاريتي) بامتياز.. شيء غامض يدور هنا..
قال لإسماعيل وهو ينهض:
- هلا تكلمنا بعيدًا؟
يا لرائحة العشب الليلي!. رائحة الحديقة في الليل، ومعها رائحة أخرى لا يعرف كيف يصفها..
قال إسماعيل ضاحكًا:
- هم يسمعون كل شيء.. آذانهم مرهفة جدًا. قل ما تريد.
- لا أستطيع.. يجب أن أبتعد.

صدع إسماعيل بالطلب وهو غير مقتنع. هناك متحف الحديقة المظلم الخالي. يمكنك أن تدخله لو أردت.. هناك في الرواق وقفا وسط حشد من الصور الفوتوغرافية لفلان باشا وفلان باشا المطربشين مؤسسي الحديقة. عند نهاية الممر مومياء منتصبة لأسد يزأر.. لابد أنها هنا منذ كان الملك فؤاد هو ملك مصر والسودان، وقد تم اصطيادها جنوبي السودان.

أضاء نجاتي المصباح الكهربي فتوهج الرواق بضوء خافت كئيب من مصباح واحد، لكنه يبدد الظلام الذي خنقه.. سأل إسماعيل همسًا بصوت كالفحيح:

- من هؤلاء؟

حك عم إسماعيل رأسه مفكرًا ثم قال:

- لا تبحث عن إجابة.. هم هنا فحسب.. تقبل وجودهم

- وأنت تعرف بوجودهم هذا؟

- أعرف هذا منذ أعوام، لكني لا أضايقهم وهم لا يضايقونني.. كلانا يفهم الآخر. نمضي ساعات طيبة في الليل ثم نفترق قرب الفجر.

- وهذا الحفل يتكرر كل ليلة؟

- بالطبع لا.. أنت سهرت مرارًا ولم تر شيئًا كهذا، وكذلك بسيوني لم ير شيئًا قط.. من الواضح أنهم مرتاحون لك.

مرتاحون لي؟ لم نتبادل جملة حوار واحدة، لكنهم يشعرون براحة معي.. لم يرد أن يثب السؤال التالي إلى فمه لكن السؤال انزلق برغمه:

- ورشدي، هل كان يعرف؟ ربما لم يصدق كما قلت أنت، لكن هل كان يعرف؟

في غموض قال عم إسماعيل:
- ثمة أشياء لا تسأل عنها.. فقط اجلس معهم وأصغ لكلامهم.. وعند الفجر ينتهي كل شيء. دعك من أن هذا لا يتكرر كل ليلة.
هنا دوى صوت مرعب كأنه زئير أسد.. ارتجت الحديقة للصوت، وكان نجاتي يعرف أن الأسود تزأر ثلاث مرات قرب الفجر.. ذلك الصوت المميز الشبيه بهدير محرك. هذا هو نفس الصوت تقريبًا..
قال إسماعيل في شيء من الارتباك:
- عائلة الزناتي قد جاءت.. أنصحك أن تؤجل هذا الحديث لما بعد.
وقبل أن يفسر شيئًا كان قد أطفأ مفتاح الكهرباء وغادر قاعة المتحف متجهًا إلى فرجة الأشجار التي شهدت الاجتماع. خرج نجاتي لاحقًا به وقلبه يتواثب.
هناك في موقع الاجتماع وقف خمسة أشخاص منهم من له شعر كثيف منكوش ثائر.. هناك اثنان قصيرا شعر الرأس. بعبارة أدق هناك أنثيان. بدا غريبًا بعض الشيء أن يكون شعر الرجال ثائرًا طويلاً وشعر النساء عكس ذلك.. المخيف أن صوتهم غريب يذكرك فعلاً بالزئير.
كان إسماعيل يرحب بالقادمين في توتر:
- مرحبًا (بأجدع ناس).. كنا ننتظركم في شغف.
قال أحد الذكور من طويلي الشعر:
- صار لك تابع جديد بعد من مات.
قال إسماعيل بصوت مبحوح:
- ليس تابعًا.. هو زميل شاب.. اسمه نجاتي.. وهو شاب شهم من كفر الشيخ.. له زوجة وطفلان بالمناسبة.

لماذا يذكر أنه متزوج؟ بدا شيء من التوسل في لهجته. يذكرك بمن يحكم عليه بالإعدام وهو يتوسل كي يرحموه لأن لديه أسرة..

- مرحبًا نجاتي!

هز نجاتي رأسه محييًا وازداد توترًا..

كان قد كوّن نظريته المتكاملة عن الموضوع. هذه الحديقة (بسم الله الرحمن الرحيم) كما قال إسماعيل.. مكان مسحور أو ملعون. واضح تمامًا أن هؤلاء حيوانات!.. نعم حيوانات اتخذت صورة البشر وغادرت أقفاصها. جابر يذكرك بالضباع جدًا.. درية وسامح قريبان من الفهود.. هناك رجل له شدق طويل يذكرك بالتمساح.. وماذا عن المجموعة الضخمة التي تذكرك بالخراتيت؟.. أسرة الزناتي.. من الغبي الذي لا يتخيل أنهم أسرة من السباع غادرت أقفاصها؟..

أنت في مأزق يا نجاتي.. مأزق حقيقي..

رشدي – بلا شك – واجه هذا الموقف من قبل، ولم يستسلم لنصائح إسماعيل. لقد استبد به الذعر فلقي عقابه. وأنت؟ هل تتحمل؟

٤

حاول بصعوبة وعسر جمّين أن يصوب السيجارة إلى فمه. المبسم يهتز بفظاعة.. يده ترتجف.. لدرجة أنه أطبق بأسنانه بقضمة واحدة على طرف السيجارة كأنه يلتهمها، ثم بدأت مشكلة التصويب على الطرف الآخر بثقاب مشتعل.

ما كان يضايقه أكثر هو نظرات الشك في العيون التي تراقب ارتباكه. هذا يزيد الأمر سوءًا. وقد لاحظ كذلك أنهم يرقبون لهب الثقاب في كراهية وتركيز إلى أن يطفأه..

في سره راح يردد:

- «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»

من مكان ما ظهرت امرأة.. امرأة تمشي منحنية وهي تحمل طفلاً، وقد كان الظلام دامسًا فلم يعرف من هي. لكنه أدرك أن مشيتها غريبة بالفعل، جلست هناك قرب الدائرة وأخرجت ثديها وراحت تلقم الصغير.

قال عم إسماعيل بلهجة ذات معنى:

- «أهلاً بك يا عديلة!!»

عديلة !!...

لو أن الضوء يسمح قليلاً لاستطاع أن يري عينيها اللامعتين ووجهها القبيح المذعور. هذا هو الحيوان الوحيد الذي احتفظ باسمه القديم على ما يبدو..

رأى عم إسماعيل حيرته وذهوله، فأمسك بساعده ودعاه للنهوض معه، وطلب الإذن من الجالسين.. يريد أن ينفرد بنجاتي قليلاً..

لم يرد أحد. فقط تصاعد بعض الزئير وضحك أحدهم ضحكة مدوية عالية يعرفها نجاتي جيدًا.. ضحكة الضباع.. بينما الرجلان يتجهان إلى بقعة خالية قريبة جدًا من بيت الأفيال. هناك في الظلام وبين الأشجار يمكنك أن ترى القضبان والوتد المثبت في الأرض وأكوام التبن..

- «منذ متى ؟»

يقولها نجاتي متقطع الأنفاس. يلهث وينظر إلى الجمع الغامض الجالس من بعيد.

- «أولاً خذ الحذر.. إن سمعهم مرهف وعلى الأرجح يسمعون كل كلامنا، ولو صدقت غريزتي لقلت إنهم يسمعون أفكارنا كذلك. الحيوانات تملك ما هو أمضى من السمع والبصر والشم».

يقولها عم إسماعيل الذي لم يعد يحتاج إلى أسئلة.. لقد صار كلاهما يفهم ويسمع أفكار الآخر، ويردف:

- «ربما منذ عامين.. لا أعرف السبب ولا كيف.. فقط أدركت أن الحديقة مسحورة.. في البدء أصابني الذعر ثم وجدت أنهم رفقاء طيبون لطيفو المعشر.. فقط لا تثر غضبهم.. كل واحد منهم له فتيل يجعله ينفجر، والذكاء هو أن تعرف كيف تتفادى هذا الفتيل!».

- «يغادرون الأقفاص»

ابتسم عم إسماعيل وجفف عرقه:

- «أنت تصدق هذا التحول ثم تندهش لأن الأقفاص تنفتح ليلاً!... كأنك ترى رجلاً يطير فتندهش لأنه لا يصاب بالزكام!.. تستمر الليلة وعند الفجر يعودون للأقفاص التي تنغلق بذات القدرة التي فتحت بها، ويتم التحول..»

- «رشدي رأى هذا كله؟»

في حزم قال عم إسماعيل:

- «أمرتك ألا تسأل.. طلبت منك أن تنسى. امض الليل معهم وتمتع بصحبتهم فقط».

- «وبسيوني.. هل يعرف؟».

قال إسماعيل في غموض:

- «بصراحة لست واثقًا... لو كان يعرف فقد أخفى هذا ببراعة عني. لكن ما أعرفه عنه هو الحمق والاندفاع.. لا يقدر على حفظ سر أكثر من نصف ساعة. لو عرف لتكلم في كل مكان. على الأرجح لم يتم التحول في الليالي التي يسهر فيها..»

قال نجاتي في عصبية:

- «هناك شيء واحد.. أنا لن أمضي الليل هنا.. سوف أمضيه في الغرفة الضيقة. سأغلقها علي، فخذ الشيشة لو كنت تريد التدخين..».

بطريقة من يعرف هذا كله من قبل، قال إسماعيل:

- «لا بأس.. توقعت هذا.. سوف تحتاج لوقت طويل كي تفهم وتعتاد.. افعل ما شئت، ولكن لتعرف أن ما تراه هنا سيظل سراً.. قلت لك إن لهم فتيلاً فلا تدس عليه».

لم يرد نجاتي.. مشى في الظلام مبتعدًا وهو يتحسس السور الحديدي المدبب. من بعيد يرى طاووسين يفردان ريشيهما في غزل ليلي مع الصوت المميز، ثم يرى ثعالب الفنك تتسلق السلك الشائك في أقفاصها، ويصدر الفيل صوتًا عميقًا مليئًا بالشجن..

كانت هذه غرفة الحراس بضوئها الخافت. دخلها وبحث حتى وجد الشيشة المفككة والفحم فأخرج هذه الأشياء للخارج، ثم أغلق الباب على نفسه والتف بالبطانية، وراح يرتجف.. كأنه محموم...

مد يده يعبث في مفتاح جهاز الراديو، وسرعان ما سمع صوت الست يغني:

- «أغدًا ألقاك؟ يا خوف فؤادي من غدي»

لو كان في ظروف أخرى لطرب وراح يهز رأسه منتشيًا، لكنه كان الذعر مجسدًا. الهاتف الخلوي معه، لكنه لا يجسر على أن يتصل بأحد، ولو اتصل فماذا يقول؟ وماذا لو عرفوا نواياه؟

هذه الرائحة!!

الرائحة الحيوانية المميزة لأقفاص الضباع.. من أين تأتي؟

كان يعرف.. النافذة الصغيرة المدعمة بالقضبان الموجودة فوق رأسه، وتذكره جدًا بنوافذ السجون أو عربة الترحيلات. هذه النافذة مسدودة.. كتلة سواد تغلقها وتحجب السماء. يمكنه أن يسمع الزئير المكتوم ويرى لمعان العينين. هناك من يراقبه من الكوة ليرى ما يفعله وحده في الظلام.

هناك يمكنه أن يرى عم إسماعيل جالسًا مع تلك الكائنات..

- «هل أنت مطمئن له؟»

- «أنا أثق فيه كنفسي.. نجاتي ولد طيب»

- «الأولاد الطيبون قد يتكلمون»

- «أنا أعرف أنه خائف مذعور.. الخائفون مطيعون، والمذعورون لينو العريكة»

- «إن كنت مخطئًا فهو الندم ثم العقاب.. أو هو العقاب فالندم»

كان نجاتي يفكر في عمق.. ليس بوسعه أن يرفض أو يقبل هذا الوضع. لقد صار في اللعبة ولا يستطيع التملص. لكنه لا يريد.. لقد عرف سرًا لا يريد أن يعرفه، وتحمل بأمانة لا يريد حملها.

من أين بدأت هذه اللعنة؟

الإجابة التي كان إسماعيل يراها بوضوح هو أن هناك فجوة شيطانية في هذه الحديقة. عملية الحفر التي استغرقت شهرًا جوار أقفاص الزراف ثم توقفت لأن هناك بئرًا حجرية غامضة. بعد

تفكير قرر المهندسون أن يغيروا موضع الحفر، وأهالوا الحجارة على موضع البئر ونسوا كل شيء عنه. عم إسماعيل يعتقد أن الظاهرة بدأت بعد هذا.. الجان تحت الأرض قد استولوا على الحيوانات. نجاتي لا يعرف هذا بالطبع ولو عرفه لما صدقه. لا يهم.. هذا لن يغير الحقيقة..

لن يبقى هنا لحظة أخرى..

ربما لو ظل حتى الصباح ثم يكون أول شيء يفعله هو أن يستقيل.

لكن النفور الذي ألم به جعله عاجزًا عن تحمل دقيقة أخرى..

النار.. لقد رأى كيف أن النار تخيف هذه الكائنات وتبعدها..

كانت هناك زجاجة كيروسين جوار الموقد. أخذها وأخذ البطانية والموقد نفسه وبحذر فتح الباب متوقعًا أن يجدهم جميعًا بالخارج.

لكن لم يكن هناك أي منهم. سكب الكيروسين على العشب.. ثم سكب بعضه على البطانية، وأشعل السائل الملتهب... ثم قلب الموقد المشتعل..

في اللحظات التالية استطاع أن يصنع أكبر فوضى ممكنة.. صار هناك ستار من النار يفصله عن الوحوش، وهو يعرف أن سور الحديقة على بعد عشرين مترًا.. هناك فجوة مهدمة تسمح بالوثب للخارج..

قلبه يتواثب!.. توقف قليلا!... لا تفقد وعيك يا نجاتي!

قلبه يتواثب..

يتواثب..

للحظة غامت الدنيا بسبب تسارع الضربات لكنه استعاد الوعي سريعًا وجرى نحو الفجوة... سمع الضوضاء من بعيد وسمع زئيرًا، لكنهم كانوا قد تأخروا جدًا..

السور.. يتسلقه.. يجلس على قمته، ويوشك على الوثب لكنه يسمع صوتًا يتوسل:

- «نجاتي!.. عد يا بني!.. لا تثر غضبهم!..
إنهم.......................»

كان هذا هو إسماعيل الذي وقف على الجانب الآخر من اللهب يحاول العبور ويصرخ..

لم يصدق نجاتي ما رآه.. لقد طار جابر الشبيه بالضبع مترين في الهواء، ثم هبط فوق عم إسماعيل.. ودوت صرخة هلع، ثم اختلط كل شيء، لأن جابرًا كان يلتهم شيئًا واقعًا هناك وسط العشب والظلام... كان يضحك ضحكة ضباع لا شك فيها..

ومن بعيد جاءت أسرة الزناتي تركض..

كان هذا كافيًا لنجاتي كي يثب من فوق السور إلى الشارع الخالي المظلم..

آي!.. هل تهشم كاحلي أم هو مجرد التواء؟

٥

محاسن كانت ترضع الطفلة، وهي جالسة مع زوجها عاطف. كان الوقت قد توغل جدًا حتى أنهما بالفعل قد صار (غدًا) ولم يعودا (أمس). لكنهما اعتادا هذا.. البقاء في المحل حتى هذه الساعة نوع لا بأس به من قضاء السهرة، وكان التلفزيون الصغير ذو العشرين بوصة يكفي لجعلهما يسافران مع عالم الصور الحالم. في الثالثة أو الرابعة صباحًا تضع الطفلة على كتفها وتركب السيارة (اللادا)

العتيقة جوار زوجها.. يعودان للبيت وينامان، وأنت تعرف أنهما لا يفتحان المحل قبل الواحدة بعد ظهر الغد.

ليس محلاً بالضبط.. بل هو مكتب اتصالات. معظم نشاطه يتعلق بالشحن وتجارة الكروت. لكن هناك بعض أجهزة الجوال القديمة وبعض الكماليات على الجدران.. وبالطبع ليس لك أن تتوقع أي عملاء بعد الواحدة صباحًا..

عاطف كان يلتهم بعض الخصّ بصوت عال، وهو يتابع المسلسل.. عندما نظرت هي إلى الباب فرأت ذلك الرجل الأصلع يركض نحو المكان. إنه يعرج بلا شك.. إنه مذعور كأنه رأى الشيطان..

والأغرب هو أنه يلبس ثيابًا شبه رسمية (يونيفورم) لها ذلك اللون الخاكي الكئيب.

شهقت فتوقف زوجها عن المضغ، وتلقائيًا مد يده إلى السكين التي قطع بها الخبز في العشاء ولوح بها منذرًا القادم الجديد، لكن القادم كان في حال سيئة.. ولم يبد حاملاً أي نوع من التهديد...

- «إنهم خلفي!»

- «من هم؟»

لا تفسير..

ثم إنه اقتحم المكان، وهتف وهو يواصل العرج ويتوارى خلف الكاونتر:

- «أغلق المحل.. بسرعة.. هناك ستار حديدي كما أرى!»

- «ولكن............»

- «لا وقت للشرح!»

لم يفهم عاطف، لكن رسالة الرعب وصلت على كل حال.. هرع بسرعة وتناول القضيب الحديدي وبدأ يسدل الستار وهم بالداخل. الزوجة راحت ترمق القادم وهي ترتجف.. ليس مخيفًا لكن خوفه هو المخيف. ماذا رأى هذا الرجل البالغ حتى يصرخ ويعوي ويبكي بهذه الطريقة؟

جلس عاطف على مقعد بلاستيكي وأخرج لفافة تبغ قدمها لنجاتي، وقال:

- «هلا هدأت قليلاً؟.. ما الذي يطاردك؟»

- «لا أعرف»

هذه لحظة الخبال إذن.. جميل أن تقابل مجنونًا في الثالثة أو الرابعة صباحًا وأنت مع زوجتك وطفلك الرضيع.

ثم.........................

الرائحة...................

البداية هي الرائحة الكريهة التي لا توصف... رائحة عطنة لم يشمها من قبل.

ثم صوت الزئير المكتوم.. الزئير القادم من خارج المحل..

ثم بدأت الدقات على الستار الحديدي..

بكى نجاتي وغطى وجهه:

- «ليرحمنا الله.. لقد تمكنوا من الهرب. كان عم إسماعيل يسيطر عليهم.. لقد جريت كثيرًا لكنهم اقتفوا أثر رائحتي.. شموها على بعد نصف كيلومتر. لكني أتوقع أنهم لا يعرفون كيفية فتح الستار»

عم يتكلم بالضبط؟

ما الشيء الذي يضرب الستار الحديدي بلا توقف؟

لكنه كان يعرف يقينًا أن عليه ألا يفتح هذا الستار. لا يحب أبدًا أن يرى الشيء الذي يسبب هذا..

استمر التوتر للحظات ثم هدأت الأصوات وبدأت تبتعد.. الرائحة تقل بلا شك..

قال نجاتي منذرًا:

- «لا تفتح الباب!.. لا أعتقد انهم ابتعدوا بهذه السرعة..»

استمرت الجلسة المتوترة ساعة أخرى.. الكثير من التدخين حتى صاحت الزوجة مزمجرة:

- «بالله عليك توقف!.. الصغير سيختنق!.. المكان مغلق»

في حذر نهض عاطف وبدأ يرفع الستار ببطء وهو ينظر حوله. تسرب هواء الفجر البارد للمكان.. صوت أذان قادم من مسجد قريب في مكان ما. لا يوجد شيء..

قال لنجاتي وهو يلهث:

- «سوف تهرع محاسن إلى السيارة، ثم تلحق أنت بها.. ثم سأغلق أنا المحل.»

- «لا وقت لذلك»

- «لن أترك المحل مفتوحًا لأجده فارغًا في التاسعة صباحًا.. هناك لصوص لو كنت قد فهمت هذا»

وسرعان ما هرعت الزوجة إلى السيارة اللادا... انتظر الرجلان ثم أشار عاطف لنجاتي كي يهرع وهو يتواثب على ساقه السليمة.. ثم أنزل الستار الحديدي ووضع الأقفال بسرعة البرق ولحق بالسيارة ليجلس خلف المقود.

برغم أن السيارة معتادة النعاس في هواء الصباح البارد، فإنها ارتفعت إلى المسئولية هذه المرة ودارت... وسرعان ما تراجع الزوج بالسيارة ليغير الاتجاه..

هنا انفتحت أبواب الجحيم..

لقد ظهر رفاق الليل من مكان ما.. كانوا يركضون نحو السيارة، ولم يحتج عاطف لأسئلة كثيرة.. لقد رأى القادمين فعرف أنه لا يجب أبدًا أن ينتظر قدومهم أو يقع في أيديهم.

اندفعت السيارة بجنون تنهب الشارع..

ومن خلفها راحت ثلاثة من تلك الكائنات تركض..

كان فارق السرعة كبيرًا وسرعان ما تركت السيارة مطارديها خلفها، لكن ظل أحد المطاردين يجري بسرعة هائلة.. يجري كالسيارة أو أسرع... كان رشيقًا طويل العظام فارع القامة..

- «كيف يفعل هذا؟»

قال نجاتي بصوت مبحوح:

- «أعتقد أنه كان فهدًا!»

نظر له عاطف في دهشة:

- «هل أنت مخبول؟ عم تتكلم بالضبط؟»

سرعة الوحش القادم مذهلة، وبدا واضحًا أنه سيلحق بالسيارة.. لكن فجأة بدأت خطواته تتراجع.. وبدأ يتعثر.. قد يكون الفهد والشيتا سريعين جدًا، لكن الآلة تتفوق عليهما في نقطة واحدة: القدرة على المثابرة.. العضلات تتعب وتغرق في حمض اللاكتيك فتضرب عن العمل..

هكذا اندفعت السيارة في شوارع المدينة الخالية بعد ما زال الخطر..

لم ينطق نجاتي ولم يعط أي تفسير.. ظل صامتًا بعض الوقت، ثم مال على عاطف الجالس خلف المقود وقال:

- «أنزلني هنا وليرعك الله!»

تساءل عاطف في حيرة:

- «لم تفسر لي... من هؤلاء؟ ما هذا؟»

وكما فعل عم إسماعيل من قبل، قال نجاتي لمنقذه وهو يفتح الباب ويترجل:

- «لا تسأل عن أمور من الأفضل ألا تعرفها.. عد لبيتك وأغلقه عليك، ولو أردت نصحي لاقترحت ألا تذهب لمحل الهاتف لمدة يومين أو أكثر»

وقبل أن يسأله عاطف سؤالاً آخر كان قد توارى في الغبشة المميزة للفجر..

****

- «هي جنية!»

كان هذا رأي خالد لكن أنيسًا لم ير هذا الرأي.. لا أحد يفكر بهذه البلاهة..

سيارة المراهقين العائدين في الفجر وقد أثقلت الأقراص المخدرة عقولهم. خالد خلف المقود، بينما أنيس جواره وفي المقعد الخلفي ياسر وأكرم.

وفي الشارع الذي بدأ الفجر يزحف عليه كان المشهد الذي لا يصدق. فتاة رشيقة فارعة الطول.. واضح أن جمالها لا يوصف.. والغريب أنها تلتف ببعض الأسمال حول جسدها العاري كما هو واضح..

متسولة؟ هذه ليست ملامح متسولة.. هل تعرضت لتجربة قاسية؟ لا يبدو ذلك على ملامحها ولا مشيتها الواثقة الثابتة.. ربما هي هلوسة جماعية؟

اندفع خالد بالسيارة، وجعل سرعتها مماثلة لسرعة الفتاة التي تمشي على الإفريز ولا يبدو أنها تلاحظ أحدًا..

الأمر يحتاج لتفسير فعلاً. لا جدال في أن الفتاة بارعة الجمال.. وهذه ليست هلوسة..

قال خالد بلهجة تقريرية:

- «جنية.. جنية تبحث عن شباب بلهاء مثلنا»

أطلق ياسر سبة من المقعد الخلفي، وقال إنه لن يترك فرصة كهذه لمجرد أن خالدًا يخرف.. ثم أنزل زجاج السيارة وصاح ينادي الفتاة الغامضة التي تمشي جوارهم وفي نفس اتجاههم:

- «هيه!.. هل تريدين توصيلة؟ نحن هنا كي نقدم الخدمات»

توقفت ونظرت لهم.. هنا ترجل ياسر بسرعة من السيارة المتوقفة وقلبه يدق كالطبل، وفتح لها الباب الخلفي فانزلقت إلى الداخل دون أسئلة أو جدل. انسل يجلس جوارها بحيث صارت بينه وبين أكرم، وبينما السيارة تتحرك من جديد سألها عن اسمها فقالت في شرود:

- «درية»

لاحظ ركاب السيارة المنطلقون نحو ليلة حمراء أن رائحة الفتاة كريهة جدًا، كما لاحظوا أن شيئًا مقلقًا يحيط بها.. شيئًا لا تستطيع الإمساك به.. على العموم كانت هذه نهاية قصتهم..

٦

من تقرير العقيد محمد السلاوي رئيس المباحث:
الحقيقة أن تفسير ما وجدناه في تلك الليلة يستعصي على التفسير. وكان يمكن للأمر أن يكون أسهل لو كانت هناك كاميرات مراقبة، أو أن الحارس المدعو إسماعيل المنوفي لم يمت، أو أن المدعو نجاتي زكريا احتفظ بقواه العقلية. هذه هي المشكلة لا يوجد شهود. لا نعرف تفصيلاً ما حدث في تلك الليلة السوداء، لكن الأمر يذكرني تمامًا بمقتل حارس اسمه رشدي، وجدوه وقد غمر نصف جثته في بركة البط وسط الماء الآسن، وقد تمزق بشكل حيواني.. جروح قطعية بأداة حادة أقرب إلى الأنياب والمخالب، وبعض العظام مجرد من اللحم.. هناك أعضاء اختفت تمامًا.
لم تتكشف أسرار القضية، وإن كانت الإجابة الوحيدة الممكنة هي أن إدارة الحديقة تتستر على فرار وحش كاسر، ولم يقدم لنا الحارس إسماعيل أي إجابات مفيدة.
كان علينا أن ننتظر طويلاً حتى نجد إسماعيل نفسه ممزقًا جوار سور الحديقة، وقد أحاطت به أعشاب متفحمة. هناك من أشعل ستار نار في ذلك المكان ثم انطفأ.. وكان عنق الرجل ممزقًا كأن وحشًا أنشب أسنانه هناك.
الجرد أظهر أشياء غريبة.. ثمة أقفاص كثيرة جدًا قد انفتحت. لا توجد حيوانات.. الكثير منها قد فر. الأغرب أنه لا توجد بلاغات عن مشاهدة حيوانات فارة في المنطقة.. لقد ضاعفنا الدوريات حول الحديقة وقمنا ببحث مستفيض لكن لا يوجد شيء. الحيوانات

المختفية تقدر باثني عشر حيوانًا؛ منها الأسود والضباع ووحيد القرن وأنثى شمبانزي وتمساح.
هل تمت سرقة هذه الوحوش؟ مستحيل أن يتمكن نفس الشخص أو الجهة من عمل الشيء ذاته في ليلة واحدة. هل هربت؟ إذن كيف حدث هذا ومن فتح الأقفاص؟ ولماذا لا نجد أثرًا لأي منها؟
حقًا لا نجد الحيوانات لكن آثارها موجودة.
مثلاً هناك سيارة كيا وجدناها مقلوبة وقد اصطدمت بجزيرة الطريق، وكانت في حال سيئة فعلاً لكنها لا تفسر وجود أربع جثث بالداخل.. ياسر وأكرم وأنيس وخالد أربعة من طلاب إحدى الكليات الخاصة، وجدنا جثثهم الممزقة في السيارة. لقد تم انتزاع أحشائهم بعناية وكفاءة.. ويبدو أن الذعر جعلهم يفقدون التحكم في السيارة فارتطمت بالجزيرة. لم يكن الحادث سبب الوفاة، لكنهم بالتأكيد عانوا كثيرًا وهم عاجزون عن الحركة بينما الوحش يلتهمهم واحدًا واحدًا..
عند شارع المغربي قرب الناصية وجدنا جثة رجل شرطة ممزقة تمامًا وقد اختفى نصفها. واضح أنه كان متجهًا لتسلم ورديته عندما هوجم.. ما الذي هاجمه؟ لا نعرف حقًا، لكن المنظر يذكرك بمشاهد الذين التهمتهم الأسود التي تراها في يوتيوب لو كانت أعصابك قوية.
كان هناك خيط واحد يمكن أن نمسك به: الحارس نجاتي الذي بدأ الأمسية ثم اختفى. لابد أنه يعرف ما حدث فعلاً. لم نجده في مسكنه وعرفنا أنه عاد مع أسرته لقريته المجاورة لكفر الشيخ.
عندما ذهبت قوة من الشرطة لاستجوابه قابلتنا زوجته – وهي ابنة عمه كذلك – تصرخ دامعة العينين تطالبنا بأن نتركه وشأنه:

- «الرجل قد جن. لقد خرب بيتنا»
وعندما دخلنا رأينا الرجل مذعورًا جدًا. كان يلبس الجلباب البلدي ويقف عاري الرأس فوق حشية الفراش وهو يولول كالنساء. وقد راح يحاول أن يلتصق بالجدار في ركن الفراش البعيد ليفر منا، وهو يردد بلا توقف:
- «عم إسماعيل..! لقد تسببت في موته!»
في النهاية استطعنا أن نجلسه وقدمنا له لفافة تبغ، ووعدناه بألا نؤذيه لا هو ولا أسرته، فقال دامع العينين:
- «لقد انتقموا منه لأنني لم أذعن.. لو أنني لم أفقد أعصابي.. لو ظللت متماسكًا حتى الصباح لتركوه حيًا.. لربما مت أنا مثل رشدي.. لكنهم عرفوا أنهم لن يلحقوا بي فقرروا الانتقام من عم إسماعيل».
كان هذا هو الجنون مقطرًا مركزًا.. وقد طلبنا نقله لمستشفى أبي عيطة للصحة النفسية في دسوق، وبدا لنا أنه من المستحيل استخلاص شيء من كلامه.. كان يخطرف وليس لديه ما يقال عن اختفاء الحيوانات سوى أنها هربت. من الذي فتح الأقفاص كلها؟ لا يوجد متهمون كثيرون. أنت يا نجاتي أو إسماعيل يرحمه الله. وبما أنك في حالة لا تسمح بالاستجواب، فهو مستشفى الصحة النفسية إلى أن يقرر الطبيب أن بوسعنا استجوابك.
تابع تقرير العقيد محمد السلاوي رئيس المباحث:
يجب أن أضيف هذا الملحق لأؤكد أننا وجدنا الحيوانات المختفية مؤخرًا. القصة غريبة بعض الشيء ويصعب تصديقها، لكن الجرد حسب جداول الحديقة كامل. كلها ميتة.. الأسود والضباع والذئاب والفهود ووحيد القرن.. كلها وجدت في مواضع عدة من المدينة.

يقول لي أحد الشهود إنه وجد رجلاً فارع الطول يرتدي أسمالاً بالية، وكان يمشي وحيدًا في أحد الأزقة. ثم سقط على ركبته وراح يبكي. كان يعاني ألمًا رهيبًا لكن ما سببه وما مكانه؟ هرع إليه وربت على ظهره. هنا تدخل القصة إطار اللامعقول. يقسم الشاهد على أن الرجل سقط على الأرض وأسلم الروح، ثم بدأ أمام عينيه يتحول إلى فهد. فهد ناضج كامل النمو. الشاهد بالطبع افترض أن هذا نمر لكننا وجدنا جثة فهد حينما ذهبنا هناك.

هناك ثلاثة أسود وجدوها ميتة قرب مدرسة أطفال، وهناك ع امل يقسم على أنهم كانوا ثلاثة رجال خشني المنظر ثم سقطوا على الأرض يتألمون.. وعندما دنا منهم وجد أنهم أسود ميتة.

- «إنهم بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا شغل جان»

القصة محيرة وغريبة. هناك أنثى فهد وجدها شاب في فراشه وهو يقسم على أنه لا يعرف كيف جاءت.. شاب عزب هو سيئ السير والسلوك، لكن لا أتخيل أنه يضاجع الفهود.

مشاجرة عنيفة نشبت بين بعض الحمالين ورجل ضخم شديد الفظاظة قرب موقف الميكروباص، ثم سقط الرجل على الأرض. والحمالون يقسمون على أنه مات.. ثم بدأ يتحول إلى وحيد قرن!!

كل هذا الكلام الفارغ يؤسفني أن أكتبه في تقريري لكني مضطر لذكره، وعلى كل حال قد طلب السيد مدير الأمن أن نلتزم الصمت تمامًا وألا يتم نشر أي شيء عن هذه الواقعة. لا يوجد سوى هراء فما جدوى نشر الهراء سوى البلبلة؟ لن نسمح بأن يبدأ السيرك الإعلامي المعتاد في كل مرة. لا توجد حيوانات هاربة الآن..

سنعتبر أن المراهقين هلكوا في حادث السيارة، وأن ضبعًا هاربًا مزق الحارس إسماعيل .

لقد حان الوقت لنغلق هذه القضية................

****

داروس إي بتراناخاك. فلتتبارك..
لقد عاد الهدوء للحديقة..
أغادر البئر التي آوي لها أنا (ناخاك) الأعظم. لقد مرت أعوام منذ تحررت من سجني عندما أزال المهندسون من الفانين تلك الأحجار التي تسد عالم الظلام الجحيمي الذي لا أعرف لي سواه مهدًا ولا بيتًا ولا قبرًا. وعندما يزحف الظلام ليتوغل بين فروع الأشجار وحشاشات العشب وتسمع صوت خطواته المكتومة فوق الكلأ النادي، فالحين حين خروجي. إنه نداء الديجور.
كعادتهم يخطئ البشر الفانون عندما يحفرون بلا روية ولا تأن ولا حكمة، غير عالمين أنهم يزيلون الغطاء عن فتحات ما كان لها أن تُفتح، وككل الأبواب الجحيمية هي عسيرة الفتح من الجانب الجحيمي، هينة الفتح من جانب البشر.
كانت الحديقة المظلمة التي تفوح فيها روائح الحيوان والكواسر وترتج بصيحاتها وزئيرها، هي المكان الأمثل لعودة ناخاك.
ناخاك الأعظم قد منح الوحوش القدرة على أن تكون بشرًا..
ناخاك الأعظم قد فتح الأقفاص لتخرج هذه الأرواح الظامئة للحرية.
ولساعات طويلة نعمت الكواسر بالحرية وبالقدرة على الاختيار، وامتلكت عقولاً دانية من عقول البشر. وعرفت كي تحفظ سرها وتغتال من يأبى أن يحفظه.
لكنها قارفت غلطة شنعاء عندما فرت من محبسها، وراودها الطمع في حياة مستقلة حرة، وما لم تدركه تلك الوحوش هو أن

ابتعادها عن ناخاك الأعظم هو ابتعاد عن ينبوع الطاقة الذي يمنحها الحياة. صحيح أنها احتفظت بصورتها الجديدة لكنها ما كانت لتظل كذلك.

لقد هلكتْ جميعًا.. وعندما هلكتْ فإنها استعادت مظهرها السابق وزالت نفحة بشريتها..

ناخاك ما زال هنا، ولديه السرمدية زاد لا ينفد. ناخاك الأعظم سيجرب الكثير من ألعاب الشر لأنها تمنحه سرورًا شيطانيًا لا يقدر عقل فان على استيعابه.

فقط عندما يعود للحديقة هدوؤها مع الهزيع الأول من الليل، ينهض ناخاك من جديد ويفتح بابًا آخر من أبواب الرعب.

فلننتظر ولنر.

تمت

نقوش

١

قال البروفسور ماساتو ساكاي بإنجليزيته التي هي أقرب لليابانية:
-ـ«نحن نقترب من الحل .. المشكلة ليست بهذا التعقيد».
لم يعلق واحد من الفريق. فالمشكلة كانت فعلاً بهذا التعقيد، بل أكثر بمراحل.

****

الدوامة التي دخلها عماد كانت أكبر من قدرته على الفهم .. أكبر من تحمل جهازه العصبي... أكبر من قدرات جهازه التنفسي. لم يتساءل من قبل عن شعور مسمار المثقاب وهو يخترق الخشب، لكنه يدركه الآن. رأى ذات مرة فيلمًا عن ظروف تدريب رواد الفضاء على تحمل الطرد المركزي، ورأى كيف يغيبون عن الوعي ويتدلى لحم وجوههم ويسيل لعابهم. تذكر هذا الفيلم في تلك اللحظات. ترى هل لعابي يسيل؟.
قال لنفسه:
-ــ«أنا أموت .. إن هي إلا لحظات وتمر بسرعة، ثم أفيق في الجانب الآخر».
لكن المشكلة هي أن اللحظات لا تنتهي. يبدو كأن الأمر أبدي بلا نهاية.

ثم جاء الظلام الرائع .. الظلام المحبب .. فقدان الوعي الرحيم. لابد أنها أسعد لحظة يعيشها من تلتهمه النيران أو هو بين أنياب أسد.

ثم بدأ يرى ضوءًا في نهاية النفق .. هل هذا نفق؟.

ذكريات ضبابية عن انطلاقه بالطائرة .. القاعدة الجوية المصرية في ظلام الليل والإشارات .. الفضاء.. والأرض تتحول لصفحة سوداء كبيرة ..

ماذا حدث بالضبط؟ عاصفة رعدية .. غمامة سوداء ينبعث منها الشرر كأنها وحش إغريقي غاضب.

برج المراقبة قال له إن هناك عاصفة رعدية تقترب، وصدر له الأمر بالعودة .. لكن الكلام سهل. لقد دار دورة سريعة في الفضاء ثم هبط بشكل عمودي، وهو ينوي أن يعود أدراجه إلى القاعدة الجوية، لكن لسان برق عملاقًا خرج من مركز الغمامة ولطم الطائرة.

بعدها بدأ الكابوس. كان ينجذب إلى داخل العاصفة، وداهمه شعور عارم بأن هذا لسان وحش يلتقمه كذبابة. حرباء كونية ظفرت به ولن يستطيع الخلاص من صمغها اللاصق.

صرخ في مكبر الصوت:

-«الله أكبر!... إنني أموت!!».

الأمر سهل ولا يحتاج لتفكير طويل .. سوف يدخل الدوامة فتتحطم الطائرة أو تصعقه الكهرباء، أو تتعطل الطائرة فتهوي إلى الأرض من ارتفاع خمسة كيلومترات... في كل الأحوال هو الموت ولا شيء سواه ..

على التابلوه رأى الصورة الصغيرة لمها مع أشرف ...

هما الآن نائمان على الأرجح، يحلمان أحلامًا سعيدة، ولا يعرفان أن العمل جارٍ على قدم وساق لتحويلهما إلى أرملة وطفل يتيم .. هذا بالطبع لو لم تكن القدرات الخارقة شيئًا حقيقيًا، فتكون مها ترى هذه المشاهد معه الآن وتتقلب في الفراش غارقة في العرق ..

لسان برق آخر يضرب الطائرة ..

ثم دخل الدوامة المخيفة ..

****

الحياة في (زور) لم تكن كئيبة.

في كل يوم هناك شيء جديد تتعلمه أو تعرفه. هناك (ألتيما) العظيم الذي يعرف كل شيء تقريبًا ويمكنك أن تتصل به بسهولة

في أي لحظة عن طريق الشاشات الزئبقية الموجودة في كل مكان. فقط أنت تنظر للشاشة طويلاً وتقول:

-«أزل الظلام يا زور».

فتزول الغيوم على الشاشة ويظهر بوجهه المميز الأخضر، ويجيب عن أسئلتك ..

لم يستطع عماد قط أن يعرف هل (ألتيما) صورة رقمية يصنعها الكمبيوتر أم هو رجل غريب الشكل فعلاً. لكن من العسير في هذا العالم أن تتحدث عن الكمبيوتر أصلاً. لا يوجد شيء اسمه الكمبيوتر .. كل ما تعلمه هو أن المادة ذكية حية وتجيب عن أسئلتك فورًا.

هكذا كان يقضي الساعات أمام الشاشات يعرف منها كل شيء.

لم يكن (زور) شبيهًا بالعوالم التي تجوب في ذهنك .. إنه أقرب إلى بطانة رحم عضوية دافئة تنبض وتسيل .. وأنت تمشي بين ردهات تذكرك بقنوات فالوب كما كنت تراها في صور المنظار الرحمي في كتب الطب الخاصة بأخيك ..

المواطنون هناك كانوا يبدون كالبشر، وإن كانوا أكثر نحولاً وحزنًا. فيهم شفافية بلورية غريبة .. لكن أسماءهم صعبة جدًا. لا

يمكنك أن تعيش مع شخص اسمه (ببببتنمكارروسان)، وهم لا يستعملون طريقة التدليل أو التبسيط ...

كان هناك في بيت (كيفياليبانماياسوش). كان يرقد في فراشها وينظر للسقف الذي ينبض والذي تتدفق فيه شرايين حية..... جدران ذات شرايين! . وكانت (كيفياليبانماياسوش) جميلة جدًا طويلة الأطراف لها أصابع يدين ملتصقة تزيدها جمالاً –لا أدري كيف- ربما لأنها تذكره بتلك الفتاة الجميلة التي كان الفنان بيكار يرسمها دومًا.

لم تكن تتكلم لكنه يسمع أفكارها بوضوح تام:

-«أنت في (زور)».

حاول أن يتكلم لكن الصوت لم يخرج. فقط خرجت أفكاره:

-«أين يوجد (زور)؟».

-«زور هو الكل الذي نحن فيه.. أنت دخلت دوامة زمنية ومكانية وفيزيائية، واليوم صرت منا».

لم يستطع الفهم .. لكنها في ذلك اليوم اقتادته عبر الممرات، وهناك كانت فتحة تنبض وتخفق كأنها صمام في قلب، وعبر الفتحة استطاع ان يرى العالم الخارجي ..

العالم الخارجي كان أرضًا زرقاء تمتد إلى ما لا نهاية، وسماء حمراء بلون الدم... واستطاع أن يرى ديناصورات عملاقة تمشي في الخارج .. أرجل هائلة مكسوة بشعيرات دقي

قة .. عندما رفع عينه أكثر أدرك أن هذه ليست ديناصورات تلك التي تمشي حولهم .. إنها صراصير عملاقة !

ما أفزعه أكثر هو أن (كيفياليبانماياسوش) خرجت من الفوهة النابضة وراحت تمشي بين تلك الأرجل بلا وجل ... وأدرك أن هناك نملة عملاقة تدنو منه ..

في أفكاره صرخ:

-«نحن أقزام!.. الحشرات أكبر منا بمراحل .. نحن في حجم البكتريا!».

جاءت أفكارها الهادئة:

-«لا توجد حقائق .. نحن في عالم نصير فيه أقزامًا .. غدًا نكون في عالم نصير فيه عمالقة . (زور) عالمنا يرتحل بين الأكوان والمسافات».

-«هل نحن في المستقبل؟».

-«لا يوجد ماض ولا مستقبل بالنسبة لنا. لا توجد نقطة ثابتة .. غدًا نكون في ماضي عالم .. وبعد غد نكون في مستقبل عالم آخر».

(زور) متغير .. (زور) يرتحل عبر الأبعاد والعوالم. (زور) اليوم في مجرة وغدًا يكون في مجرة أخرى...

كان عليه أن يفهم هذه الحقائق، برغم أنه يعرف جيدًا حقيقته: هو طيار مصري دخلت مقاتلته في دوامة كهربية، وهذه الدوامة نقلته لعالم آخر له قواعد مختلفة. كيف يعود لعالمه الأصلي؟ لا يعرف..

قالت أفكارها له:

-«يومًا ما ستجد العالم الذي جئت منه .. لربما وجدت نفس الزمن كذلك. عندها يمكنك أن تتركنا. أما اليوم فأنت لن تستطيع الحياة وحيدًا في عالم تحكمه البراغيث أو تحكمه البكتريا..».

هكذا بدأ عماد يعتاد الحياة في هذا الحلم. لم يكن حلمًا كريهًا على كل حال. هناك الكثير مما تكتشفه وهناك الكثير مما تتعلمه، وفوق هذا كله هناك السلام.

ولا يعرف كيف ولا متى وجد أنه قد تزوج (كيفياليبانماياسوش). لقد تسلل الحب للقلبين برغم اختلاف العالمين.

قالت لالتيما العظيم:

-«امنحه لي. فأنا أريده زوجًا. أحب أن أعلمه أشياء».

جاء الجميع يحيونه ويقدمون له الشيناتا .. الشيناتا هي هدية العروسين هنا، وشرحها معقد بعض الشيء. وخلال أسبوعين من زمننا تكور بطنها وصارت حاملاً، ثم أنجبت طفلاً جميلاً يشبهها جدًا. اتفقا على أن تسميه (جراموسانتافونمك) .. هو فضل أن يسميه (أشرف) حتى يشعر بألفة. لربما يرى ابنه مرة أخرى يومًا ما....

كان لديه الكثير ليعرفه، لكنه كذلك أدرك مع الوقت أن لديه ما يقدمه لهم.

٢

برغم كل شيء لم يبتلع عماد فكرة أنه صار من مواطني (زور). كان يحمل كل ذكرياته وحنينه للأرض، ويشعر بشوق عارم لزوجته. ترى إلى أي مدى يعتبر زواجك من كائن في بُعد آخر خيانة لمها زوجتك؟

كان بحاجة لـ (كيفياليبانماياسوش) لأنها تقوده في ظلمات ذلك العالم كما فعلت بياتريس مع دانتي في رحلته للعالم الآخر، ثم إن لديه اليوم طفلاً جميلاً. وكانت (كيفياليبانماياسوش) تؤكد له أنه سيأتي يوم يجد نفسه فيها على كوكبه في ذات اللحظة التي فارقه فيها.. لكن هناك مشاكل معقدة .. هل يعود لنفس الزمن؟ هل يحتفظ بنفس الحجم الذي بدأ الرحلة به؟

كان الأمر شبيهًا بجليفر .. لربما وجد نفسه عملاقًا وسط أقزام ويقيدونه بالحبال لرمال الشط، أو يجد نفسه قزمًا ينام في قوقعة ... يحتاج لما هو أكثر من الحظ كي يعود لنفس الحجم بالضبط. وماذا عن نفس الزمن؟ الأمر شبيه بقصص الخيال العلمي.. لربما يجد نفسه في عصر الحروب الصليبية أو عصر غزو المكسيك أو عصر الحرب العالمية الأولى ويختنق بالغاز.. كل شيء وارد.

كانت (كيفياليبانماياسوش) مهتمة بمعرفة كل شيء عن عالم عماد، ووجهت له الكثير من الأسئلة وقد أجاب عن كل سؤال، لكنه لم يظفر بالفهم في كل مرة. كانت هناك أشياء لا تفهمها ولا تتصورها. زور عالم مغلق متكامل لا ترى فيه السماء أو البحر، بالواقع هناك بحر وسماء داخل هذا التكوين العضوي الشبيه بالرحم؛ لهذا لم تتصور (كيفياليبانماياسوش) قط أن هناك من يركب طائرة يعبر بها الأجواء، كما أن أشياء مثل الرعد والبرق بدت لها غريبة تدل على التخلف.

ذات مرة فتحت الطاقة المطلة على الخارج، وسمع عماد في ذهنه جملة تتكرر:

-«العالم رقم ١٨٦٥ – أ»

رأى (كيفياليبانماياسوش) تتجه للطاقة لننطلق منها ثم دعته هو وأشرف – الذي تسميه (جراموسانتافونمك) – كي يتبعاها. في الخارج كان عالم حبيبيي غريب كأن عاصفة رملية هبت هنا منذ وقت وجيز. وفي الخارج رأى كتلاً هلامية عملاقة بحجم الشاحنة تزحف.. ولاحظ أن لها أنوية ضخمة وأن المادة الهلامية رقراقة تتحرك حركة دوامية دائمة. بعض الكتل كان كرات عملاقة وبعضها كان أقرب لمستطيلات ضخمة.

ثم بدأ يفهم. سألها في ذعر:

-«هذه بكتيريا أليس كذلك ؟»

-«نحن قضينا على هذه الكلمة لكني أعرف معناها من الكتب .. هذا صحيح»

-«معنى هذا أننا في حجم الفيروس!»

-«أعرف معنى هذه الكلمة كذلك»

كانت إحدى الكتل تدنو من الطاقة في خطى بطيئة لكنها واثقة، فقالت (كيفياليبانماياسوش) في ذهنه:

-«من الحكمة أن ندخل. هذه الكتل تبدو خطرة»

بالطبع .. من السهل أن تفترس خلية البكتيريا الفيروسات، دعك من أن حجم الفيروس هنا لابد أنه يماثل الطفل الصغير. ترى ما حجم البشر هنا؟ لابد أنهم عمالقة لدرجة عدم استيعابهم، ولربما كان أحد البشر هو الأرض التي يستقر فوقها عالم (زور).. كانت هناك قصة خيال علمي شهيرة لستانسلاف ليم، ينزل فيها رواد الفضاء فوق كوكب عملاق اسمه سولاريس، ثم يكتشفون أن الكوكب كائن حي.

هكذا انغلقت الطاقة من جديد.

كانت في كل يوم تجلسه أمام الشاشات وتعلمه أشياء عن زور، لكنها ظلت تجهل أمورًا كثيرة عن الأرض.. لماذا لا ينشغل أطفال أرضنا بتبادل الجينات البيولوجية؟ يمكنك نقل خبرات كاملة عن طريق نقل الجينات لطفل فيصير مهندسًا أو عالمًا..

قال لها عماد:

-«الأطفال لابد أن يلعبوا ويقضوا وقتهم في الرسم ومحاولة تعلم حروف الكتابة»

لم تفهم ما معنى الرسم، ولم يجد قلمًا أو ورقة يشرح لها فيها معنى الرسم..

قالت له وهي تنظر للشاشة:

-«هذا العالم يدعى ١٩١٧ – ب. أعتقد أنه رحب ودود .. يمكننا أن ننزل ونرى»

انفتحت الكوة .. أنت تعرف أنه لا بد من تصريح من ألتيما العظيم يسمح لك بالخروج، وقد قال ألتيما إنه لا يعرف الكثير عن هذا العالم لكنه لا يمانع، وفي الخارج رأى عماد ما يبدو كأنه صحراء ممتدة..

قال لها في ذهنه:

-«هل تعرفين حجمنا هنا؟»

-«لابد من حيوان أو حشرة نقارن نفسنا بها.. لربما كنا عمالقة في حجم جبل، ولربما كنا في حجم الذرات»

-خرج يمشي فوق الرمال اللينة .. لا بأس .. الهواء نقي والأرض ثابتة ..

وجد صخرة على الأرض، فأمسك بها وركع على ركبته .. بدأ يخط على التربة أشكالاً ..

-«هل هذا هو الرسم ؟»

ابتسم وواصل العمل دون أن يقول شيئًا ..

رسم عنكبوتًا لا بأس به ..ثم رسم نسرًا يفرد جناحيه ... لم تكن رسومًا رائعة لكنها ترمز للشيء بشكل ذكي .. ثم أنه خط خطوطًا تمثل قردًا .. تمثل عقربًا ..

-«هل هذه مخلوقات من عالمك ؟»

-«نعم .. ومن الغريب أنه لا يوجد عالم حيواني عندكم في زور»

هلل الطفل وقد راقت له هذه اللعبة فبحث عن صخرة أخرى وراح يحاول تقليد أبيه في الرسم .. وشعر عماد برضا. لديه مما يعلمه لهؤلاء القوم، فهم مثلاً لم يسمعوا قط عن نشاط اسمه الرسم.

لكن (كيفياليبانماياسوش) كانت محبطة. قالت بلا مبالاة:

-

«ما جدوى هذا النشاط؟ محاولة أن تقلد الواقع. الصور الإشعاعية بيتا جاما تفعل هذا بشكل أفضل»

لم يستطع أن يشرح لها.. هذه أشياء لا تُفسّر.. ما قيمة الفن أصلاً؟.. لا يمكن وصف الأمر في كلمات .. لو شرحت قيمة الرسم أو قيمة النحت أو قيمة الأدب، لما وجدت ما تقوله.

قال لها وهو ينهض من ركوعه:

-«هذا شيء غريزي في الناس .. منذ ملايين السنين كان رجل الكهف يرسم كل شيء على الجدران . كان يحكي بالرسوم قصة حياته كاملة»

-«لأنه لم يملك أشعة بيتا جاما.. أما اليوم فهذا تضييع للوقت»

هذه كانت المكافأة على ما بذله من جهد، وقد شعر بخجل من نفسه مع حنق شديد. تناول كف ابنه أشرف وعاد بلا كلمة واحدة إلى عالم زور.

مرت الأيام... هي تتعلم الكثير عن الأرض، وهو يتعلم الكثير عن زور، ويحاول في الوقت ذاته القيام بمهمة عسيرة؛ هي نقل بعض ثقافة الأرضيين لابنه أشرف. لكن الأمر عسير فعلاً. كيف

تنقل له فكرة الوطن أو فكرة الدين ؟ هؤلاء القوم لا دين لها لكنهم يحترمون ألتيما جدًا.

جاءت اللحظة المثيرة، عندما كان جالسًا أمام الشاشة، فسمع الخاطرة تتردد في ذهنه:

-«نحن الآن في كوكب يبدو شبيهًا جدًا بالعالم الذي جئت منه ..!»

٣

هرع عماد إلى الشاشة ليرى ما يقوله ألتيما العظيم:

- «أزل الظلام يا زور»

فتزول الغيوم على الشاشة ويظهر ألتيما بوجهه المميز الأخضر، ويتكلم:

- «هذا هو العالم ١٩١٧ – ب... للمرة الأولى نقابله»

بدا الرقم مألوفًا بالنسبة لعماد، فتساءل ذهنيًا:

- «أنا متأكد أننا كنا في عالم بهذا الرقم من قبل»

- «زور لا يرتكب أخطاء»

لم يكن عماد من الذين ينسون الأرقام بسهولة، دعك من أن الرقم ١٩١٧ لا يمكن نسيانه.. في العام ١٩١٧ نشبت الثورة البلشفية في روسيا، وهو نفسه عام وعد بلفور المشئوم الذي أدى لابتلائنا بإسرائيل.. لا يمكن نسيان رقم ١٩١٧ أبدًا....

- «زور لا يرتكب أخطاء»

عاد عماد يتساءل:

- «هل هو يشبه العالم الذي جئت منه فعلاً؟»

- «يشبهه جدًا لكنه ليس هو.. يماثله تمامًا ومن الوارد أن تجد أنه يماثل نفس الزمن الذي جئت منه»

- «وما العالم الذي جئت منه أصلاً؟»

- «العالم ١٩١٧ - ج ..»

جاءت (كيفياليبانماياسوش) وقد بدا عليها الحزن، فاحتضنت عماد من الخلف كعادة أهل زور، واعتصرته بقوة وهمست في أذنه:

- «القرار قرارك.. يمكنك أن تتركنا وترحل أو تدخل الممر الأفعواني الذي يقودك للعالم ١٩١٧ – ب»

مها.. مها وأشرف.. بيتي.. سيارتي.. شوارع القاهرة المغبرة المزدحمة.. اللغة العربية.. دور السينما والمولات والمطاعم. السماء فوق رأسك بعيدًا عن هذا العالم العضوي اللين الشبيه بالرحم من الداخل.. لا شك أن الإغراء شديد.

ثمة احتمال قوي جدًا أن تجد نفسك في عالم يشبه عالمك.. يشبه أرضنا.. وهذا معناه أن تجد أناسًا آخرين ولربما تجد زوجتك مها أخرى وابنك أشرف آخر. فهل سيعرفانك؟ وماذا لو قابلت أنت آخر؟

برغم هذا شعر بالحنين يعتصره..

رباه!.. كانت لحظات قاسية وهو يحتضن (كيفياليبانماياسوش) و(جراموسانتافونمك). لحسن الحظ أن هؤلاء القوم لا يبالغون في العواطف وإلا لرأينا مشهدًا هستيريًا...

اقتادته (كيفياليبانماياسوش) إلى ممر عضوي طويل.. ممر ينقبض وينفتح يذكرك بالحالب من الداخل.. الأرضية زلقة ولها رائحة عطرية غريبة.. لم ينظر للخلف ومشى نحو نهاية النفق المظلمة.. لا توحي أبدًا بوجود عالم خارجي. في الظلام الدامس خطا خطوة واحدة متأهبًا لأن يسقط في هاوية بلا قرار...

فجأة شعر بأنه يدخل دوامة رهيبة....

إنه في الطائرة!... الطائرة المصرية التي بدأ بها مغامرته.. والأغرب أنه يلبس كامل ثيابه والخوذة.. برج المراقبة يواصل تحذيره من العاصفة الرعدية!!

استعاد السيطرة على الطائرة التي تنحدر بسرعة جهنمية، ثم دار متجهًا نحو القاعدة الجوية.

كان يفكر في عمق.. هذه هي اللحظة فعلاً.. هذا هو العالم كما تركه بالضبط، لكنه لن يطمئن حتى يرى وجوه رفاقه في القاعدة.. يرى القاعدة نفسها..

عندما هبطت الطائرة أخيرًا والمظلة خلفها، رأى الفنيين يقفون.. وهرع واحد منهم نحو الطائرة لدى توقفها. انفتحت قمرة القيادة فرأى وجوه زكي ونبيل وعلاء.. كلهم هنا...

- «كنا قلقين عليك... العاصفة الرعدية كانت مخيفة!»

هكذا هو أمضى لحظة واحدة بمقاييس أرضنا.. لحظة واحدة لكنها تماثل عدة أشهر في زور.. ألعاب النسبية التي لم يفهمها قط...

المهم هنا أن هذه هي أرضنا فعلاً.. لا تشبهها بل هي. حتى أنه فكر في قلق أن تكون كل هذه المغامرة هلوسة شعر بها نتيجة نقص الأكسجين.

العالم ١٩١٧ – ب... لقد رآه مرتين.. جاء منه وعاد له، ومعنى هذا أن ألتيما العظيم قد أخطأ.. لا شك في هذا.. قد يكون هذا هو العالم ١٩١٧ – أ أو ١٩١٧ – ب أو ١٩١٧ – ج .. المهم أن ألتيما ظن أنهم لم يروا هذا العالم قط....

لم يكن قد اختفى بتاتًا بالنسبة للآخرين، وحتى عندما عاد لداره واحتضن مها وأشرف في نهم كأنه يحشرهما في صدره، لم تفهم زوجته سبب كل هذه العاطفة:

- «تتصرف كأنك كنت في عالم آخر وعدت منه»

لا تعرف كم هي صائبة...

****

في أمسية هادئة جلس يشاهد إحدى القنوات التثقيفية وهو يرشف الشاي بعد العشاء..

وكانت القناة تحكي عن عالم ياباني...

هذا العالم الياباني يدعى ماساتو ساكاي، وقد كون فريق بحث مهمًا لاستكشاف ظاهرة غريبة في بيرو.. جنوبي ليما. الظاهرة موجودة في صحراء نازكا عند جبال الإنديز.

انتقلت الكاميرا لترينا رسومًا عجيبة التقطت من طائرة..

هذه الرسوم العملاقة يصل طول بعضها لـ٢٠٠ متر.. رسمت بلون أبيض على أرض رمادية. بعض الرسوم يمثل قردًا وبعضها يمثل طائر الطنان أو نسر الكوندور الذي اشتهرت به بيرو أو عناكب..

خطوط نازكا.. الأثر الجيولوجي المهم الذي ضمته اليونسكو..

من رسم خطوط نازكا؟ ما القدرة السحرية لدى الإنسان القديم منذ ٢٠٠٠ سنة التي جعلته يرسم على هذه المساحات الشاسعة؟...
هذه رسوم لا يمكن فهمها إلا من طائرة.. فكيف يمكن رسمها؟

قال العالم الياباني إنه من الواضح أن من رسم نازكا رسم نماذج صغيرة ثم قام بتكبيرها بطريقة المربعات.. هذا طقس ديني يطلب الخصوبة للأرض.....

سقط كوب الشاي من يد عماد..

يعرف جيدًا هذه الرسوم... يعرف اليد التي رسمتها.. لكنه لم يكن قد رآها في بيرو من قبل. لم ير هذا الفيلم من قبل.

«وجد صخرة على الأرض، فأمسك بها وركع على ركبته.. بدأ يخط على التربة أشكالاً..

هل هذا هو الرسم؟

ابتسم وواصل العمل دون أن يقول شيئًا..

رسم عنكبوتًا لا بأس به.. ثم رسم نسرًا يفرد جناحيه... لم تكن رسومًا رائعة لكنها ترمز للشيء بشكل ذكي.. ثم أنه خط خطوطًا تمثل قردًا.. تمثل عقربًا..

هلل الطفل وقد راقت له هذه اللعبة فبحث عن صخرة أخرى وراح يحاول تقليد أبيه في الرسم.. وشعر عماد برضا. لديه ما يعلمه لهؤلاء القوم، فهم مثلاً لم يسمعوا قط عن نشاط اسمه الرسم».

إذن هو رحل من العالم ١٩١٧ – ب.... عاد له ذات مرة غير عالم بأنه فيه... ثم عاد له مرة أخيرة.. ثلاث مرات، لكن خطأ ألتيما جعل عمادًا غير قادر على الفهم..

عماد هو من رسم خطوط نازكا... (زور) نقله لكوكب الأرض منذ ٢٠٠٠ عام من تاريخنا هذا، وجعله عملاقًا بحيث صارت نقوش نازكا هائلة الحجم مجرد نقوش بحجر على الأرض..

كان عماد يعرف حدوده جيدًا.. لن يتكلم أبدًا... وإلا فالطريق إلى الفصل من عمله وإلى مستشفى المجانين ممهد. أنا من رسم خطوط نازكا منذ ٢٠٠٠ سنة يا بروفسور ماساتو ساكاي.. كنت في زور وهذا يفسر كل شيء.

جلس لساعات يرمق شاشة التلفزيون التي تعرض برامج وثائقية أخرى.. كان شاردًا...

(كيفياليبانماياسوش) و(جراموسانتافونمك).. هل يراهما ثانية...؟

هل يعود لزور مرة ثانية؟

الإجابة لا طبعًا.. هذه الصدف لا تتكرر.. ثمة احتمال واه أن تكون رحلته لزور كلها هلوسة بسبب نقص الأكسجين لحظة الدوامة الرعدية، لكنه يعرف في قرارة نفسه أن هذا كله قد حدث فعلاً.... لم تكن هلوسة....

أغلق جهاز التلفزيون ونهض لينام.

تمت

ليس لهو أطفال

١

كان حيًا ..

عرف كامل أنه حي وأنه يتحرك.. يمكنه أن يحرك أنامله. وبرغم الوحل الذي يسد خياشيمه وفمه وتلك الرائحة العطنة، فإن بوسعه أن يدرك يقينًا أنه حي.

ثمة احتمال بسيط أن يكون قد مات ولا يدرك هذه الحقيقة، ويكون هذا المكان الكابوسي هو القبر، لكن كل شيء يبدو حقيقيًا ملموسًا . ثمة شيء يميز الواقع بالتأكيد وإلا فلا يوجد شيء اسمه واقع.

راح يشق طريقه وسط الوحل والظلام. محاولة النهوض مستحيلة لأنه لا توجد أرض يرتكز عليها. إنه يزحف في وضع أفقي وينزلق كلما حاول الاعتدال. هذا المكان أقرب إلى مستنقع كريه الرائحة.. كأنه غرق في أنابيب الصرف الصحي مثلاً، ولم يحاول أن يفتش أكثر أو يفهم ما يحدث حوله، لأنه أدرك أن الأشياء الدقيقة التي يخوض فيها هي ديدان .. ديدان موجودة بكثافة غير عادية حتى صارت أقرب لمستحلب.

كان يحاول جاهدًا تذكر كيف ومتى جاء هنا.. لا يستطيع التذكر. كان هنالك في جمصة ينعم بالمصيف.. هناك قناديل بحر كثيرة قرب الشط، لذا قرر أن يتجه إلى أقصى اليمين حيث منطقة نائية لا يرتادها المصطافون وعلى الأرجح لا توجد فيها قناديل بحر.

كان هذا قرب الغروب .. غروب يوم من أيام يوليو.

نزل إلى البحر وراح يستعرض مهارته في السباحة أمام جمهور وهمي، وهي مهارة ضئيلة تشبه سباحة الكلاب كما تعلم .. لكنه كان وحيدًا آمنًا من اللسعات المؤذية للقناديل..

ماذا حدث بعد هذا؟ هو غير قادر على التذكر فعلاً.. فقط كانت هناك قوة كاسحة تقوده لأسفل وكان يقاوم وينثر الماء ويحاول التنفس جاهدًا.

بعد هذا ظلام.

يمكن القول إنه غرق، وهذا يعني أنه الآن في العالم الآخر يواجه عذاب القبر أو ما هو أسوأ. لكن كل شيء كان يخبره إنه ما زال حيًا .. يجب أن يفهم ..

****

سامح كان منبهرًا بالمشهد بينما القارب يشق طريقه في المياه ..

طريق أبيض رغوي يتم شقه خلف القارب.. لكنه طريق قصير العمر فعلاً، فلا يلبث حتى تندمل الأمواج ثانية ويختفي الطريق بينما يتعالى صوت هدير المحرك.

ديفيد يقف عند الدفة، وقد عقد القميص حول خصره على اللحم، وهو حافي القدمين .. خيل لسامح أن هذا الفتى لا يلبس حذاء أبدًا.

كان أبو سامح يقف هناك متمسكًا بحاجز القارب وهو متوتر مذعور.. التشاؤم صفة دائمة في كبار السن عامة. بالتأكيد كان يتمنى أن ينتهي هذا العرض الساحر.

قال ديفيد وهو يحمل الدلو ويتجه لحافة القارب:

-«هذا هو السمك المتعفن .. راقب ما سيحدث..»

وقلب الدلو بما فيه من مادة عفنة في الماء، ثم راح ينقط بقايا الدم بدورها. هنا بدأ الماء يفور .. للحظة لم يصدق سامح ما يراه، لكنه رأى شيئًا يشبه الديناصور يخرج من الماء ويتقلب .. ثم ظهر شيء آخر وبدا كأنهما ديناصوران يتصارعان على التهام السمك.

قال ديفيد في مرح:

-«الطول لا يقل عن سبعة أمتار .. هذا طول مخيف.. »

كان ديفيد يتكلم بطريقة التطجين الأسترالية المعروفة، وحتى اسمه كان ينطقه (ضايفيض) ويقول على الثعبان snake (صنايك).. لكن سامحًا كان قد اعتاد اللهجة الأسترالية وأحبها فعلاً.

-«الإناث أصغر بشكل واضح من الذكور .. وهذا التمساح يعيش في المياه المالحة طبعًا، لكنه كذلك قادر على أن يعيش في المستنقعات»

منذ سمع سامح عن تمساح المياه المالحة وهو مندهش.. ارتباط التماسيح بالمياه العذبة والأنهار قوي جدًا، لكن حقيقة وجود مزارع شاسعة من التماسيح في منطقة البحيرات هي حقيقة غريبة.

قال الأب وهو يرتجف لرؤية المشهد البشع:

-«لماذا يربي شخص عاقل هذه الوحوش؟»

قل ديفيد ضاحكًا:

-«هذه ثروة .. الجلود ثروة واللحم ثروة .. إن التمساح كنز للتصدير، وهذه المزرعة تكفي لجعلي أنا وأبي ثريين ..»

ثم أردف:

-«على كل حال أنا ولدت في هذه البيئة .. لم أعرف لنفسي عملاً في حياتي سوى تربية التماسيح وصيدها وذبحها وسلخها .. لا أجيد أي عمل آخر»

عامة أخبرهما ديفيد أن تمساح المياه المالحة يتمركز في أستراليا وجنوب شرقي آسيا، وهو من أشرس الزواحف وأخطرها، كما أنه من هواة أكل البشر بامتياز ..

-«لابد من فقد عامل أو عاملين كل عام في هذه المزارع»

-«هل يخطف الناس من تحت الماء؟»

-«أحيانًا يقلب القوارب، لكن التمساح يحتاج لأن يظل رأسه فوق الماء فهو لا يقدر على التنفس تحته.. لهذا يغطس كله ما عدا قمة الرأس.. وفي الليل يمكنك لو سلطت الكشاف على الماء أن ترى العيون اللامعة المخيفة. لديه طبقة عاكسة في شبكية العين».

أخيرًا يدير ديفيد دفة القارب نحو الشط ...

كان أبو سامح طبيبًا هاجر لأستراليا منذ زمن، وقد استطاع أن يرتب حياته هناك.. وقد ظفر بصديق مخلص هو كاثريل وابنه

ديفيد، وهما يملكان عدة مزارع تماسيح في شمال البلاد. لم يكن مولعًا بالموضوع، لكنه عرف أنه سيروق لابنه المراهق ذي الاثني عشر عامًا سامح.

هكذا كان هذا اليوم الممتع للابن المزعج للاب، الذي لم يحب الر

حلة البحرية ولا التماسيح ولا البحيرات المالحة ولا أي شيء على الإطلاق. لم يستطع أن يبعد عن ذهنه احتمال أن ينقلب القارب أو يسقط أحد ركابه في الماء.. ما فرصته في النجاة ؟

حسب ما قاله ديفيد عن تمساح المياه المالحة، ففرصة النجاة صفر ..

عندما ترجلوا على الشط قال ديفيد إنه يريد دعوة الأب إلى قدح من الشاي مع الحلوى، واتجه الرجلان إلى حيث مظلة يعنى بها أحد العمال .

وقف سامح على الشط وطاقة الأدرينالين لديه ما زالت عالية. كان آخر شيء يرغب فيه هو الجلوس وشرب الشاي، هكذا راح يركض هنا وهناك ويركل الرمال ..

هتف الأب:

-«لحظة يا سامح .. هذه المنطقة خطرة . التماسيح تتجه للشط بالتأكيد»

قال ديفيد ضاحكًا:

-«نحن نضع سورًا من السلك الشائك حول البحيرة لمنع التماسيح من ارتياد هذه البقعة .. لديهم الجزء الغربي من البحيرة .. يمكنك أن تطمئن»

مشى سامح وحيدًا وهو ينظر للأرض. يلتقط من وقت لآخر حجرًا غريب الشكل فيدسه في الحقيبة المعلقة في كتفه ..

فجأة توقف .. هذه المجموعة من البيض .. بيض أصغر نوعًا من بيض الدجاج، وله قشرة جلدية مرنة .. أي بيض هذا ؟

كان أول خاطر جاب ذهنه هو أن هذا بيض تماسيح. قال ديفيد إن التمساح يضع نحو ٦٠ بيضة، وهي ملكية مشتركة لكل الإناث .. أي أن الأم التي تجد البيض ترعاه حتى لو لم يكن بيضها.

الرئيس الأمريكي روزفلت أمر ذات مرة بإعداد عجة له من ٩٠ بيضة تمساح، وقد أكلها وقال إنها لذيذة الطعم !

سامح راكع على ركبته يرمق البيض ويفكر ..

لماذا لم يشعر بالأنثى القادمة في بطء من خلفه ؟

٢

الصوت الذي سمعه خلفه لم يكن مألوفًا .. لم يكن كفحيح الأفاعي لو خطر لك هذا، لكنه صوت ميكانيكي رتيب غريب. لهذا يتخيل من يمر بنهر الأمازون أنه يسمع قاربًا بخاريًا يقترب. هناك صوت آخر للتماسيح شبيه بصوت طبل مكتوم، ويعرفه من تعاملوا مع التماسيح جيدًا ..

سامح لا يدرك أن هناك أنثى تمساح مياه مالحة عملاقة تدنو منه ..

سامح لا يدرك أن عاطفة الأمومة والحماية قوية عند هذه الوحوش..

كانت تتقدم نحوه في بطء وهي تصدر ذلك الصوت ..

تراجع للخلف مذعورًا فتعثر في الرمال وسقط أرضًا .. لأول مرة يدرك التشابه القوي بين هذا الوحش والديناصورات كما تبدو في الرسوم ..

أدرك أنه لن يجد الوقت الكافي لينهض قبل أن

....

هنا كان التمساح يتراجع للخلف. عندما رفع سامح عينيه أدرك أن أحد العمال في المزرعة يجذبه من ذيله بقوة، ولم يكن الأمر سهلاً لأن ذيل التمساح الزاخر بالعضلات قادر على قتل رجل، لكن العامل نجح في إبعاده بضع خطوات، ثم صاح في الفتى أن ابتعد مسرعًا ..

نهض سامح الذي لم يحتج لأمر آخر وأطلق ساقيه للريح. عندما نظر للخلف رأى أن الرجل يجر التمساح جرًا نحو البحر، وعندما ارتطمت الأمواج بالزاحف البشع بدا كأنه نسي المشاجرة الرهيبة التي كان يشتهيها وفضّل السباحة.

على مائدة الغداء كان هناك طبق من لحم التماسيح، وبالطبع لم يجسر الأب على لمسه، لكن سامحًا تذوق قطعة، وبدا له شبيهًا بطعم أفخاذ الدجاج نوعًا .. لم يكن شبيهًا بلحم السمك كما تخيل سابقًا ..

قال ديفيد وهو يصب لنفسه بعض الحساء:

-«قال لي توماس إن أنثى تمساح تعرضت لك على الشط .. خذ الحذر .. من النادر أن يهاجم التمساح الناس على البر، لكن الأمر يختلف إذا تعلق بتهديد يتعرض له الصغار..»

ضحك سامح ولم يعلق ..

قال ديفيد:

-ـ«ليس من المعتاد أن تمشي التماسيح كل هذه المسافة لتضع بيضها .. قلت لك إننا نسمح لها بالتجوال في الجانب الغربي فقط»

واصل الكبار الأكل والكلام، بينما خطر لسامح أنه يريد السير قليلاً على الشط ..الحق إنه كان مفتونًا بالبيض الذي وجده وسط الرمال، والذي كاد يكلفه حياته.

من جديد مشى فوق الرمال يفتش عن البقعة التي وجدها ..

لا توجد تماسيح قريبة. ممتاز .. لو ظهرت الأم من لامكان هذه المرة فهي كائن شيطاني فوق الطبيعة ..

أخيرًا دنا من مجموعة البيض .. هنا أصابته الدهشة ..

لقد كان بعض البيض يتحرك ويهتز .. ثم رأى بيضة تتمزق قشرتها اللدنة، ورأى خطمًا صغيرًا يبرز من الداخل وهو يحاول التحرر.. هذا تمساح يولد في هذه اللحظة المباركة ..

جثا سامح على الرمال مفتونًا بالمنظر .. هناك تماسيح صغيرة أخرى توشك على التحرر .. مد يده والتقط بيضة من البيض السليم وفتح حقيبته ودسها فيها .. ثم عاد يراقب هذه الأعجوبة.

أخيرًا خرج التمساح الصغير من البيضة .. كان في حجم السحلية الصغيرة، ويحتفظ بنفس درجة قبح وبشاعة البالغين. كل الكائنات الطفلة جميلة لكن يبدو أن التمساح استثناء.

عندما مد سامح يده نحو الكائن فوجئ بأنه وثب في الهواء محاولاً قضم إصبعه!

هذا مذهل!.. إنه يحتفظ بشراسته كاملة منذ لحظة الولادة.

لا أحد يقدر على أن يمسك بهذا الوحش الصغير الوليد بين يديه .. إنه سيقضم يدك فورًا ...

قرر سامح أنه رأى ما يكفي .. هكذا انطلق جريًا عائدًا نحو أبيه وديفيد. يمكنه تخيل التماسيح الصغيرة وهي تتخبط إلى أن تأتي أم من الأمهات الجوالات على الشط لتعنى بها. على الأرجح ستقودها نحو البحر ..

المغامرة الصغيرة التي بقيت له كانت أن يحمل البيضة معه سرًا إلى داره عندما عاد أبوه، بعد يوم ممتع مرهق في مستعمرة التماسيح. كان هناك في البيت حوض أسماك زينة فارغ لم يبق فيه سوى بعض الحصى، وقد صب فيه بعض الماء ثم نقله لغرفته وهناك وضع البيضة على القاع وطفق يراقبها.

المعجزة لم تتأخر أكثر من يوم واحد ..

عند ظهيرة اليوم التالي رأى المنقار الصغير يهشم القشرة، وخلال ربع ساعة تحرر كائن فاتن صغير بحجم السحلية. كان لحوض السمك غطاء قابل للغلق .. لذا وضعه بإحكام وراح يراقب التمساح الوليد الذي يضرب الجدران الزجاجية..

-«سوف أطلق عليه اسم (سولتي) نسبة للمياه المالحة التي جاء منها».

ولنفس السبب ملأ قبضته بالملح وسكب بعضه في الماء ليجعل البيئة مألوفة بالنسبة للتمساح. ثم أنه بحث في الثلاجة حتى وجد بعض علب التونة. فتح واحدة واقتطع منها بعض اللحم المفتت بملعقة. وفتح الحوض من أعلى. هنا وثب التمساح برشاقة مذهلة محاولاً قضم أنامله. وجد بالكاد الوقت الكافي ليسقط قطعة اللحم ويعيد غلق الغطاء ..

-«هذا الحوض يحوي قنبلة موقوتة».

قالها لنفسه، وإن اعترف أنه كائن فاتن .. فاتن إلى أقصى حد ...

****

كامل يواجه لحظات سوداء.

لم يكن ما يخوض فيه مجرد وحل وديدان .. لقد انزلق عدة مرات، وفجأة أدرك أنه يتحسس جثة .. هذا حق .. جثة بشرية متحللة تس

بح هناك وسط الوحل.

أصابه الفزع الهستيري الذي يصيب من يتحسس جثة، كأن الموت مرض معد ينتقل باللمس. تراجع للخلف وشهق .. يريد بعض النور .. يريد أن يعرف أين هو بالضبط ..

على العموم يدرك من الوحل الذي لامس شفتيه أن هذا ماء عذب .. ليس في البحر. كان يعرف أن هناك مصرفًا يلتقي بالبحر في النقطة التي كان يسبح فيها. ذات مرة رأى جثة حمار طافية كريهة الرائحة تتجه عبر مياه المصرف والوحل لتصب في البحر ..

يمكنه أن يخمن أنه في هذا المكان .. لكنه ليس على السطح .. الأمر أقرب إلى كهف مظلم تحت مستوى المياه، وهذا الكهف يسمح بدخول الهواء من مكان ما ...

كهف مليء بالجثث المتحللة؟

عليه أن يتحرر وأن يجد مصدرًا للنور..

كان يشق طريقه بصعوبة بحركات أقرب للسباحة .. سباحة في الوحل.. وأدرك أن الجثة التي شعر بها لم تكن الوحيدة. كما أن هناك جثة حيوان متحلل لم يتبين طبيعته.

يرى نجوم السماء ..

إنه يتحرر ولا شك في هذا ..

لكن يبقى السؤال: ماذا أتى بي هنا؟ أين أنا بالضبط؟

٣

يذكر كامل جلسته في مكتب مدير الأمن محاطًا بمجموعة من الرتب والكاسكيتات ولفائف التبغ والبدلات البيضاء وعلامات الخطورة ..

هل تفضل الشاي أم القهوة يا دكتور؟ القهوة؟ إذن هي القهوة يا علاء ..

كامل يشعر بحيرة، فمن غير المعتاد أن يستعين رجال الشرطة بخبرات خبير أحياء مائية مثله، وقد أدهشه أن يأتي له ضابطان

في مقر عمله في معهد علوم البحار يطلبان رأيه في مهمة استشارية ..

جلس متوجسًا ينتظر ما سيقال له. بعد وقت طال وأوراق توقع ودعابات، قال الضابط الكبير:

-«نحن موقنون من وجود سمكة قرش تعبث حول شواطئنا ..»

حك كامل ذقنه:

-«ولماذا لم تطلبوا رأي خفر السواحل؟».

-«لأنهم يصرون على أننا نهذي ..»

ثم أخرج بعض الصور الفوتوغرافية من ملف أمامه، وقدمها لكامل ..

استطاع كامل أن يرى في الصور أطرافًا آدمية مبتورة ملوثة بالوحل .. هناك ساعدان وساق .. لا توجد رؤوس.

رفع رأسه متسائلاً طالبًا القصة، فقال اللواء:

-«هناك ثلاثة أشخاص قد اختفوا عند شط جمصة .. الاختفاء تم على مدى شهر ..».

-«هل يجيدون السباحة؟».

-«على قدر علمي لا أحد يجيد السباحة .. الكل يجيد المشي على القاع .. لكن الموج ليس بهذا الارتفاع .. دعك من أن الموج لا يلقي بأطراف مبتورة على الشط».

كان التفسير الوحيد الممكن هو وجود سمكة قرش اختارت سواحلنا لتمرح هناك .. وهي سمكة لم يستطع خفر السواحل أن يجدوها أو يظهر شهود على رؤيتها..

-«نحن في مأزق .. نحن في انتظار اختفاء الشخص الرابع والعثور على جزء من جثته .. نحتاج إلى كل خبرة علمية ممكنة».

قال أحد الضباط بعد ما ظل صامتًا طيلة المحاورة:

-«هناك حل أن نغلق الشاطئ، لكن هذا يمثل كارثة اقتصادية لا نتحملها»

كانت هذه هي العقدة الدائمة .. عقدة فيلم الفك المفترس حيث تتصارع المصلحة الاقتصادية مع مصلحة الناس.. الكساد أم خطر

سمكة قد توجد أو لا توجد .. هنا يفضل الناس أن يقامروا، فالسمكة لا تلتهم شخصًا كل يوم ..

لكن الأمر يختلف هذه المرة: لا توجد سمكة على وجه اليقين .. هناك شيء يقتل، ولعل التدقيق في الأشلاء يشي بأنها مزقت بسكين سفاح .. لا أعني هذا طبعًا لكني أضرب لك مثالاً توضيحيًا.

قال كامل وهو يرسم بعض الخطوط على ورقة:

-«أقترح إذن أن نقوم ببعض الورديات لمسح الشط. سنضع شبكة محكمة من المراقبة على الشط كله حتى إذا جاء الحادث التالي عرفنا بالضبط حقيقة ما نواجهه».

قال اللواء في لهجة حسم:

-«أنت تملك سلطة كاملة .. ضع خطة وسوف تنفذ كما تريدها .. لا أريد أن أجد الجثة الرابعة عما قريب».

****

تحولت حياة سامح إلى طقوس خفية لا يعرف أحد كنهها. كان يخفي التمساح الصغير في حجرته ويتسلل ليطعمه أو يجلس الساعات يراقبه ..

ولا يعرف متى ولا كيف ولد الاسم، لكنه صحا ذات يوم ليعرف أن التمساح اسمه سولتي. بماذا تسمي تمساح مياه مالحة سوى باسم سولتي؟ وكان يمضي وقتًا طويلاً معه. من حسن الحظ أن الأب كان مشغولاً فلم يكن يدخل حجرته، أما الأم فهي لا تعرف .. لأن المياه عكرة وقاع الحوض موحل ومغطى بالحصى .. يسهل أن تخبئ تنينًا فيه، وعلى كل حال لم يكن طول سولتي قد تجاوز طول سحلية .. هكذا كانت تفترض أن الحوض خالٍ وإن كان ماؤه قذرًا.

جاء اليوم الذي أعلن فيه الأب أنهم ذاهبون إلى مصر. لديه أعمال عديدة في بلدته المنصورة وزيارات لبعض أقاربه.. أمه مريضة جدًا ولعل هذه الزيارة الأخيرة لها .. ستكون إجازة قصيرة لكنها ممتعة وقد تأخرت كثيرًا ..

كان سامح يفكر في توتر ..

ليس هناك من يعنى بالتمساح. هناك من يطعم حيوانات الناس في بيوتهم، لكنه لا يستطيع الاتفاق مع أحدهم لأن هذا يفضح القصة كلها ..

هناك حل آخر هو التخلص من التمساح في المجاري أو بالوعة الحمام، لكنه لا يجسر على القيام بذلك ..

هكذا ولد الحل التآمري. خطة خيالية فعلاً لكنها بدت له معقولة. سوف يأخذ سولتي معه إلى مصر. إنه صديقه ولن يتخلى عنه..

بالطبع ليس واردًا أن يتم الأمر بشكل قانوني أو تطبق قوانين حجر الحيوانات.. ليس من الوارد أن يقبل أبوه دخول هذه الدائرة الشيطانية من أجل سحلية ذات أنياب.

في مصر سوف يختار بين أن يعود بالتمساح لأستراليا ثانية، أو يتركه في النيل للأبد، وعلى الأرجح سيتعلم التمساح الحياة في المياه العذبة. التماسيح الأفريقية ذات الأنياب البارزة من الفم المغلق سوف تتعلم سريعًا أن تحب التمساح ذا الأسنان المختفية. لا عنصرية في عوالم التماسيح.

كانت الأم تعد الحقائب، ووسط ثيابه وضع سامح أسطوانة بلاستيكية كبيرة واسعة العنق استطاع بصعوبة بالغة أن يضع فيها التمساح الصغير مع بعض الماء ومحتوى علبة سردين. فليكن ما يكون .. ستكون معجزة لو ظل لدى التمساح أكسجين يكفي الرحلة الشاقة الطويلة إلى مصر، لكن لنترك الحظ يلعب دوره ..

يمكن القول إن الخطة نجحت ..

عندما انفرد بنفسه في بيت أقاربه في مصر، وبعد الكثير من التحيات والقبلات استطاع أن يصير في غرفته، ويفتح الأسطوانة

بحذر مستعدًا للتخلص من الجثة. لكنه فوجئ بأن الوحش الصغير ما زال حيًا يتحرك في وهن. ولعله كان في لحظاته الأخيرة ..

أخيرًا عاد الهواء لرئتي الوحش، وما لم يعرفه سامح هو أن التمساح يقدر على الحياة مع هامش أكسجين ضئيل جدًا .. ثم أن عمره طويل جدًا ..

أدرك مع الوقت أن مهمته تزداد صعوبة .. لن يستطيع إخفاء هذا السر للأبد ..

يمكنه إبقاء الوحش داخل الأسطوانة البلاستيكية بعد عمل ثقوب في الغطاء، ويمكنه أن يطعمه .. لكن هذا الوضع مستحيل مع الوقت خاصة في بيت أقاربه، وعلى الأرجح لن يستطيع أبدًا أن يوفر حوضًا زجاجيًا كالذي كان في أستراليا ..

لقد صار التمساح همًا..

خطر له أن يتخلص منه في المرحاض، وهو يعرف أن التماسيح تظل حية وتعيش في المجاري.. لكنه لا يجرؤ على عمل ذلك ..

جاء الحل بعد ثلاثة أيام عندما دخل الخال المتحمس الذي يتصبب عرقًا، وهتف ملوحًا بيديه:

-«لا يمكن أن نكون في المنصورة ولا نمضي يومًا في جمصة ويومًا في رأس البر .. إن لذة المصيف لا تقارن بشيء».

بدا الأب متحمسًا وكذلك الأم، أما سامح فقد خطر له أن هذه هي فرصته .. شاطئ كبير يمكن التخلص فيه من ربع ديناصورات العالم فلا يظهر لها أثر.

يبدو أنه سينجح في الخلاص من اللعنة التي جاء يحملها من أستراليا.

٤

كامل يخوض الأوحال وأخيرًا يرى النجوم ويرى الشط .. مشى مترنحًا وبصعوبة بالغة إلى أن شعر بقدميه على الرمال. منحه هذا الكثير من الاطمئنان. يمكن للمرء أن يواجه الكثير من الأمور ما دامت قدماه على أرض ثابتة. فيما بعد سيحاول فهم هذا الذي حدث له وأين كان ..

ثمة جزء معين قد محي من ذاكرته، وهو غير قادر البتة على استرجاعه، لكنه على الأقل قد تحرر. وهناك في ضوء القمر راح ينظر إلى البحر المظلم حيث الموج المتلاطم يصل لعنان السماء. هل هو يتخيل أم إنه يرى جذع شجرة عملاقًا يتحرك في الظلام من بعيد. هل هو يهذي؟

-«قف مكانك!».

كان هذا الصوت قادمًا من وراء الكشاف القوي المسلط على عينيه. لا يرى شيئًا لكنه يسمع الصوت الحازم .. وأخيرًا يتبين جنديين مسلحين يصوبان السلاح نحوه لكنه لا يرى الوجهين..

-«ماذا تفعل هنا؟»

الحق أنه لا يدري ما يفعله هنا. لكنه على كل حال يعرف الشكوك التي ينثرها من حوله كل من يمشي على الشط ليلاً. إن احتمال كونه مهربًا ليس أقل الاحتمالات ..

ثم تذكر كذلك أنه المسئول عن هذه الدوريات الليلية. كان هذا جزءًا من خطته ..

****

عندما رأى الأب الأسطوانة البلاستيكية وما فيها، أصابه الهلع .. لم يتصور أن يتمادى سامح إلى هذا الحد ..

-«وجئت به من أستراليا إلى هنا؟».

لم يرد سامح .. كان مضطرًا للصمت لأنه يريد أن يساعده أبوه، لذا تلقى اللوم بكثير من الذل .. كانت هذه فرصته الوحيدة لأنه لا يرغب في أن يقتل التمساح الصغير ..

قال الأب للخال:

-«سوف أقوم بجولة على الشط مع سامح».

-«سوف آتي معك».

كان الأب مستعدًا للقتال والقتل كي لا يتبعه أحد، لذا تملص من الخال بكثير من الفظاظة.

وعندما دنا المساء وغربت الشمس، مشى الأب وسامح على الشط متجهين نحو الشرق ..

لم يكن هناك أحد، وقد بدا أن الظلام يحجب الرؤية فعلاً..

هناك قرب الشط عند مصرف الماء العذب مد يده وبحذر فتح الأسطوانة البلاستيكية، ثم وضعها في الماء .. ونظر إلى الشيء البشع الذي ينسل خارجًا.

في تأثر هتف سامح:

-«وداعًا يا سولتي!».

-«بل قل في ستين داهية ..»

وقف الاثنان يراقبان الشيء وهو يسبح في الماء ويختفي، ثم تأبط الأب كتف ابنه عائدين .. كان يحكي له عن طفولته وكيف كان طفلاً قليل الأدب، من ثم دفع ثمنًا فادحًا فيما بعد ...

هكذا انتهى دور سامح في القصة .. لقد قضى بضعة أيام في جمصة ثم عاد مع أبيه والأسرة إلى المنصورة، وبعد عدة أيام انتهت إجازة الأب وعادت الأسرة إلى أستراليا ...

لقد بذر البذرة اللعينة ولم يعرف أنه بذرها.. ليست هذه الطريقة المثلى للهو الأطفال، ولكننا لا نعفي الأب من المسئولية .. بل هو صاحب الفكرة المقيتة بالتخلص من التمساح الطفل. الحقيقة أن كثيرين في الولايات المتحدة يرتكبون هذا الخطأ لهذا تحولت شبكة المجاري هناك إلى بيت زواحف يثير إعجاب أي عالم حيوان ..

سامح قد قام بدوره في القصة ولا أعتقد أننا سنسمع عنه ثانية ..

****

مر عام أو أقل قليلاً..

عندما جاء الصيف وكثر المصطافون، بدأت بعض الظواهر الغريبة. على الأرجح كانت هذه الحوادث تقع قرب المساء ..

ينزل خمسة أشخاص إلى البحر وسط الموج المتلاطم.. يتبادلون الصياح والضحكات ولا يبتعدون عن الشط كثيرًا على كل حال، ثم تهدأ الأمواج فيكتشفون أنهم أربعة فقط ..

في الحادث الأول افترض الجميع أن المختفي قد غرق. أما في الحادث الثاني فقد اختفت الفتاة .. لكنهم وجدوا جزءًا من ساقها ألقى به الموج على الشط بعد يومين ..

الاختفاء الثالث ترك بقايا عديدة، وقد أثبت الحمض النووي أن الأطراف لنفس الشخص: المهندس القادم من المنيا ليتمزق على شط جمصة ..

قضى كامل في المشرحة وقتًا لا بأس به يتفحص الجثث، وكان ما أثار دهشته وجود سن صغيرة مغروسة في لحم ساق الفتاة .. سن مدببة هشة ..

قال الطبيب الشرعي، وهو رجل أصلع قصير القامة يرمقك من فوق إطار نظارته في فضول:

-«هذا يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن هناك سمكة قرش».

تفحص كامل السن بين أنامله

وقال في شك:

-«لتقطع ذراعي إن كانت هذه سن سمكة قرش ..».

في تهكم أصلح الطبيب من وضع عويناته ثم تساءل:

-«سن أسد هي إذن؟».

-«هي قريبة جدًا من سن التمساح ..!»

-«تمساح في البحر المتوسط في جمجمة .. أنت تفوقت على نفسك .. هذه هي العبقرية الحقة».

اضطر كامل للصمت، فهو لا يملك خبرة بالتماسيح، ولم ير سن تمساح إلا في متحف التاريخ الطبيعي .. قال لنفسه إنه غالبًا محق لكنه لا يقدر على إثبات حرف من كلامه ....

****

هكذا قام كامل بتكوين فرق بحث .. فرق تمشط الشط جيئة وذهابًا عندما تدنو الشمس من الغروب ..

كانوا ينظرون له في بلاهة .. هو كان ينظر لنفسه في بلاهة .. لا يتوقع أن يحدث شيء خاص، فهذه الحوادث نادرة .. يشبه الأمر أن تراقب أرن

بًا متوقعًا أن تهبط حدأة من السماء لتختطفه وتمزقه ..

مر أسبوع كامل على هذه المراقبة، ولم يحدث شيء ...

إلا أنه كوفئ على صبره في النهاية بطريقة غريبة نوعًا ..

هذا هو الجزء الذي لم يعد يذكره، وقد أنسته إياه الصدمة. كان يمشي على الشط ليلاً وخطر له أن يضيء الكشاف ليتفقد قناديل البحر الميتة الملقاة على الشط .. وقد غمر قدميه في الماء.

لا أحد سواه على الشط الممتد المظلم. يمكن أن يحدث أي شيء ....

فجأة ارتفع شيء عملاق من الماء وشعر بشيء جبار يطبق على ساقيه .. سقط في الماء، فأدرك أن هذا الشيء يحاول أن يبقيه تحت الماء. لا شك في أنه قدير على ذلك بقوته المرعبة ..

تمساح!... قالها لنفسه وهو لا يصدق .. لقد كانت تنبؤاته صحيحة، لكنه على الأرجح لن يعيش ليعلن أنه عبقري ..

قوة الكائن والفكين مريعة لا يمكن تخيلها. سوف أفقد وعيي حالاً ... سوف أختنق ..

تبًا لكم .. فلينقذني أحدكم قبل فوات الأوان!!!

٥

ما لا يعرفه كامل هو أن التمساح يملك أسنانًا هشة تتبدل بلا توقف وينمو سواها، وهي تتراص على عدة صفوف في فكيه. برغم قوة الفكين الهائلة فإن الأسنان لا تسمح له بالأكل بشكل مريح، لذا يفضل غالبًا أن يدفن فريسته في الطين لفترة إلى أن تتحلل، وتصير لينة قابلة للمضغ.

كان هذا هو المصير الذي آل له كامل عندما حمله التمساح بين فكيه نحو الطين المتراكم على ضفتي المصرف. لقد اصطنع لنفسه بعض الفتحات والكهوف يدفن فيها ضحاياه.

عندما أفاق كامل من فقدان الوعي، كان يتنفس لأنه كان في جيب هوائي تحت الوحل كما أنه لم يكن مغمورًا بالكامل. لم يعرف أنه كان موضوعًا في برميل التخليل الخاص بالتمساح بانتظار أن يلين لحمه فالالتهام.

نحن نعرف كذلك أنه استطاع بصعوبة أن يحرر نفسه من الوحل ويصل إلى الشط حيث استوقفه رجلا شرطة.

كانت الذكرى قد محيت من ذهنه، واصطنع ذاكرة زائفة.. تخيل أنه كان يتصرف كأي مصطاف .. كان يسبح حيث لا توجد قناديل بحر، وأنه كان يجرب مهارته في السباحة وحيدًا.. ثم حدث شيء ما .. ما هو؟ لا يذكر.

على أنه عندما وصل كامل إلى الضابط الذي يدير دوريات الأمن، كان قد تذكر كل شيء.

لقد زالت الصدمة، وبدأ يسترجع شكل ذلك الذي هاجمه.

كان تمساحًا ولا شك في هذا. تمساحًا عملاقًا انقض عليه في المياه الضحلة، أما الكلام عن تمساح يسبح في مياه بحرية فأمر يحتاج إلى تفسير.

كان كامل في حال سيئة .. ملوثًا بالوحل بالكامل وقد تمزق لحم ساقيه والتوى كاحله .. كما أنه كان في خطر الإصابة بالتهاب رئوي من فرط ما دخل رئتيه من ماء آسن.

هكذا كان عليهم أن ينقلوه إلى المستشفى حيث قضى ليلة كاملة.

في الصباح كان أول وجه يراه هو وجه مدير الأمن شخصيًا.. كانت كلمات كامل مقتضبة:

-«هذا تمساح فعلاً !!»

-«تمساح ؟»

-«ويدفن ضحاياه في الوحل ثم يعود لالتهامهم.. كان هذا موعدي أمس لكن لم أنتظر عودته لأنني غير مهذب»

فكر اللواء قليلاً وحك ذقنه ثم تساءل:

-«كما فهمت، أنت هوجمت في مياه مالحة .. لو افترضنا جدلاً أن هناك تمساحًا نيليًا جاء من بحيرة ناصر، فهو لن يسافر كل هذه المسافة من الجنوب إلى البحر المتوسط ولن يسبح في مياه مالحة ... »

-«هناك تماسيح مياه مالحة في العالم .. لكني لا أملك أدنى فكرة عن الطريقة التي جاء بها»

بالطبع كانت عينا الضابط الكبير مفعمتين بالشك .. القصة تحتاج إلى ما هو أكثر من الصودا لابتلاعها .. لكن تبقى حقيقة واحدة هي أن هذا الرجل في الفراش يبدو كلعبة كان يلهو بها طفل مخبول.

تفتيش منطقة الوحل التي تحدث عنها كامل كانت أشبه بفقرة في فيلم رعب .. لقد ظهرت بقايا المختفين جميعًا.. مهما افترست الشخص فإن بعض أنسجته تبقى ويمكن تمييزها بالحمض النووي.

هكذا عقد اجتماع متجهم طويل، وتم الاتفاق على إخلاء الشط بالذات في منطقة الحوادث السابقة، وعمل بعض الأكمنة مع استخدام طعوم تجذب التمساح.

****

للمرة الثانية يجول كامل وحده. وللمرة الثانية يكون هو المحظوظ الذي يقابل التمساح.

كان الليل قد دنا.. وكان هو يمشي شارد الذهن تقريبًا في ذات البقعة التي سبق أن تم اختطافه فيها منذ برهة. كانت المنطقة خالية من الناس أصلاً ثم إن حظر السباحة في هذه الأماكن كان شديدًا في الفترة الأخيرة، لهذا كان وحده تقريبًا.

كان الضوء خافتًا لكنه استطاع أن يميز الحدود الخارجية لرجل .. رجل يرقد هناك على الرمال على ظهره، ومن الواضح أن معه لوازم الشاي ونارجيلة صغيرة، ويبدو أنه كان ينعم بالرقاد بعد رحيل الشمس وبعد ما بردت الطبيعة قليلاً. على الأرجح هو واحد من الخفراء الذين انتشروا في المكان مؤخرًا.. الأحمق يعتقد أن الحارس لا يُهاجَم أبدًا.

أما هذا الظل المتحرك الزاحف على الرمال فهو شيء يريد أن يقبض على هذا النائم.

عندما تقترب أكثر تجد أن هذا شيء له طول تمساح .. له معالم تمساح .. له زحف تمساح .. يزحف في الغبشة نحو اللحم النائم ... إنه ببساطة تمساح عملاق قد خرج من الماء وظفر – أو كاد – بغنيمة ساذجة غافية..

الفك يُفتح ليقضم الرجل النائم أو يجره للماء ..

كان كامل يعرف معلومات شحيحة عن التماسيح.. خبراء الأحياء المائية ليسوا علماء زواحف لو لاحظت هذا، لكنه على الأقل يعرف ما يكفي ليتصرف..

ركض نحو الشيء الزاحف البشع .. رأى الرأس العملاق الذي يدنو من الحارس. ارتمى على الفك المغلق واحتضنه بذراعيه بأقصى طاقة لديه، ثم صرخ .. صرخ حتى يستيقظ الحارس قبل أن يضرب الذيل الجبار المجنون كاملاً ...

كان المشهد مثيرًا للذهول، يذكرك بصراع هرقل مع الهيدرا .. أسطورة حية تتحقق..

لكن كاملاً لم يكن قويًا على الإطلاق. هو فقط يذكر معلومة بسيطة تقضي بأن فكي التمساح ينغلقان بقوة لا يقدر بلدوزر على فتحهما، لكنهما بالنسبة للفتح واهنان جدًا ... يستطيع أي طفل أن يمنع التمساح من فتح فكيه لو ضغط عليهما بيده، فقط لو تحاشى الذيل القادر على قتل رجلين .. أما لو أطبق التمساح ع

لى جزء من جسدك فأنت تحتاج لمعجزة كي تفتح فكيه من جديد.

كانت الضوضاء كافية كي يصحو الحارس مذعورًا، ويبسمل ويحوقل، ثم يحمل البندقية وبيد راجفة يلصقها برأس الوحش .. حتى أنه لو ارتجف أكثر لأصابت الرصاصة كاملاً.

انطلقت الرصاصة مدوية فتشنج الجسد حتى أنه ألقى بكامل بضعة أمتار بعيدًا ..

سرعان ما جاء الرجال على ضوء الكشافات لينهوا المهمة بالمزيد من الطلقات .. كان الخوف يجعلهم يطلقون بلا ترو وبلا اقتصاد في الرصاص.. المهم أن يمزقوا هذا الشيء.

عندما انتهوا من عملهم، كان الشاطئ عبارة عن فوضى من الدم ورائحة البارود والطلقات الفارغة ..

وقف كامل يلهث .. ركبتاه من عجين لين، وقد امتلأ فمه بالرمال .. وتقلصت ذراعاه من فرط الجهد العضلي...

لقد هلك الكابوس ...

ليس كامل خبير تماسيح .. لا يعرف عنها إلا القليل ..

لكنه ظل يراقب الجثة في شك.. لو كانت معلوماته صحيحة فأسنان التمساح تبرز من بين الشدقين وهما مغلقان ... هذه علامة تميز التمساح الأفريقي .. التمساح النيلي ... التمساح الأمريكي وتمساح المياه المالحة يغلق فاه فلا تظهر أسنانه ..

ليس كامل خبير تماسيح .. لهذا دعا الله أن يكون على خطأ ..

لو كان محقًا فهذا تمساح آخر .. تمساح نيلي فر من بحيرة ناصر .. هناك حوادث مماثلة تكررت مؤخرًا، وإن كان من الصعب أن يصل إلى البحر المتوسط ..

لو كان محقًا فتمساح المياه المالحة ما زال حيًا وحرًا وسوف يعلن عن نفسه عما قريب..

أتمنى أن أعرف ما سيحدث بعد ذلك، لكن قصتي يجب أن تنتهي عند نقطة ما.. لهذا أترك الباقي لخيال القارئ وللحظ !

تمت

قصص لا تكتمل

١

هكذا تولد الأفكار في الليل وتتبخر في الصباح. كان مصطفى يعرف جيدًا هذا الجو .. لكنه الليلة قرر أن يكتب ويكتب إلى أن يهده التعب. الزوجة نائمة والأطفال نائمون وهدوء البيت القاتل يغري بالعمل. حتى القط يستلقي على الأرض وقد تحول إلى كرة من الفراء.

أعد لنفسه كوبًا من الشاي في المطبخ مع شطيرة من الجبن، ثم اتجه إلى غرفته حيث الكمبيوتر يتسلى بحافظة الشاشة بانتظار القصة القادمة. كانت الأفكار تزدحم في رأسه .. ألف فكرة وفكرة، لكنه لا يعرف أبدًا كيف ينهي هذه الأفكار .. وقد كان يؤمن بمقولة: «لا تبدأ قصة لا تعرف نهايتها». لذا كان يهمل الكثير من الأفكار الجامحة التي لا يعرف إلا الله كيف يمكن أن تنتهي.

رشفة شاي .. قضمة شطيرة .. نفس من لفافة التبغ ..

تأمل المؤشر الذي يومض في ركن الشاشة الأيمن. يرى الفكرة تولد ويعرف السطر الأول وكيف سيكون. يحب صوت مفاتيح الكمبيوتر تنضغط تحت أصابعه خاصة لو تم هذا بسرعة. ستكون فكرة جيدة حتمًا .. ليس لديه تصور عام عن كيفية إنهائها لكنه سيعبر هذا الجسر عندما يصل له ..

بخط غليظ مكبر كتب في منتصف السطر

لقاء مع سالومي

– عندما تلقى د. عدنان دعوة إلى ذلك الحفل الذي تقيمه سلمى، فإنه تحمس.. سلمى مدللة رائعة الجمال من أسرة ثرية، ولم تكن من صديقاته ولم يعتبر نفسه في شلتها قط، لكنه فوجئ بأنها تدعوه هو ورفيقه صالح إلى الحفل الذي تقيمه في الساحل الشمالي.

– لم يكن عدنان متزوجًا .. وكان يجهل الكثير عن عالم الأنوثة، لهذا بدا له كأن هذه الفتاة تدعوه إلى الفردوس. وقد قرر أن يشتري بدلة جديدة وربطة عنق أنيقة.

قال له صالح ساخرًا:

-- الحفلات من هذا النوع عنوانها التحرر والانطلاق .. يجب أن تلبس ثيابًا (كاجوال)، وإلا بدوت لهم قرويًا ساذجًا

بصعوبة اقتنع د. عدنان وبحث عن تي شيرت أنيق يلبسه، ولم ينس أن يضع عطرًا ثمينًا. سأل صالح في دهشة:

-- ما الذي تقصده سلمى بهذه الدعوة؟

قال صالح في استمتاع وهو يقود السيارة الرخيصة متجهًا نحو الإسكندرية:

-ـ عندما أتلقى دعوة إلى فيلا في الساحل الشمالي تنظمه فتاة بهذا الحسن، فأنا لا أضيع الوقت في أسئلة سخيفة.

بعد ساعات دخلت السيارة إلى القرية السياحية التي تبدو خاصة جدًا. وفي النهاية كان ذلك الحفل المقام على الشط .. أضواء ملونة مبهرجة تتدلى من الأشجار، وهناك مشاعل عملاقة تبث حولها النور والنار والدفء. بوفيه مفتوح يبدو واضحًا أنه عامر، وسماعات عملاقة تحدث جلبة رهيبة .. الموسيقا التي تجعل ضربات قلبك تختل ..

ومن مكان ما ظهر فتى يلبس قميصًا مشجرًا على مايوه وهو حافي القدمين، وكان يتأبط ذراع سلمى .. سلمى .. سلمى التي كانت ترتدي ثوبًا غريبًا يذكرك بمجموعة من الأشرطة الملتفة حول جسدها ... لابد أنها كانت أروع شيء في العالم.

رفعت كأسًا مرحبة بالضيفين المذهولين وهتفت:

-ـ حضوركما يسعدني .. لكن أرجو أن تتحررا من هذا الصمغ.

بدأ الشابان يكتشفان ذلك الاختراع العجيب المدعو (فتيات). كل واحد له أم وأخوات وبنات جيران، لكنهن لا يمتن بصلة لهذا الحشد العجيب من الحوريات .. هذا الاختراع العجيب يضحك ويسكر ويرقص بلا توقف .. ولا شك أن المشهد جعل الشابين يفقدان صوابهما. كل شيء كان مدوخًا ..

بدأ كلاهما يرقص من دون براعة. حالة عامة من الهستيريا تشبه شعور من يذهب إلى الزار.

هنا دنت سلمى من د. عدنان وقالت له في همس:

-ـ أريد أن أنفرد بك بعيدًا

قال في غباء:

-ـ طبعًا .. طبعًا

وجرته من يده خارج دائرة اللهب والضوء حيث وقفا في الظلام، فسمعها تشهق في انفعال وقالت له:

– أردت أن أقول إنني أريدك وأحتاج لك .. لم تكن هناك فرصة أخرى لأقول لك هذا إلا الآن ...

ارتجف انفعالاً .. كان يجد من السخف أن يحب المرء فتاة لمجرد أنها جميلة .. الجمال ليس مبررًا كافيًا للحب، لكنه في هذه اللحظة شعر بأنه متأهب ليقع في غرامها ..

قالت له:

ـ سأطلب منك طلبًا واحدًا. طلبًا عسيرًا نوعًا .. لكني سأفعل أي شيء كي تنفذه

لم يكن يرى وجهها .. كان في الظلام ..لكنه سمعها تقول في انفعال:

ـ اسم سلمى قريب جدًا من اسم سالومي .. سالومي رقصت أمام زوج أمها كي يأتيها برأس يوحنا المعمدان .. وقد تم لها هذا فعلاً.. أنا سأفعل شيئًا مماثلاً لو قبلت أن تنفذ ما سأطلبه

سألها في قلق:

ـ وماذا ستطلبين ؟

ـ ستعرفه بعد الرقصة ...

كانت الموسيقا تصل لهما مع ارتجاجات تحت الأرض ... وكان اللحن صاخبًا. ابتعدت عنه بضعة أمتار ثم هتفت وهي تركل الأرض متمايلة كثعبان:

-- لا أحد يرانا هنا .. نحن بعيدان .. أنت تراني بصعوبة في الظلام، لكني أؤكد لك أن ثوبي مكون من سبع قطع .. وأنني لا ألبس شيئا تحته ..

ثم بدأت تتلوى .. وفي هلع وبقلب واجف أدرك أنها نزعت القطعة الأولى ..

– واحد!

سالومي نزعت ثوبها ذا السبع قطع أمام زوج أمها فط

ار صوابه. واضح أنك ستنفذ كل ما تطلبه منك يا د. عدنان.. ولكن ما هو بالضبط؟

– اثنان!

عند هذا الحد توقف مصطفى ..

لقد أدرك في رعب أنه لن يستطيع أن يكمل القصة، فهو لا يعرف الشيء الذي يجعل امرأة تتعرى أمام رجل غريب كي

يحققه. لن يقدر على استكمال هذه القصة كما هو واضح. البداية جيدة لكنه لا يعرف كيف يستمر.. طبع القصة على الطابعة المتصلة بالكمبيوتر، ثم أعد لنفسه شطيرة جبن أخرى وأعاد القراءة..

لا جدوى ..

كور الورق وألقى به في القمامة وأطلق بعض السباب. ليس هذا شعورًا جديدًا على كل حال. دخل الفراش ساخطًا فراح يقرأ لربع ساعة ثم أطفأ النور ونام ..

في الصباح تناول الإفطار شارد الذهن .. استعاد خيوط قصة أمس، فبدأ يشعر مع الوقت أنها لم تكن سيئة لهذا الحد .. لربما يمكن عمل شيء منها ..

فتح جهاز الكمبيوتر حيث كان قد تركها على سطح المكتب.. لقد اختفت!!.. لكن كيف؟ هو لم يمسحها ..

انحنى يفتش في القمامة فوجدها فارغة. زوجته تخلصت من القمامة أول شيء في الصباح الباكر. شعر بغيظ شديد. يستطيع أن يعيد كتابة القصة لكنه لا يجد في نفسه الرغبة لاستكمالها .. وهو لم يجد الحل السحري بعد .

سيحاول الليلة كتابة قصة أخرى.

٢

من جديد بدأ صوت طرقات أصابع مصطفى على مفاتيح لوحة الكتابة .. تك تتك .. تتك .. تك .. لفافة التبغ تحرق أنامله والقهوة تملأ معدته وتتصاعد إلى رأسه. سيكون الثمن هو الأرق، لكن لابد من ثمن لهذا التوهج الفكري الذي يشعر به .. الفكرة تولد .. الرأس يبرز .. ثم الجسد كاملاً.. الفكرة تصرخ وتعوي طالبة الرضاعة ..

الحجرة مظلمة هادئة تفوح برائحة مبيد الحشرات، ودخان القهوة يتكاثف أمام الشاشة .. رائحة القهوة الزكية تملأ خياشيمه ..

يرى على الشاشة ميلاد العنوان. كان من هؤلاء الكتاب الذين يضعون العنوان أولاً. كان يشعر بأن القصة ولدت بهذا الشكل وصار لها كيان وبيت ورقم قومي .. لم يستطع قط فهم الكتاب الذين يرجئون عنوان القصة إلى النهاية. ومن الغريب أنه قلما احتاج إلى تغيير العنوان فيما بعد ..

وحيد في الظلام

ينتهي رأفت من كوب الشاي ويطفئ بقايا لفافة التبغ في المطفأة، ثم ينظر إلى الساعة.. الثانية عشرة والنصف. لقد تأخر أكثر من اللازم وبدأ يوم جديد جغرافيًا.

نهض رأفت وارتدى السويتر الذي وضعه على الأريكة جواره، وقال لسلوى معتذرًا:

– طالت سهرتي .. أنا آسف ..

قالت سلوى ضاحكة:

– الوقت الطيب يمضي سريعًا .. كنت أحسبها التاسعة

– صباحًا؟؟؟

وابتسم في خبث، بينما نهض شريف من جلسته الكسول على الأريكة، فبدا واضحًا أن النوم يتسلل إلى وعيه لكنه يقاوم تأدبًا. قال لرأفت:

– هل تنوي أن تغادر الآن؟ لم لا تبقى حتى الصباح؟

قال رأفت وهو يتحرك نحو الباب:

– لابد أنك تمزح ..

انفتح باب الفيلا لتظهر سيارة رأفت الناعسة في الظلام، وقد تغطت بالندى. لسبب ما شعر بأنها صديق قديم ينتظره ليقله إلى فراشه المريح ..

– تصبحان على خير

هنا توقف شريف عن التثاؤب وقال في حذر:

– كن حذرًا في رحلة العودة

– تعرف أنني سائق حذر

قال شريف وقد اتسعت عيناه:

– ليس بالضبط .. هناك قصص مخيفة تتردد في هذه المنطقة .. أنت تعرف أن المقطم مخيف ليلاً. ليس كل المكان رحبًا، وهذه أول مرة تزورني فيها فلا أريد أن يحدث ما يعكر صفو الزيارة

– قصص مخيفة؟

– قصص مما يتداولها العجائز أو تخاف منها السيدات .. أعرف أنه كلام فارغ، لكن أنصحك بشيء واحد: لا تتوقف في طريقك لأي سبب ..

أشعل رأفت لفافة تبغ أخرى وقال وسط الدخان:

– يعني لو فوجئت بطفل يقف في وسط الطريق ملوحًا بذراعيه.. فهل تقترح أن أدهمه؟

– لو كنت مكانك لدهمته!.. لماذا يقف طفل وحده على الطريق في المقطم ليلاً؟

ابتسم شريف ... هذا السخف لا معنى له لكنه يجعلك تتوتر بالتأكيد .. التفكير في الرحلة الطويلة في الظلام إلى بيته ليس من الخواطر المريحة. بالإضافة إلى أنه يشعر بنعاس شديد .. يسهل أن يحدث شيء لمن يشعرون بنعاس .. الحقيقة أنه كان يجب أن يختصر السهرة ساعتين ...

قال رأفت وهو يفتح السيارة:

– سأظل حيًا .. أعدك بهذا

ثم ركب وأدار المحرك ولوح بذراعه للزوجين .. لا أضواء سوى وهج سيجارته والضوء الناعس القادم من الباب حيث يقف الزوجان ..

ما نوعية الخطر الذي يتكلم عنه شريف؟ واضح أنه يتعلق بالأشباح أو الجان .. شيء من هذا القبيل ..

ينطلق في الطريق المظلم إلا من أضواء الكشافين .. يشعر بعصبية حقيقية .. لو أراد شريف أن يوتره فقد نجح فعلاً.

لتنته هذه الليلة بسرعة .. لتنته .. ماذا لو تلفت السيارة هنا؟ لو حدث عطل فإن ....

ضوضاء من المحرك!.. اللي يخاف من العفريت .....

بالفعل لا مزاح هنا. إن المحرك يرفض أن يدور. توقفت السيارة إلى جوار الطريق وهي تطلق أصواتًا تشبه صوت حشرجة المذبوح. كان سريع البديهة .. ألقى نظرة إلى مؤشر البنزين فأدرك أنه نفد .. لا توجد قطرة بنزين في السيارة، وهو خطأ يتكرر معه مرارًا لكنه لا يتعظ .. من الواضح أنه الليلة سيتلقى درسًا لن ينساه.

الطريقة هي أن يحمل جركن بنزين ويمشي في الظلام بحثًا عن محطة وقود قريبة، لكن كيف يجدها أولاً؟ ثم أنه لا يحمل جركن في السيارة ..

من يطلب؟ ربما يطلب شريفًا، لكن في هذا قدرًا هائلاً من الإزعاج .. وشريف لا يحب القيادة ليلاً، دعك من أنه لن يتمكن من مساعدته في نقل البنزين. يطلب الميكانيكي في ساعة كهذه؟ مستحيل ... فكر في مازن صديقه المحامي... إنه عزب ويسهر كثيرًا ويجيد التصرف .. سوف يأتي له خلال ساعة مع جركن

مليء بالبنزين الجميل شهي الرائحة، مع زجاجة بلاستيكية سيقصها لتتحول إلى قمع.

الهاتف يرن .. الحمد لله أن هناك شبكة. الهاتف يرن بإلحاح .. أرجوك أن ترد يا مازن .. أرجوك أن ترد ....

ثم جاء صوت مازن المطمئن يسأل عما هنالك ..

بضع كلمات .. ثم قال مازن إنه سيأتي حالاً ومعه بنزين...

– مازن .. تأكد أولاً من أن سيارتك فيها بنزين!!

ضحك مازن كثيرًا ثم وضع السماعة .. والحقيقة أن هذه كانت المرة الأخيرة التي يتبادل فيها محادثة مع رأفت ....

****

للحظات ظل مصطفى يرمق الشاشة ..

القصة جيدة لكن استكمالها صعب فعلاً. لقد تم حشد القارئ لحدث مروع ..شيء يفوق الخيال سوف يظهر لرأفت حبيس سيارته... أي شيء مثل سفاح أو

غولة أو مذءوب أو مصاص دماء هي أشياء يتوقعها القارئ ولن يندهش...

طبع القصة على الطابعة، ثم أمسك القلم وراح يتابع السطور التي كتبها ..

بداية لا بأس بها لكن النهاية مستحيلة. وضع الورق على المكتب وقرر أن يخلد للنوم وفي الصباح قد تولد أفكار جديدة .. هذه بذرة قد تنمو بعد ليلة أحلام كاملة.

في الصباح تناول إفطارًا خفيفًا ..الزوجة ذهبت لعملها والأطفال في المدارس.

القصة .. ماذا حدث لها؟

هنا فوجئ بأن الورق غير موجود .. والقصة غير موجودة في ذاكرة الكمبيوتر ..

هل تصرف دون أن يدري وتخلص من القصة ومحاها من الذاكرة؟ هل هو مجنون؟

لابد من كتابة بذرة قصة جديدة ..

٣

قال له الطبيب النفسي:

-«بعض أدوية الاكتئاب تجعلك تتصرف بشكل غير واع .. تمشي ليلاً أو تفعل أشياء لا تدرك أنك فعلتها»

كان مصطفى يشك في بعض هذه الأدوية النفسية التي يتعاطاها لمرضه ثنائي القطبية، لكنه لم يتصور أن يصل الغياب عن الوعي لدرجة أن يمحو قصة كتبها، أو يتخلص تمامًا من أوراق طبعها ..

قال مصطفى:

«سوف أتوقف عن أدوية الاكتئاب إذن .. فهذه الحالة تقلقني»

قال الطبيب ضاحكًا وهو يدير جهاز الواي فاي لتنبعث موسيقا ناعمة:

«النفس البشرية لغز ... أعتقد أنك لا شعوريًا كنت تحمل كراهية لهذا الذي كتبته .. ثم تدخل اللاشعور ليجعلك تتخلص منه»

«سأحاول أن أعتقد ذلك»

ونهض مصطفى متثاقلاً .. لن يخبر زوجته في البيت أنه عاد لزيارة الطبيب النفسي، هي التي تؤمن أن هذا لا يعالج الجنون بل يصيب المرء السليم به .

****

عندما جاء المساء قرر مصطفى أن يكتب قصة جديدة مستغلاً الصمت والهدوء، وقرر أن يحافظ على الورق وعلى الملف جيدًا .. يجب أن يتأكد من أنه لم يمح الملف أو يحرق الورق..

ضم أنامله ثم طرقعها بعنف كأنه يتأهب لعمل مهم .. ثم أخذ نفسًا عميقًا من السيجارة وشفطة من قدح النسكافيه، ثم كتب بأنامل واثقة:

الغرفـــــــة

الغرفة القديمة في بيت الأسرة، هي مخزن للكرار والمهملات والجرائد القديمة. مع حشد كبير من الثياب البالية نصف الممزقة. هناك شماعة تتدلى منها بعض الثياب، وهناك مرآة مهشمة .. وهناك قفص عصافير خال .. وهناك سمكة قرش محنطة خالية من اللحم لكنها تفتح شدقيها منذرة . هناك ساعة حائط محطمة وقد وثب منها زنبرك .. هناك ملصق على الجدار يصور فاطمة رشدي حسناء الماضي التي كانوا يسمونها صديقة الطلبة. هناك الكثير من الغبار وأكوام من نسيج العناكب والعث .. هناك بورص أو اثنان على السقف.

كان عاصم يكره البورص ويشعر أنه كائن مقزز، لكنه لم يكن كذلك يجرؤ على قتله .. ستكون عملية مثيرة للاشمئزاز بالتأكيد.

الجو حار في الغرفة، وبالطبع خانق تضيق به النفس. العرق يسيل على جبينه ممزوجًا بالغبار. يبدو أنه سيحتاج إلى حمام قبل أن يغادر الشقة الخالية.

يجب أن يجد الملف .. الملف الذي يحوي عقود شراء الأرض وصحة التوقيع. الأوراق التي فشل في أن يجدها في البيت كله. البيت الخالي على عروشه منذ وفاة الأب. منذ عام مات الأب وقبله بعشرة أعوام ماتت الأم .. ولم يكن أي من الأبناء يعيش هنا. كانوا قد تركوا الأب يعيش وحده لأن أحدًا لا يطيقه. الشيخ الكريه المتشكك الغاضب على الدوام، مع الشيخوخة التي جعلته ينسى النظافة الشخصية، لدرجة أنه كان يقضي حاجته في أي مكان. لم يكن أي من الأبناء يرغب في أن يستضيف هذه الكارثة، هكذا تركوا الأب وحده مع خادمة تدبر أموره صباحًا وترحل مساءً. منذ توفي الأب ظهرت مشكلة العثور على أوراقه .. لم يكتب وصية، لكن ما هي ثروته الحقيقية؟ ماذا يملكه بالضبط؟

تطوع عاصم بأن يفتش البيت جيدًا بحثًا عن الأوراق..

لقد جمع بعض أوراق مهمة، لكنه لم يجد بعد ضالته .. وعندما دخل هذه الغرفة القذرة تذكر أنه لم يدخلها منذ تزوج وفارق البيت ... نحو عشر سنوات ...

خرج من الغرفة واتجه إلى الحمام ليغسل وجهه .. فتح المحبس المغلق منذ عام .. وشعر بالماء المنعش يغمر وجهه..

عاد إلى الغرفة الكئيبة وراح يحاول جاهدًا فتح النافذة .. لكن مقبضها كان متصلبًا من الزمن .. لا جدوى. لا سبيل لدخول الهواء والنور هنا ..

استطاع بعد جهد أن يزيح كومة من الخرق البالية فوجد تحتها صندوقًا خشبيًا عتيقًا يبلغ طوله مترًا وعرضه نصف متر تقريبًا. الغطاء مثبت جيدًا .. بحث حوله حتى وجد مطرقة نجار من الطراز الذي يحمل جزءًا مشقوقًا كذيل الصرصور، يستخدم في انتزاع المسامير. أولج هذا الجزء في غطاء الصندوق وراح يحاول جاهدًا أن يفتح ..

هيا ... اضغط أكثر ..

الدرس الذي يجب أن نتعلمه هو ألا نفتح صناديق لم نغلقها نحن. لقد انفتح الغطاء بصعوبة .. وعلى الضوء الخافت المنبعث من مصباح السقف، وجد أن الصندوق يضم أشياء غريبة.. كانت هناك عظام .. عظام آدمية لا شك فيها ..

عظام نظيفة مضى عليها زمن بعيد ..

لم يكن للأسرة أي علاقة بدراسة الطب. لم يكن لها أصدقاء أطباء .. لا يوجد تفسير لوجود هذه العظام ...

كان عاصم يلهث في انفعال .. الأمر مريب بحق .. هل قتل الأب شخصًا وأخفى عظامه هنا؟ أم لعلها الخادمة هي التي أخفت شخصًا هنا حتى تحلل .. كانت برفقة شيخ فان لا يميز شيئًا ...

في هذه اللحظة انغلق باب الغرفة، ووجد عاصم نفسه محبوسًا في الضوء الخافت!

عند هذا الحد شعر مصطفى بثقل في أفكاره وأهدابه وأنامله..

يجب أن يتوقف هنا. وكان مدمنًا للقهوة والنسكافيه، لذا لم تكن هذه المشروبات قادرة على أن تسلبه النوم ..

تثاءب .. لكنه نهض إلى الطابعة فشغلها .. سرعان ما خرجت له القصة على شكل أوراق. ثم أنه نسخ الملف على ذاكرة (فلاش). نهض متثاقلاً ففتح المكتب ووضع فيه الأوراق والذاكرة، ثم أغلق الدرج بالمفتاح .. واتجه إلى المكتبة العالية فوضع المف

تاح فوقها بصعوبة ..

لا يستطيع شخص يمشي أثناء النوم أن يصل لهذا المفتاح دون معاناة، والمعاناة ستجعله يصحو من النوم ..

ثم أنه اتجه إلى الفراش.. وسره أن زوجته تشعر بأرق وتتقلب كثيرًا. مصائب قوم عند قوم فوائد.. هكذا ستعرف إن كان قد صحا من النوم ليمسح قصته ...

غير أن الذعر استبد به في الصباح ...

أنت تعرف بالطبع أنه لم يجد القصة .. لا النسخة الورقية ولا الذاكرة ..

كان المفتاح في موضعه حيث تركه فوق المكتبة ... لا توجد أي علامة على اقتحام الدرج.

راح يرتجف رعبًا .. هذه المرة قد صار الموقف يفوق قدرته على التعقل ..

«مسكون!.. هذا البيت مسكون!»

قالها لنفسه لكنه لم يجسر على أن يخبر زوجته بقصته .. لقد كتب بدايات ثلاث قصص، وفي كل مرة تختفي القصة من الوجود كأنها لم تكن ...

أنا لست مجنونًا .. البيت مسكون ..

٤

أيام طويلة مضت على مصطفى ولا شيء سوى الجدب .. لم يجلس أمام الكمبيوتر قط، ولم يحاول أن يبدأ قصصًا جديدة، فالأمر لم يعد قابلاً للتفسير، وكل ما هو غامض يثير الرعب في النفس.. الرعب قد شل قدرته على ابتكار أفكار جديدة، وقد قدر أنه لو تعرض لذات التجربة مرة أخرى فمن الوارد جدًا أن يجن ..

القصص التي يبدؤها تزول من الوجود بلا تفسير، واحتمال أنه يتصرف من دون أن يعرف احتمال عالٍ جدًا ومخيف جدًا .. أنت تعرف أجواء دستويفسكي، كما أن عقدة فيلم (نادي القتال) لم تفارق خياله قط ..

كلما فكر في الكتابة أصيب بالرعب .. ماذا لو استيقظ ليجد أن هذه القصة الجديدة اختفت؟

قالت له زوجته:

«أنت لا تفعل شيئًا على الإطلاق .. تمضي اليوم كله أمام التلفزيون»

قال وهو يبتلع ريقه:

«سدة الكاتب .. هذا وارد جدًا ... لابد من فترة أنتعش فيها»

مصمصت بشفتيها وقالت:

«أرجو ألا تطول هذه الفترة .. الكتابة هي ما يبقي البيت مفتوحًا وليس لك دخل آخر.. قلت لك ألا تستقيل من عملك»

«سوف أستعيد قدراتي فلا تقلقي»

لكنه في الواقع كان يتساءل عن الطريقة العبقرية التي ستعيده للكمبيوتر.

اعتاد في الصباح الباكر أن يأخذ ابنته للمدرسة يوميًا ثم يعود في جو الصباح البكر .. يبتاع الجريدة وبعض الشطائر، ثم يرجع للبيت فيفطر ثم يواصل النوم حتى الظهر ..

كان عائدًا في ذلك اليوم عندما لاحظ تلك البناية .. بناية عتيقة من طابق واحد، عليها لافتة تقول: «مكتبة الشباب». هنا توقف متصلبًا .. لم ير هذه البناية في حياته ولم يلحظ هذه اللافتة قط. إن هذا غريب. كان يعرف عن نفسه انعدام الملاحظة، لكن ليس إلى هذا الحد ..

كانت من عاداته أن يمشي وهو ينظر للأرض، ومن النادر أن يرفع رأسه ليتأمل البنايات.. برغم هذا لا بد أنه مر أمام هذه البناية آلاف المرات فكيف لم يرها؟ الاحتمال الوحيد هو أن البناية وضعت اللافتة حديثًا، وهي بناية باهتة غير متميزة في شيء.

المثير في الأمر هو أن الباب كان مفتوحًا .. مكتبة عمومية في السابعة صباحًا!.. هذا غريب ..

تغلب فضوله، فقرر أن يزور المكان. اجتاز بوابة حديدية مفتوحة صدئة، ومشى في ممر طوله متر على جانبيه تمثالان بدائيان لطائر العنقاء...

الباب الرئيس كان مفتوحًا فاجتازه ..

هناك كان كاونتر، وخلف الكاونتر كان رجل قصير القامة أصلع الرأس مسن، ويضع عوينات سميكة. كان منهمكًا في قراءة مجلد عتيق .. رائحة الكتب هذه ..

ما الذي يقرؤه الرجل بهذا الانهماك؟ كان يطالع مجموعة مجلدات مصفرة من روكامبول .. رجل مستحيل الزمن العتيق .. وكان يضع أمامه قدحًا تتصاعد منه رائحة القهوة الزكية.

لما شعر بدخول مصطفى رفع حاجبيه فوق إطار العوينات .. راسمًا علامة استفهام، وابتسم ابتسامة خافتة توشك على أن تشقق تجاعيد وجهه المسن ..

«هل تبحث عن شيء معين؟»

ابتلع مصطفى ريقه وقال:

«لا أبحث عن كتاب بعينه ... سأعرف الكتاب الذي أريده عندما أراه»

«هذه إجابة ذكية ..»

قالها الرجل وهو يغلق المجلد ويمتص طاقم أسنانه وأردف:

«الكتاب الجيد يناديك من على الرف .. حتى قبل أن تعرف شيئًا عنه»

ثم فتح دفترًا أمامه وطلب من مصطفى أن يسجل بياناته .. الاسم والعنوان ورقم الهاتف .. ما أهمية هذه الخطوة؟ .. لكن مصطفى لم ير خطرًا في ذلك، ولاحظ أن الصفحة تحمل أربعة أسماء فقط .. هذه المكتبة لا تلقى الكثير من الرواج ..

«لم أرَ في حياتي مكتبة عمومية مفتوحة في هذا الوقت المبكر»

قال الرجل:

«هي ليست مفتوحة .. الحق أنها لا تغلق أبدًا!»

قال مصطفى لنفسه إنه بحاجة إلى فحص نظره .. لو كانت هذه المكتبة مفتوحة طيلة اليوم فلابد أنه معدوم الملاحظة تمامًا. في كل يوم يمر بها أثناء العودة من مدرسة ابنته فلم يرها إلا اليوم ..

«ما هي طريقة الاستعارة؟»

«لا شيء ...لدينا اسمك وعنوانك ونثق بأنك سترجع الكتاب خلال يومين»

وإذا لم أفعل ؟ تساءل في ذهنه .. هذا الشيخ لا يبدو قادرًا على استعادة الكتب التي لا يعيدها أصحابها. حتى الاتصال بالشرطة يكلفه جهدًا فوق ما يطيق ...

ثم أشار الرجل بما معناه أن تفضل .. فمشى مصطفى بين رفوف متلاصقة عليها حشد من الكتب العتيقة. الكتب التي كتب اسمها على ورق لاصق على الكعب شأن المكتبات العامة .. كانت مجموعة مبهرة فعلاً، وإن كان مصطفى واسع الثقافة مما جعل معظم هذه الكتب معروفًا بالنسبة له ..

تولستوي ... بوشكين .. هيمنجواي .. موم .. نجيب محفوظ .. فولتير .. توفيق الحكيم .. محمود تيمور .. الطيب صالح ... كلهم هنا ..

رائحة الكتب القديمة المغرية تملأ خياشيمه .. مشى بين الأرفف متسائلاً عن الكتاب الذي ينتقيه. الغريب أنه كان في المكتبة رف خاص لمجلدات مجلات سوبرمان والوطواط وميكي .. المكتبة اسمها مكتبة الشباب .. لكنها بالفعل مكان مغر جدًا .. من الصعب أن تفكر في كتاب غير موجود ..

على أن بعض الأرفف كانت خالية .. لاحظ أن فهرسة الكتب تتم أبجديًا .. وقد كان يتأمل كتب مصطفى محمود ومصطفى صادق الرافعي ومصطفى المنفلوطي .. ثم وجد أن باقي الرف

خالٍ تمامًا .. يبدو أن هناك من يستعير الكتب ولا يعيدها هنا.

في نهاية المكتبة توجد غرفة مغلقة.. لكن الباب عبارة عن زجاج مصنفر لا ترى ما وراءه، وكان الباب مغلقًا بقفل ثقيل، فقدر مصطفى أن الشيخ يسكن خلف هذا الباب.. لو كانت المكتبة لا تغلق فمن المؤكد أنه يبيت هنا ..

لما دقق النظر أدرك أن القفل موضوع فعلاً لكنه لا يغلق أي شيء.. مثلما نثبت نحن أقفال بيوتنا في موضعها لمجرد عدم فقدها .. كان هناك مقبض في الباب ..

خطر لمصطفى أن كل شيء غريب .. نظرة سريعة إلى ما وراء هذا الباب لن تضر أحدًا .. لن يلاحظ الشيخ أي شيء وهو في الجانب الآخر من المكتبة خلف عشرات الأرفف ..

مد يده الراجفة وأدار المقبض..

هنا شهق من الدهشة ..

٥

المشهد بالداخل لم يكن غرفة على الإطلاق .. كانت قاعة فسيحة .. هناك رجال ونساء يجلسون إلى أجهزة كمبيوتر منهمكين في عمل غامض، وهناك تقسيمات بطريقة Cubicles تفصل مكان عمل كل واحد.

هناك فتية يمشون مسرعين وهم يحملون أوراقًا تحت إبطهم، وهناك منقي مياه في الركن، وستائر فينيقية تلقي ضوءها المقسم إلى شرائح على المكان. في خلفية القاعة مكتب مغلق يقف بجواره رجل أمن صارم، واللافتة تقول (المدير) ! كل شيء يوحي بأنه دخل إلى شركة تتخذ مقرها هنا. شركة مشغولة جدًا كما هو واضح.

أوشك على التراجع.. لكن موظفًا قوي البنية يلبس قميصًا قصير الكمين وربطة عنق برز له، وجره من ساعده في حزم قائلاً:

«تأخرت !.. المدير ينتظرك !»

لم يجد الكلمات الكافية ليتساءل ..

فقط وجد أن رجل الأمن يفسح له ويفتح الباب، ثم وجد نفسه في غرفة فسيحة تتوسطها مائدة اجتماعات .. على المائدة ملفات ودوارق ماء وبعض البسكويت، والدخان يعم هواء الغرفة من كثرة التدخين، وحول المنضدة جلس مجموعة من السادة المهمين ذوي النظرات الصارمة .. اجتماع مجلس إدارة كما هو واضح.

عند مكان الصدارة من المائدة – حسب قواعد البروتوكول – كان المدير .. يمكنك بسهولة أن تدرك أنه المدير بأناقته وشعره الأشيب وكرشه والنظرة النفاذة القائدة في عينيه.

«انتظرناك طويلاً يا أستاذ مصطفى .. هلا تفضلت بالجلوس ؟».

سحب مقعدًا وجلس وعشرات الأسئلة تزدحم على لسانه .. هم يعرفونه وكانوا ينتظرونه ؟

وجد من يقدم له لفافة تبغ ويشعلها ومن يسأله عما يشربه فطلب قهوة. ثم نظر متسائلاً إلى المدير..

قال المدير وهو يجلس مسترخيًا:

«لا أستطيع شرح كل شيء .. محاولة تفسير الأمر بالنسبة لك عسيرة، لكن هذا ما نفعله طيلة الوقت .. ربما منذ ميلاد اللغة ..»

«ما الذي تفعلونه ؟»

«هذه هي المشكلة .. لن تفهم أبدًا»

ثم تبادل النظرات مع الجالسين الذين تحاشوا التقاء العيون بمصطفى، وقال:

«لنقل إننا نلاحق الأفكار الجيدة .. الأفكار الصالحة للاستكمال، وفي هذه الشركة لدينا ألوف مؤلفة من البدايات الموفقة»

تساءل مصطفى:

«هل يعني هذا أنكم شركة إنتاج سينمائي ؟»

«ليس بالضبط .. إننا نهدي للعالم الأفكار التي قتلها أصحابها قتلاً.. نحن نستكمل القصص ونضعها في مكانها اللائق على رفوف المكتبة. لو لاحظت لوجدت أن هناك ركنًا ناقصًا حيث

يوجد اسم مصطفى في المكتبة. هذا هو المكان الذي كان بينتظر إبداعاتك.»

كان يشعر بأنه يحلم .. هذه هلوسة لا شك فيها...

«وكيف ؟ كيف وجدتم قصصي ؟ وكيف مسحتموها من على جهاز الحاسب ؟»

«إنا لا نخضع لقوانين مادية .. نتعامل بالأفكار ويمكننا الدخول لأي مكان وأخذ أي شيء .. غير أن هناك مشكلة..»

والتفت إلى أحد الجالسين ليكمل هو، فقال الرجل وهو شخص أصلع بدين يعرق بغزارة:

«فشل رجالنا في استكمال القصص .. لم يجدوا نهايات مناسبة، ومعنى هذا أن هناك أرواحًا معذبة تنتظر..»

«أرواحًا معذبة ؟»

«نعم .. أبطال قصصك في وضع معلق .. القصة التي بلا نهاية تعذب أبطالها عذابًا لا يمكن وصفه».

أردف المدير:

«استكمال القصة يشبه دفن الميت .. خطوة إنسانية مهمة وتنهي الكثير من الصراعات والمشاكل.. إكرام الميت دفنه وإكرام القصة استكمالها !»

«وماذا تريدون مني ؟»

قال المدير وهو يشعل سيجارًا:

«أن تجد لنا نهايات موفقة لبدايات قصصك !»

فتح مصطفى فمه ليعترض.. هو لا يذكر الأحداث، وهو لم يعتد قط العودة لقصة نبذها، لكنه فوجئ بالجالسين ينهضون بلا كلمة ... فجأة وجد أنه يجلس وحيدًا إلى منضدة الاجتماعات، فقط قال له المدير وهو ينصرف:

«تذكر أنك ستبقى معنا لفترة إلى أن تنتهي القصص !!»

وفجأة شعر مصطفى بأن معالم القاعة تتغير .. تذوب .. كأنه من تأثيرات الخدع السينمائية المعروفة بالكروما. لقد صار يقف في ظلام الليل وسط الرمال..

هناك صخب وصوت طبول من بعيد، وهناك شباب يرقص على مرمى النظر .. هناك مشاعل متناثرة على الشط تلقي بدوائر من

الضوء الذهبي. عندما دقق النظر رأى أنه يرى شابًا وفتاة . الفتاة تلبس ما يشبه ثوب بحر لكنها تلف إزارًا حول نصفها الأسفل ..

قال له الشاب:

«أنت أتيت في الوقت المناسب .. يجب أن تفعل شيئًا !.. سلمى توشك على التجرد من ثيابها ..»

أصيب مصطفى بالذهول. هو يعرف هذين ويذكر هذا الموقف الذي لم يستطع أن يستكمله. سلمى ستؤدي رقصة شهوانية مقابل أن تطلب من الشاب شيئًا.. ما هو هذا الشيء ؟

كانت الفتاة تواصل الرقص وتتخلى عن قطعة من ثيابها في كل مرة، بينما د. عدنان مذهول يرتجف .. كان أقرب للرعب منه إلى الإثارة ..

مال عليه مصطفى هامسًا:

«أنت لم تعط أي وعد .. لست مطالبًا بشيء .. عندما تنتهي هذه الفقرة الاستعراضية يمكنك أن ترحل بعد ما تكون قد أشبعت عينيك !!»

«وما الذي ستطلبه هي ؟»

«لا أعرف .. لكنه بالتأكيد شيء قاس أو محرم أو غير قانوني .. هذه هي الأشياء التي تستأهل هذا الثمن ..لن تطلب منك أن تتزوجها .. أنصحك ان ترحل قبل موعد دفع الثمن»

همس د. عدنان في ضيق:

«لربما معك حق، لكن هذه ليست طريقة محببة لسرد القصص . إن هذا يحبط القارئ كثيرًا»

«لكنه حل لا بأس به .. سوف تفرغ هي من عرضها الشائق، هنا توجه لها عبارة شكر، وتعود ببساطة لتنضم إلى رفاقك ... هذه قصة مسلية .. المقلب الذي شربته فتاة حاولت أن تكون سالومي.. سوف يعلمها هذا أن أحدًا لا يدفع ثمن شيء حصل عليه فعلاً.. في المرة القادمة عليها أن تحصل على مطلبها قبل أن ترقص»

ولم ينتظر الباقي .. ترك عدنان يقف في بلاهة يراقب عرض الاستربتيز، ومشي وسط الرمال مبتعدًا...خطر له أن ينظر للخلف، لكن لماذا ؟ سلمى ولدت من أفكاره وليس فيها شيء جديد ..

مشي وسط الرمال لفترة ثم رأى أمامه طريقًا مظلمًا مقفرًا ..

كشافات سيارة واقفة هناك ..

ثم رأى سيارة أخرى تقف على بعد خطوات منها ...

عندما اقترب أكثر أدرك أن هناك سيارة خالية وأن هناك رجلاً يقف في حيرة وهو يحمل (جركن) كبيرًا وينظر حوله .. كان هذا هو راكب السيارة الثانية ..

التقت عيناه في ضوء الكشاف بالرجل، فقال له في رعب:

«لا أجد رأفت صديقي .. لقد جلبت له البنزين كما طلب مني»

بدأ مصطفى يفهم ..

سأل الرجل في حيرة:

«أنت تدعى ما .. ما ..»

«مازن .. أنا محام .. اتصل بي يطلب أن أوافيه هنا وشرح لي مكانه»

ثم استرخى ليستند إلى غطاء السيارة الواقفة وقال:

«كيف تنوي أن تنهي هذه القصة ؟»

٦

كان مصطفى يفكر وهو يدور حول السيارة الواقفة .. الرابضة كوحش نائم في الظلام ..

عندما انحنى جوار الرفرف رأى قطرات .. دقق النظر على ضوء المحمول فأدرك أنها قطرات دم متناثرة. رفع عينه نحو مازن وابتلع ريقه ..

«ثمة أشياء مريبة هنا»

ثم راح يتابع قطرات الدم على الأرض الترابية ... كان الدم أحمر لم يتخثر بعد، وكانت المسافة بين قطرة وأخرى تزيد على متر .. لم يكن نزفًا غزيرًا كما هو واضح ..

هتف مازن بصوت مبحوح:

«هل تعتقد أنه .. أنه؟»

لم يرد مصطفى .. المفروض أنه الوحيد الذي يعرف ما حدث لكنه بالفعل لا يملك أدنى فكرة. مضى يتابع قطرات الدم حتى بلغ صف الأشجار ومشى بينها باحثًا عن أثر الدم. هناك خلف الشجرة الثالثة رأى ما بدا له كأنه كتلة دامية .. عندما دقق النظر أكثر رأى أن هذه ذراع مبتورة ..

وقف يبتلع ريقه، بينما لحق به مازن يتساءل عما هنالك .. رأى ما رآه فشهق، ثم انحنى يتفحص الساعة المحيطة بالمعصم وهتف:

«ساعة ذات إطار ذهبي .. هذه ساعته فعلاً ..»

ما الذي حدث له؟

لا أحد يعرف .. لكن مازنًا قال في توحش وهو يضغط على أسنانه:

«هذه قصتك .. أنت من فعلت هذا به!»

قال مصطفى وهو يتراجع:

«صدقني أنا لا أملك أي فكرة عما حدث .. لم أكتب هذا .. لقد أوقفت القصة عند هذ الحد لأنني لم أستطع استكمالها»

مازن وثب عليه ثم سدد له لكمة مؤلمة في فكه .. وقبل أن يتأهب مصطفى، تلقى ركلة في قصبة ساقه جعلت قلبه يتوقف للحظة، وفي اللحظة التالية وجد نفسه على الأرض يحاول انتزاع اليد التي تحاول أن تطبق على عنقه .. هواء .. لابد من هواء. ستكون قصة طريفة في حد ذاتها عندما يقتل بطل القصة مؤلفها .. لكن لا وقت للتذوق الأدبي هنا. هواء!

في اللحظة التالية رأى شيئًا مروعًا يزحف من الخلف .. الشيء الذي مزق ذراع رأفت .. الشيء الذي يثير رعب الناس من هذه الفلاة .. الشيء الذي لم يستطع قط أن يتخيله. لم يكن خياله قادرًا على تخيل شيء كهذا .. لكنه استطاع أن يعرف اسم المسخ دون أن يخبره أحد: الخاريص... لا يعرف من أين جاء هذا الاسم لكنه كان يعرف أنه صحيح.

صرخ في رعب بصوت مختنق:

«اتركني يا أحمق!.. الشيء!».

مازن واصل الضغط على عنقه في توحش. في اللحظة التالية التف الذراع المخيف الشبيه بممصات الأخطبوط حول صدره .. وبعد لحظة كان هذا الصدر بالذراعين ساقطًا على العشب على بعد أمتار.. وإن ظل حوضه وفخذاه حول جسد مصطفى ... كأنه كان مستمرًا في الضغط بانعكاس النخاع الشوكي ..

صرخ مصطفى بأعلى صوته .. الغوث!

أنت من صنع هذا المسخ .. القصة قصتك وأنت الوحيد القادر على عمل شيء ..

المسخ الذي مزق رجلين في ربع ساعة .. ومن الواضح أنه سيمزق الثالث حالاً ....

هرع إلى السيارة الواقفة .. غالبًا هي سيارة مازن، ووثب خلف المقعد وأدار المحرك .. رأى الخاريص يتقدم .. يقف أمام السيارة متأهبًا للوثب .. تراجع للوراء، ثم أدار العجل متهيئًا للفرار ... لكن المسخ ركض بسرعة أكثر وتمسك بالرفرف الأمامي، وبلا جهد تقريبًا رفع السيارة لتصير في وضع شبه عمودي على الأرض .. مرتكزة على عجلتين فقط.

فتح مصطفى الباب الثاني ووثب منه إلى الخارج وتدحرج على الأرض ..

سقطت السيارة بدوي مدوّ لتستقر على عجلاتها الأربع .. بينما عاد المسخ يتجه نحوه ...

هنا على بعد متر منه وجد جركن البنزين الذي تركه مازن في مكانه. زحف نحوه وفتحه ثم هب واقفًا وقذف البنزين كله على الشيء المخيف .. لابد أن علبة الثقاب ما زالت في جيبه .. هاهي ذي !.. بسرعة وبيد مرتجفة حك العود بالعلبة ثم ألقى به مشتعلاً على الخاريص.

فاااااااام!.. اشتعلت النيران في الشيء .. كان مشهدًا كابوسيًا خاصة مع ضخامة حجمه وشراسته .. راح يتلوى يمينًا ويسارًا ثم سقط أرضًا وبدأ يتحول إلى غبار ..

رائحة البنزين تزكم الأنف .. الليل يكتم أنفاسه حتى لا يصاب بالربو ..

وقف مصطفى يلهث لكنه اعترف لنفسه بأن الخاريص رائع. لا يوجد مسخ مثله في عالم الأساطير. هو لم يخترعه لكن من المفترض أنه اخترعه وهذا يجعله عبقريًا بحق. سوف يستعمله فيما بعد في قصص أخرى بالتأكيد .. هناك حيل دائمة لدى الكتاب تعيد هذه المسوخ للحياة. اقترب أكثر ليتأمل الرماد .. هنا رأى أطرافًا بشرية متفحمة .. عيونًا متفحمة .. جماجم ذائبة ...

بدأ يفهم .. الخاريص لا حجم له ولا كتلة .. إنه يتكون من جثث ضحاياه ويكبر بلا توقف. لابد أن بين هذه البقايا جثة رأفت .. أما جثة مازن فلم يتسع لها الوقت ....

لم يكن متأكدًا مما إذا كان هذا الشيء قادرًا على أن يصحو من الرماد .. كل شيء ممكن. هذا مسخ لا تعرف أنت عنه شيئًا، ومن قوعد أفلام الرعب أن الوقوف طويلاً أمام جثة الوحش الصريع خطر .. من الوارد أن ينهض من جديد ..

هكذا هرع إلى السيارة وأدار المحرك ..

انطلقت السيارة مبتعدة عن المشهد، وسط الظلام الدامس الكثيف. تنهد الصعداء وهتف بأعلى صوته:

«هذه قصة أخرى قد انتهت يا سادة .. وهي نهاية مرضية لكم. المسخ يقتل .. المسخ يموت ..»

ثم أردف:

«هل لكم أن ترجعوني لعالمي؟»

في اللحظة التالية كان يجلس في قاعة الاجتماعات إياها .. مجلس الإدارة أو الهيئة التنفيذية. المدير الأشيب والأصلع البدين ودخان السجائر المنعقد في الهواء. ثمة شاشة جانبية تعرض مشاهد من القصة الأخيرة ومواجهة الخاريص. كان بعضهم يلتهم وجبة سريعة يبدو أنها طعام الغداء ..

وجد نفسه جالسًا إلى المنضدة وأمامه كوب كولا وشطيرة دجاج مقلي بالمايونيز ..

«كل يا أستاذ مصطفى .. لابد أنك جائع»

قال الرجل البدين في حماسة:

«الخاريص كان جيدًا فعلاً.. لقد قررنا ألا تكون هذه نهايته. في قصة أخرى سوف نكتشف أنه يعيد تجميع بقاياه وينهض .. من المفيد أن يبقى هذا الوريد الثري»

ابتلع المدير بعض الكولا وقال:

«لكن النهاية كانت أسهل أكثر من اللازم .. وحش بهذه الصفات كان يجب أن يتعب البطل أكثر .. يجب أن يموت مرارًا ونحسبه انتهى ثم ينهض ثانية»

قال رجل ثالث:

«ثم أن الحل لم يأت من الأبطال .. جاء منك أنت .. أي أنك أقحمت إقحامًا على القصة .. الكاتب يتدخل من خارج القصة وليس من داخلها»

قال مصطفى في إرهاق وهو يلوك اللقمة:

«لم أتدخل .. لم أفعل أي شيء على الإطلاق»

قال المدير:

«على كل حال، سوف نرى كيف ستكمل لنا قصة أخرى .. تذكر أنك لن تعود لعالمك قبل أن تعطينا قصصًا مرضية ...»

وبدأ مصطفى يشعر بأن الغرفة تظلم تدريجيًا .. وشم رائحة الغبار ......

٧

هناك كان واقفًا في الغرفة المظلمة التي أوصد بابها ..

استطاع أن يرى عاصمًا كما تخيله بالضبط .. العرق يبلل جبينه مع الغبار .. تحت إبطيه مبتل تمامًا وهو يحاول فتح باب الحجرة الذي انغلق بلا إنذار ..

على الأرض كانت عظام مبعثرة .. عظام نقية من التي وجدها في الصندوق، وكانت الحيرة مرتسمة على ملامحه ..

«هناك من أغلق الباب علينا!»

بالطبع يستطيع بطل قصته أن يراه ويتفاعل معه، لكنه كان يعرف أن الباب لم يغلق من الخارج .. لقد أغلق من الداخل .. الشيء الكامن في الغرفة فعل هذا ..

هتف عاصم وهو يجذبه من ياقة سترته:

«من فعل بنا هذا؟ ما سر هذه الغرفة؟»

لم يرد .. لم يكن يملك كلمات يفسر بها أي شيء .. لقد تخلص من هذه القصة وفقد علاقته بها، والآن تطالبه القصة بإثبات النسب .. لكنه مضطر للعثور على حل إذا أراد أن يغادر عالم الشركة ..

تحسس الهاتف المحمول وكما يتوقع كانت الشبكة صفرًا ....

أضاء ضوء الهاتف المحمول، وراح يفتش في أركان الغرفة ..

كانت هناك حقيبة جلدية بالية في الركن عليها كومة من الغبار .. وكانت أنسجة العناكب تغلفها. مد يده والتقطها في حذر .. لا يضمن المرء ما قد يقابله في هذا الوكر. لغز الحقيبة والصندوق الأبدي ..

فتح الحقيبة بصعوبة بالغة .. كانت تحوي مجموعة من الأوراق، وحشدًا من البطاقات أو الكارنيهات المغبرة موضوعة في كيس من البلاستيك ..

ما هذا بالضبط؟ ثمة كارنيه لمحصل كهرباء اسمه عباس أبو مندور ... ثمة بطاقة شخصية لموظف في شركة المياه .. هناك كارنيه آخر لعامل هاتف ..بطاقة موظف كهرباء ..

نظر للغرفة وإلى الحقيبة .. سمع عاصمًا يتساءل:

«ماذا وجدت؟ علام الصمت؟»

كان الجواب يقترب من مصطفى .. يوشك على أن يلمسه بيده .. عظام نظيفة تمامًا .. لا توجد رائحة عفن .. الجيران لم يشموا أي شيء ..

فتح الحقيبة وسكب ما فيها على الأرض.. هنا رأى المثقاب والمنشار والسكين العملاقة. كلها مغطى بالصدأ لكنها تحمل رسالة بليغة ..

أغلق الحقيبة وقال لعاصم:

«لو كان هؤلاء أشخاص قتلوا وتعفنوا هنا لعمت الرائحة الكريهة وشكا الجيران .. كما حدث مع ريا وسكينة. لكن هذه عظام نظيفة براقة كأن هناك من قام بتنظيفها .. التعفن لا يدع العظام بهذه الحالة النظيفة. وكل البطاقات تدل على أشخاص قرعوا الباب يومًا .. هل تعرف ما حدث وفي تفسيري الخاص؟».

«لا أفهم».

«أبوك غريب الأطوار الذي يعيش في عزلة قد قتل أكثر من موظف مر على الشقة .. غالبًا كان يقدم لهم مشروبًا فيه منوم، وعندما يفقد الموظف الوعي يقوم بتمزيقه والتهامه!.. وفي النهاية

جن واعتزل العالم .. أعتقد أنه كان أضعف من أن يمارس هذا مع الخادمة التي كانت تعنى به، وهي لم تدخل هنا قط».

«أنت مجنون!»

«أبوك كان غولاً!.. عليك أن تقبل هذه الحقيقة الأليمة».

انفجر الرجل في حشد من الشتائم والهستيريا والاعتراض.. لكنه بعد لأي قرر أن هذا على الأرجح هو التفسير الصحيح، ما دام مؤلف القصة هو من قال هذا .. بدأ يهدأ نوعًا. لكنه لم يقبل الحقيقة ..

«يبقى لغز من أوصد الباب علينا».

قال مصطفى في ثقة:

«لابد أن قوى الشر تستحوذ على هذا المكان .. إنه مكان مسكون لو أردنا الدقة بعد كل ما سفك فيه من دم. لن أندهش لو كان شبح أبيك هو من أغلق الباب علينا ..».

اندفع عاصم في غيظ نحو المطرقة التي فتح بها الصندوق، وهرع نحو النافذة الموصدة .. وأوسع المقبض ضربًا:

«لو ظننت أنني سأبقى هنا أسمع هراءك فأنت مخطئ».

واصل الضربات على المقبض .. بعد قليل تداعى القفل، وصارت النافذة قابلة للفتح .. حرك الضلفتين فتساقطت سحابة كثيفة من الغبار والحشرات .. ثم ظهر شيش خشبي بالٍ ...

لم يحتج لجهد هذه المرة كي يفتح المصراعين، وتسلل النور والهواء أخيرًا إلى الغرفة المقبضة ..

أخذ شهيقًا عميقًا ثم نظر إلى الشارع .. كان هذا هو الطابق الرابع .. الشارع خالٍ ولا أحد يمشي فيه .. من الواضح أن الصراخ بلا جدوى.

نظر أسفل النافذة .. ثم قال وهو يفكر:

«هذا الإفريز تحت النافذة .. لو مشيت عليه في حذر لوصلت إلى (منور) السلم .. »

«لا أحب هذه الفكرة .. أعتقد أننا لو بقينا هنا وحاولنا المزيد من الصراخ ....»

قال عاصم وهو يضع ركبته على إطار النافذة:

«لو بقينا حتى تحل الساعة فلن يسمعنا أحد .. سوف أحاول ببطء شديد ولنرَ».

لم يجد مصطفى الوقت ليعترض .. لقد خطا الرجل خارج النافذة وهو يتمسك بالشيش.. ثم وضع قدميه على الإفريز، وبدا الارتياح على وجهه .. قال وهو يلهث:

«جميل ... سوف أتحرك ببطء شديـــ .....»

وفجأة أطلق صرخة قصيرة وهو ينظر خلف كتف مصطفى .. وهتف :

«أبي!.. لا!».

ثم دوت صرخته وهو يسقط من حالق نحو الشارع ...

التفت مصطفى للخلف فلم ير شيئًا ولا أحدًا .. الغرفة المغبرة الكئيبة جاثمة كما هي ..

فقط يمكنه أن يضع كلمة النهاية.....

النهاية

من جديد وجد مصطفى نفسه في قاعة الاجتماعات .. السادة الجالسون والمدير والمشروبات والشطائر. كانوا يصفقون ويدقون على المنضدة محيين ..

كان مذهولاً

لا يعي ما يدور، فقال المدير وهو يشعل سيجارًا:

«نهاية دامية لكنها نهاية على كل حال .. بعض القراء لا يحبون هذا .. يفضلون النهايات السعيدة، لكنك قدمت نسيجًا لا بأس به ... أهنئك».

قال الرجل البدين:

«ليس أسوأ من قصة لم تكتمل .. معظم الناس يكرهون النهايات المفتوحة، لكن ما فعلته أنت هو النهايات المبتورة .. شيء يشبه السمفونية الناقصة لليست .. وهذا لا يجعل الأمور أجمل».

قال مصطفى وهو يلهث نافد الصبر:

«لقد أكملت القصص كلها يا سادة .. أرجو ان تسامحوني لو طلبت الانسحاب من هذه الجلسة الممتعة ..».

تبادل الرجال النظرات .. ثم قال المدير بعد ما تنحنح:

«بالطبع يمكنك الخروج للمكتبة ..».

هز رأسه محييًا واتجه إلى الباب .. عبر الردهة التي يعمل فيها الُكتّاب.. ثم أزاح الباب الذي دخل منه، فوجد نفسه من جديد في المكتبة العمومية.

مشى بين الأرفف .. هنا استلفت نظره تحت اسم مصطفى اسمه هو .. هناك ثلاث قصص .. الغرفة .. لقاء مع سالومي .. وحيد في الظلام .. لقد اكتملت القصص فعلاً ..

مشى بين الأرفف قاصدًا الباب ..

أمين المكتبة .. نظر له الشيخ الأصلع الذي يطالع روكامبول .. رفع حاجبيه متسائلاً، فقال مصطفى:

«شكرًا لضيافتك».

نظر له الشيخ في دهشة كأنه يرى أحمق ولم يتكلم .. هنا فوجئ مصطفى بأنه لا يوجد باب للمكتبة. الباب الذي دخل منه غير موجود ....

«أين الباب؟ إن حاسة اتجاهي سيئة فعلاً».

قال الشيخ وهو يتثاءب:

«لا يوجد باب يا بني».

«ماذا تعنيه؟».

«ألم تفهم بعد أنك قصة لم تكتمل يكتبها مؤلف آخر؟... هو كتب القصة حتى هذه النهاية، ولا أحد فينا يعرف ما سيحدث بعد ذلك .. المؤلف فقط يعرف كيف ينهي الموقف وكيف يخرجك من هنا!».

ثم أشار إلى مقعد جواره:

«لو كنت مكانك لجلست أطالع رواية طويلة ممتعة .. الحرب والسلام أو إيفانهو مثلاً.. إن جلستك هنا سوف تطول على ما أرى!».

تمت

علاقات زوجية

١

في عيد زواجهما الخامس والثلاثين اعترف حسن ونوال أن زواجهما كان غلطة العمر. أنت ترتكب خطأ وتنزلق إلى علاقة ثم خطبة ثم زواج.. بعد هذا لو كنت محظوظًا يأتي الأطفال.. تبدأ دوامة المدارس والتربية.. التخرج.. الزواج.. ثم يرحلون.. عندها تفيق للمرة الأولى لتدرك أنك لم تكن تريد الزواج أصلاً!

كانت نوال من أسرة ثرية أرستقراطية، وكانت تحتفظ بطابع متعال يصعب ترويضه، أما حسن فكان من نفس طبقتك وطبقتي وقد فاز بها بمعجزة.. هو رجل مكافح من الذين يعودون للبيت ببطيخة والعرق يغمر تحت إبطهم، وكان يقول عن أمه (أمي) وليس (ماما) أو (مامي)، وكانت له قرية يرتبط بها كثيرًا. كان حسن مدرسًا للأحياء وقد قضى حياة شريفة من الكفاح.. وله تلاميذ محبون. أما زوجته نوال فكانت مديرًا في وزارة التعليم، وقد زادها هذا غرورًا لأنها أعلى منصبًا من زوجها.

في سن التقاعد انتقلا ليعيشا في ضاحية بعيدة من المدن الجديدة، وهي حياة أقرب إلى العزلة التامة. الابنة في الخارج.. في كندا بالذات مع زوجها. الابن محاسب يعمل في الإسكندرية وهو مقل في زياراته جدًا. فقد الزوجان أملهما في أحفاد يملئون البيت

ويجعلون الفصل الأخير من حياتهما ممتعًا. الأحفاد مخدر جميل آخر يحفظ العلاقات الزوجية. أحيانًا تستعين الزوجة بفتاة بائسة تقوم بتنظيف البيت وشراء الخضر واللحم من السوق، ثم تشاجرتْ معها – بسبب حدة طبعها – واتهمتها بالإهمال والقذارة وانعدام الأمانة.. وطردتها شر طردة.

«هؤلاء الخادمات لعنة كارثية!»

قالتها في قرف وهي تدخل المطبخ لتكمل الطبخة التي بدأتها الفتاة ولم تكملها.

مع الوقت تعلم حسن أنه من الخير ألا يتكلم إلا فيما ندر. مع الوقت صار الكلام بينهما شحيحًا حتى أن لسانه كان يتعثر في نطق بعض الكلمات لأنه قد يمر يوم أو اثنان دون أن ينطق بكلمة واحدة، وكان هناك مقهى قريب اعتاد أن يتردد عليه.. هناك يشرب قدح قهوة ويدخن الشيشة ويحاول أن يستعمل تلك النعمة التي أعطاها الله له : اللسان. لم يكن يتابع الكرة لكنه تظاهر بأنه زملكاوي متعصب فقط من أجل الجدل.. لم يكن يهتم بالسياسة لكنه راح يتظاهر بأنه معارض صلب من أجل الجدل.. لم يكن يحب لعب الطاولة لكنه علمها لنفسه.

كان يرفض فكرة الطلاق.. لم يعد هناك متسع من الوقت لعمل ذلك. يكفي أن يتجنب لدغاتها ولسانها السليط، ويحاول ألا يشتبك معها في الكلام، وهو يعرف باقي القصة: ذات يوم سوف تجده جالسًا في مقعده في الصالة فتناديه فلا يرد.. تهزه فتكتشف أنه أسلم الروح بنوبة قلبية. ستكون هذه أسعد لحظة في حياتيهما معًا.. إنها تستحق حياة الوحدة والملل.

في الأمسيات الكئيبة – وكل أمسياتهما كئيبة – يجلسان أمام التلفزيون صامتين يشاهدان فيض الصور الملونة، ومن حين لآخر تقول عبارة على غرار:

«عاهرات!.. كلهن عاهرات!»

أو:

«إن الأوغاد في كل مكان اليوم.»

فيغمغم موافقًا.. بينما تمد هي يدها لعلبة التبغ (السوبر) فتشعل لفافة وتضع ساقًا على ساق وهي تسحب نفسًا عميقًا.. لقد تعلمت التدخين بعد سن التقاعد، وهو كان يمقت التبغ ورائحته، لكنه شعر

بأن هذا يتفق مع شخصيتها. لابد من اكتمال الصورة. ينظر لوجهها المجعد وشفتيها القاسيتين المزمومتين وهالة الشعر الأشيب وزجاج النظارة الذي تنعكس عليه الأضواء. عندها كان يشعر كأن هذه المرأة هي الموت.

لم تكن صحته على ما يرام. ارتفاع ضغط الدم كان شديدًا وقد أخبره الطبيب أن عليه أن يفعل شيئًا بسرعة. اضطر لخفض وزنه وقلل الملح في الطعام وراح يبلع ترسانة كاملة من غالقات قنوات الكالسيوم وغالقات البيتا. لكن جسده لم يعد يعمل جيدًا.. كان يدرك هذا ويفهمه.. ومع الوقت لم يعد يذهب للمقهى كثيرًا، لأن صعود وهبوط الدرج لم يعد مريحًا... كان يقف أسفل الدرج ويتنهد وهو يفكر في عدد الدرجات التي عليه أن يصعدها. ثم يتوكل على الله ويرفع قدمه.

أما الزوجة فكانت صحتها ممتازة، لكنه بدأ يدرك أن عقلها ليس على ما يرام.

كيف عرف هذا؟.
كانت لا تكف عن الحديث عن الجان والعفاريت.. صارت تراهم في كل مكان من الشقة، وتتحدث عن أنها تراهم في كل ركن وأنهم يتواجدون معها في الحمام. كانت تنثر الملح في البيت في

أوقات معينة.. وكانت مولعة بالبخور إلى حد كبير. أي أن رائحة البيت كانت خليطًا من السجائر والبخور.

أم عزيزة كانت هي المعلم الخصوصي للسحر الذي يزور المرأة بانتظام. سيدة ريفية مدثرة في ثياب سود ولها نظرة ثاقبة شريرة، وكانت تزور الزوجة بانتظام كل أسبوع تقريبًا حيث تمضي معها بضع ساعات.. تشربان القهوة ثم تقلب القدح لتقرأ البخت لنوال. وعندما يعود من المقهى كانت أم عزيزة ترخي الطرحة على وجهها وتعلن أنها أطالت الزيارة وعزيزة وحدها في البيت.

لم يحاول أن يسأل نوال عن هذه المرأة لكنه قدر أنها هي التي علمت زوجته السحر، وكان للمرأة حضور غير مريح موجس كريه. ذات ليلة قال لنوال بشكل عابر إنه لا يرتاح لتلك المرأة.

«سيدة مسنة مثلك وتعيش هي وزوجها وحيدين.. ألا يبدو الأمر كبداية ممتاز

ة لقصة في صفحة الحوادث؟»

قالت في سخرية:

«وهل تعتقد أن أم عزيزة ستقتلنا وتسرق البيت؟»

-«ليس أم عزيزة لكن زوجها.. وهو على الأرجح مدمن مخدرات لا يتورع عن شيء.. »

قالت في عصبية وهي تشعل لفافة تبغ أخرى:

-«لست طفلة صغيرة.. أعرف كيف أعنى بأموري»

وكانت هذه هي نهاية المحادثة، لكنه كان يشعر بأنه زوجته تقع تدريجيًا تحت تأثير أم عزيزة.. وكانت المرأة تحضر لها أشياء غامضة في لفافات كانت نوال تخفيها في حرص. كان هو يتخيل ما يمكن أن يكون هناك.. لابد أن ضمن هذه الأشياء تراب مقابر.. لا يتم أي سحر حقيقي من دون تراب مقابر.

كان يشعر بقلق من اضطراره للحياة مع امرأة متسلطة عصبية، ثم – والأدهى – مجنونة.

الأمر يتشكل ببطء.. في البداية يشعر بأنها تغيرت.. ثم يشعر بأنها تسوء.. ثم يفيق ذات يوم ليجد امرأة يسيل اللعاب من فمها ومنكوشة الشعر.. عندها يفطن للحقيقة: هي مجنونة تمامًا.

كان مستعدًا لتقبل حياته بهذا الشكل، إلى أن جاء اليوم الذي دخل فيه الحمام بعدها. ثمة شيء مريب هنا. ثم فطن إلى أنه يعرف هذا الشيء.. لبن!.. لقد نفذت زوجته كتاب السحر حرفيًا فاستحمت باللبن!

٢

م يكن ثمة مجال للخطأ فاللبن في كل مكان من الحمام .. لا أحد يخطئ ويسكب اللبن – حتى لو فسد – هناك. وقد شعر بدرجة من التقزز فالمصريون يعتبرون اللبن والعسل سائلين مقدسين نوعًا لا يقبلان الإهانة ..

تناول كوز الماء المعدني وراح يحاول غسل هذه المأساة، وبالطبع أدرك أنه لن يكلمها عن هذا. إما أن تكون هذه آخر شعرة في عقلها فتنفجر فيه، وإما أن تؤكد وتقسم أنها لم تفعل وأن الجان هو الفاعل ..

أنت لا تستطيع لوم نوال على شيء .. اللوم يحتاج إلى درجة من المودة والتواصل غير موجودة هنا..

مرت عدة أيام من الصمت، لكنه بدأ يلاحظ ممارسات أعقد .. هناك كيس الغبار الموضوع على البوفيه. بالتأكيد هو غبار مقابر. لقد جاء دوره منذ زمن، وهو لا يجرؤ على فتح اللفافة ..

ما فعله هو أنه حمل اللفافة وألقاها في صفيحة القمامة وأغلقها، وفي اليوم الثاني كانت زوجته تفتش كالمسعورة عن هذا الشيء المختفي. شعرها الأشيب ونظراتها المجنونة وبدانتها وهي تمشي كالبطة محاولة أن تحرك عظمتي الحرقف .. لكنها والحق يقال كانت تمشي بسرعة وخفة، وكم من مرة فوجئ من خلفه بوجودها. لقد دخلت الغرفة دون أن يعرف كيف ولا متى ..

كان يفضل الصمت، وراح يتردد على المقهى لساعات أطول لدرجة أنه نام ذات مرة وهو جالس على المقعد الخشبي فبردت القهوة التي طلبها. ولم يفق إلا مع لمسة من يد القهوجي على ساعده ..

-«خير يا أستاذ حسن!.. هل أنت مريض؟»

-«أنا بخير .. فقط لم أنم بما يكفي»

صار مع الوقت يخشى لحظة العودة للبيت، خاصة عندما تجلس معه أمام التلفزيون لمشاهدة المسلسلات.. شفتاها تتحركان بكلمات هامسة طيلة الوقت. لم يعرف قط ما تقوله لكنه كان يخشاه ..

أرسل لابنته في كندا خطابًا طويلاً.. يكتب بصعوبة بسبب مشاكل البصر .. كتب لها يقول إنهما بخير من الناحية الصحية والمادية، لكن عقل أمها لم يعد على ما يرام. كان يدرك أن الابنة سوف تتجاهل هذا .. تهمة الجنون تلصق بأمها في كل المشاجرات الزوجية منذ زمن، وسوف تعتبرها الابنة تهمة أخرى. كان هو قد اتهم أسرتها كلها بأنها تحمل جينات الجنون .. أطلق هذا الاتهام منذ عشرين سنة ..

اتصل بابنه في الإسكندرية وقال له إنهما بخير ..

-«ألا تنوي أن تمر علينا قليلاً؟»

«هل هناك مشكلة ما؟»

-«قلت لك إننا بخير .. لكن حالة أمك العقلية تثير قلقي»

«مثل ...؟»

-«تزداد إيمانًا بالسحر والجن والعفاريت .. إنها تلك المرأة المسنة أم عزيزة. جعلتها تعيش في عالم من الشياطين تراهم وتلمسهم كل يوم .. لا أعرف ما أفعله. ربما لو أنك زرتنا بعض الوقت»

كالعادة لا وقت لدى هذا النذل كي يساعد في إعادة الدفء لبيتهما.. أنا مشغول جدًا يا بابا .. خلافاتكما شيء لا يمكن إصلاحه إلا من خلال علاقتكما ببعض.. لكن .. سوف آتي للقاهرة لكن ليس هذا الشهر أرجوك .. أنت تعرف ظروف البيت والأولاد والعمل ..

هكذا وضع السماعة وقرر أن الله هو الحافظ الوحيد. لن يستطيع أحد أن يعيد زوجته للتعقل سوى زوجته أو أم عزيزة ..

صار الأمر لا يطاق عندما فتح صفيحة القمامة ذات يوم فوجد فيها حشدًا من الحمام المختنق .. حمام ميت لا يقل عدده عن عشر.. نادى زوجته في غضب وقال لها إن الأمر لا يطاق .. لن تزعم أنها اشترت هذا الحمام ميتًا .. لن يمر وقت طويل قبل أن تمتلئ هذه الصفيحة بالوطاويط ..

قالت في تبجح:

-«وكيف لي أن أعرف؟ أنا لم أضعه هنا»

-«وأنا كذلك لم أضعه هنا»

-«إذن هم بسم الله الرحمن الرحيم .. ليس لدي تفسير آخر»

ثم أشعلت لفافة تبغ وابتعدت تاركة إياه يغلي غيظًا ..

في ليلة ١٨ ديسمبر ذهب إلى المقهى. كانت هناك مباراة كرة لا يهتم بها، لكنه راح يتابعها ويهلل وهو يحسو القهوة .. جاء رجائي المحامي المسن وجلس معه. شلة المقهى تكتمل ككل ليلة وهم كلهم مسنون سوف يموتون واحدًا تلو الآخر. رجائي المحامي في الستين الآن ويعاني الصلع لكنه يصفف شعره بالماء والفازلين بطريقة تغطي هذه الصلعة تمامًا، لكن هذه العجينة تتلاشى في لحظة بعينها فيبدو منتفش الشعر كالديك.

لما انتهت المباراة وبدأ المقهى يخلو من الزبائن قال له رجائي:

-«تبدو مرهقًا حزينًا»

«إنها نوال كالعادة»

«لم لا تفكر في الطلاق؟.. يجب أن تمضي آخر أعوام لك في سلام»

-«تعنى بي»

-«يمكنك أن تجد من تعنى بك بأجر .. أو اذهب لتقيم عند ابنك في الإسكندرية»

لكنه كان يعرف أفضل .. هو وزوجته أفضل اثنين لبعضهما حاليًا، وعلى الأقل لن يموت أحدهما جوعًا .. ليس أمامه من ملجأ

سواها في الأعوام القليلة الباقية .. لن يتركها تموت وحيدة ولن تتركه يموت وحيدًا. لربما كان الموت في وجود غول معك في الغرفة أفضل نوعًا من الموت وحيدًا.

ودع رجائي ووعده بأن يهتم بصحته .. ثم عاد في بطء وتثاقل للبيت، وهو يشعر بأن المسافة عدة أميال. المشكلة هي صعود الدرج المتعب .. المشكلة هي نزع الثياب الثقيلة .. المشكلة هي النوم جوار تلك الشمطاء. لكن العشاء ينتظره على الأقل ..

في الأيام التالية صار أكثر بقاء في البيت، وصار ينام على الأريكة

ساعات طويلة وفمه مفتوح من إرهاق.. حتى أنه قدر ساعات نومه بخمس عشرة ساعة يوميًا .. ليس أقل من هذا .. ولم تكن هي توقظه أبدًا ..

هل هي تمارس السحر معه؟ هل تدس له شيئًا في طعامه؟ لم يبدُ له هذا منطقيًا فهي في النهاية لا ترغب في حياة الوحدة .. امرأة مزعجة لكنها بشرية على كل حال ..

الجواب هو أنه يتقدم في العمر .. لا شك في هذا .. الباب الذي في نهاية الردهة بدأ ينفتح ..

كان جالسًا يشاهد مسلسلاً سخيفًا في الصالة وهي في غرفة النوم، عندما شعر بسخونة غير عادية .. ماذا حدث؟ نحن في ديسمبر .. العرق يسيل وصفير مدو في أذنه .. ماذا يحدث؟.. صداع رهيب كأن هناك من يشق رأسه بمنشار. العرق .. إنني أختنق .. الصالة تظلم وشاشة التلفزيون تشحب ..

«نواال!»

قالها في رعب لكن الصوت خرج مكتومًا .. أدرك أنه لا يستطيع الكلام بشكل صحيح. الحروف تخرج من فمه معجونة ..

عندما حاول النهوض أدرك أنه لا يملك القدرة بتاتًا .. جسده متدلٍ بلا حبال تمسك به. الصفير يتعالى .. إنه الفالج لا شك في هذا .. هناك سكتة دماغية أو جلطة أو نزف .. المهم أنه شيء ما لعين حدث هناك ...

نوال .. ناداها في وهن ...

كان وعيه ينسحب ببطء وخطر له أن هذا هو الموت ..

٣

إلهامي يقول له لم لا تفكر في الطلاق؟ أبوه يبرز من خزانة الثياب ويقول له يجب أن تطرد أم عزيزة.. إلهام فتاة المراهقة تأمره بأن

يجمع غبار المقابر .. إنه حبيس في قبر محكم الغلق يحاول التحرر .. يتناثر الغبار ليملأ فمه .. يصرخ فيختنق. يدق بيده على الجدار فتتكون ثغرة يطير منها الحمام الميت ... فجأة هناك بحر من لبن يجب أن يخوض فيه .. في الجهة الأخرى وجه الشمس الصارخة تستغيث به ..

يحاول العبور لكنه لا يقدر .. يوشك على الغرق.. يرى الشمس من جديد ثم يدرك أنها مصباح الغرفة.

إنه نائم على ظهره في الفراش يحاول أن يتحرك بينما ضوء المصباح يعميه.. كانت نوال تطل عليه من أعلى وهي تجفف عرقه .. للمرة الأولى أدرك أن العرق يغمره لدرجة الغرق وأنه يشعر ببرد رهيب. كما أدرك أن سرواله مبلل .. لقد فعلها.. بدت له قبيحة جدًا مخيفة جدًا وهي عكس الكشاف الوهاج .. قال لها:

«أنا .. أنا مريض جدًا».

حاول أن يقول هذا فخرج الكلام مختلطًا .. أدرك أن نصف فمه لا يتحرك .. لسانه ثقيل .. أصابه هلع كامل..

حاول أن ينهض فلم تطاوعه قدماه ولا يداه .. لا يستطيع ترجمة الانقباضات العضلية إلى فعل نهوض. أنا مشلول! أدرك هذا بوضوح فلم يحتج إلى وقت طويل للفهم. نصف جسده الأيمن هامد تمامًا.

قالت له وهو يئن محاولاً إخراج صوت مفهوم:

«لا تقلق .. سوف تكون بخير»

ثم هي تنزع عنه سرواله كطفل .. تجفف ما بين فخذيه ثم تضع سروالاً جديدًا، ثم هي تجلسه بالقوة وتدس وسادة خلف ظهره، وتنزع الثياب عن نصفه السفلي، لتبدلها بثياب أخرى جافة .. ليس هذا الوقت المناسب عليك اللعنة! ليس وقت جفاف.. اطلبي الإسعاف !

لكنها لا تبدو مهتمة سوى بنظافته .. ثم أنها تدحرج جسده بشكل محترف لليمين لتنزع الملاءة من تحته ثم تدحرجه لليسار لتنزع باقي الملاءة، ثم تدحرجه بالعكس لتدس ملاءة نظيفة تحته.. شعر ببعض الراحة لدى ملامسة القماش النظيف، لكنه ظل ينتظر أن تطلب الإسعاف.. ليس الحين حين ملاءات جافة بل هو وقت أشعة مقطعية ورنين مغناطيسي...

قالت له ضاحكة:

-«حاول أن تنام قليلاً .. سوف تكون أفضل!»

قال بلسانه المعوج:

«أنا مصاب بجلطة في المخ .. لابد من طبيب أمراض عصبية»

قالت في حزم:

«لا أفهم حرفًا مما تقول .. وفر جهدك .. أنت بحاجة لبعض النوم»

وقبل أن يجد الوقت الكافي كانت قد غابت عن مجال الرؤية .. لقد تركته حيث هو. وأدرك في رعب أنه يبكي بحرارة .. عدم الاستقرار العاطفي يميز جلطات المخ عامة، وقد راح يبكي كطفل في الظلام .. الرعب يغمره والصدمة..

أطفأت النور في الغرفة، ووجد نفسه وحيدًا في الظلام.

**

بعد ساعات من النوم المضطرب المفعم بالكوابيس بدأ يعود لوعيه. لقد صار الأمر ثابتًا وواضحًا .. إنه يمر بالمراحل الأولى من شلل نصفي .. لقد استقر الأمر سواء كان يشكو من جلطة أو نزف فقد صار حقيقة واقعة ..

انفتح الباب وظهرت نوال .. كانت تحمل صينية عليها سلطانية عدة أشياء .. وضعتها على الكومود ثم رفعته بذات القوة، ثم وضعت الوسادة خلف ظهره ليصير في وضع جالس. قال محتجًا:

«طبيب! أريد طبيبًا !»

قالت كأنها توبخ طفلاً:

«لا تضيع وقتك .. لا أفهم حرفًا مما تقول .. حاول أن تهدأ يا حسن ..»

ثم وضعت الملعقة في السلطانية وقربتها من شفتيه .. حساء لسان عصفور لكنه ساخن جدًا .. حاول أن يعترض لكنها دست الملعقة وأفرغتها .. جففت شفتيه في عصبية ودست ملعقة أخرى.. لا يريد .. تحريك عضلات الفم صعب جدًا لهذا راح يبتلع. هناك صدر دجاجة مزقته إربًا ثم راحت تدس منه في فمه.. ثم أنها جففت شفتيه من جديد، ودست كوبًا من العصير .. هذه المرأة مجنونة ! إنها تتعامل باعتبار الحياة قد عادت للروتين السابق. سوف يستمر كل شيء كما كان .. لن تطلب عونًا أو الإسعاف بل ستتولى تمريضه وتبديل ثيابه إلى أن يموت .. هذا مستحيل!

مضت الساعات .. لا يعرف إن كان هذا نهارًا أم ليلاً.. فقط يرى بصيصًا هزيلاً من النور عبر خصاص النافذة المغلقة. يرى رقصة الظلال في الغرفة وخزانة الثياب الضخمة العتيقة التي اشتراها من دمياط منذ ٣٥ سنة.. الغرفة كلها كانت بمائة جنيه. مع الوقت صارت قطع الأثاث هذه ترمز للهزيمة .. يكره كل ركن في هذه الغرفة، وهو لا يطيق فكرة أن يموت هنا. كان قد اختار

لنفسه ميتة جميلة .. نوبة قلبية وهو جالس في المقهى وسط الأصدقاء والصخب .. لكن لا يبدو أن هذا ممكن.

لا يستطيع الوصول للهاتف أو طلب العون. ليس له أن يأمل إلا في زيارة من ابنه.

حسن .. أنت وقعت في الفخ .. ألعن فخ يمكن تصوره.

عند المساء – هكذا قدر – ظهرت على الباب وهي تحمل في يدها مبخرة تتصاعد منها سحابة كثيفة من الدخان .. راح يسعل بينما هي تدور في الغرفة وفي فمها لفافة تبغ مشتعلة، ثم وضعت المبخرة جوار الفراش .. رآها تمزق قطعة من الورق على شكل إنسان، ثم تغرس فيها دبوسًا عدة مرات .. رآها مرارًا تفعل هذا من أجل (العين) تقية الحسد، ثم أنها وضعت الورق في المبخرة ليتوهج ويشتعل .. ظلت تراقب الرماد ثم قالت له:

«هذا وجه فاطمة .. أختك .. هي صاحبة العين!»

هو لم ير فاطمة منذ أعوام، ولا تملك أي سبب لتحسده. إنها ثرية وزوجها طيب وأولادها يحبونها .. لديها كل ما يجعله يحسد فاطمة لا العكس ..

نام لبضع ساعات .. الهم والخوف يثقلان على روحه. يا رب .. خذني الآن وفورًا قبل المزيد من العذاب. هذه المرأة قادرة على أن تخسف بي الأرض ..

لما فتح عينيه أدرك أن في الغرفة ضوءًا خافتًا .. الضوء قادم من شمعة مضاءة هنا في صحن من الماء. جوار الشمعة استطاع أن يرى سيدة جالسة .. إنها نوال بلا شك .. تغطي وجهها بالكامل بقطعة من القماش .. وتحت القطعة كانت تتكلم .. تصدر أصواتًا مخيفة كأنها في جلسة روحانية تلعب دور الوسيط..

أرجوك يا إلهي .. خذها أو خذني الآن.

٤

موعد حساء لسان العصفور.. في طفولته كان يعتقد أن هذه ألسنة ألف عصفور تم تعذيبه واقتلاع لسانه. وكانت الفكرة تثير ذعره. اليوم يشعر بالرعب ذاته ونوال تدس الملعقة في فمه ..

بعد الأكل دست الأقراص التي يتعاطاها بين شفتيه مع رشفة ماء. لربما أعطت نفس القرص مرتين أو أغفلت قرصًا، ثم من قال إن العلاج الذي كان يتعاطاه ما زال صالحًا؟

سال الدمع من عينيه حارًا ثخينًا وصرخ:

«أريد طبيبًا!.. أريد المستشفى!»

لكن الصوت خرج منه غير مفهوم .. كل الحروف مدغمة، وقد بدا بعض التأثر على ملامح المرأة ومصمصت بشفتيها، وقالت:

-«لا أفهم حرفًا .. حاول أن تهدأ .. مسكين!»

وعندما يتوغل الليل كانت تحضر مقعدًا وحزمة خيوط الكانافاه .. ثم تجلس بقربه معتقدة أنها تبعث الدفء العائلي في الجلسة. وكان هذا مزعجًا لكنه أرحم قليلاً من تلك الليلة السوداء التي راحت فيها تتصل بالأرواح.

تجلس على بعد متر منه تنسج. والحقيقة أنها كانت تجيد الكانافاه فعلاً فكانت تصنع لوحات ضخمة متقنة. الجنون لا يرتبط بانعدام الموهبة ..

كنت تقول له بنفس النغمة الرتيبة كل ليلة:

-«عندما ذهب الخادم ليسجل اسمي في مكتب الصحة، خجل من أن يسميني (نوال) هكذا، فقال للموظف إن اسمي نوال هانم. كنت مولودة وفي فمي ملعقة من ذهب .. درست في مدرسة (...) حيث صارت الفرنسية تتدفق على شفتي. ولا أذكر يومًا لم تأت السيارة لتقلني من وإلى المدرسة.. قالت لي أمي إنني سأتزوج ملكًا أو أميرًا. عندما تقدمت لي وأنت من أسرة فقيرة خطر لي أن الأمر

سيكون رومانسيًا، وإنك نموذج الشاب المكافح الذي شيق طريقه إلى القمة كما يحدث في الأفلام. كنت صاحب عينين حزينتين شفافتين وكلمات منتقاة بعناية. وقد قالت أمي إنك لا تصلح .. قال أبي إنك لا تصلح .. لكني أصررت على رأيي، واعتقدت أنني سأكون سعيدة مع شخص أكافح معه»

ثم تنفث سحابة دخان كثيفة وتردف:

«صرت أنا مديرة مهمة في التربية والتعليم، بينما ظللت أنت تتعثر كمدرس .. تحاول ان تصنع مالاً من الدروس الخصوصية. كنت تكافح لكنك لا تملك مؤهلات النجاح .. قبل أن أتساءل عما إذا كنت قد أحسنت الاختيار كان الأولاد قد أتوا .. نرمين وعماد .. وانهمكت في لعب دور الأم المخلصة ونسيت نفسي أعوامًا طويلة .. غيبوبة عشت فيها ٣٥ عامًا إلى أن تزوج الجميع وخلا المسرح من المتفرجين. عندها أدركت الحقيقة: أنا أسأت الاختيار»

نظر لها في رعب .. إلام تفضي هذه المقدمة إذن؟ ماذا تحاول قوله؟

رأت الرعب في عينه فقالت وهي تسعل:

«لا تخف .. ليس معنى أنك لم تكن مناسبًا أنني أكرهك. سوف أعنى بك كأي زوجة محترمة يمرض زوجها، أنا بنت أصول ولسوف أريك معنى هذا ..»

كانت العبارة الأخيرة مخيفة ولا تبعث الراحة في النفس. ثمة عبارات لها تلميحات غامضة..

كانت تحلم:

«عندما ولدت نرمين .. شعرت بأنني مستعدة كي أتصالح مع العالم .. كانت أقرب لدمية صغيرة جميلة، وقد شعرت بامتنان لك لأنك منحتني إياها .. أعتقد أنني قضيت أسعد ٢٨ عامًا في حياتي لوجود هذه الدمية معي. كان عماد مختلفًا .. كان أقرب إلى الحرص على مصلحته وقد قلت لي مرارًا إنك تعرف أن علاقته بنا ستنتهي عند زواجه .. الواقع أن هذا كان صحيحًا. يعطيني عماد دومًا الشعور بأنه مشغول جدًا ولا وقت لديه لكلام البنوة الفارغ. كان المرء متأهبًا ليبدأ حياة جديدة بعد رحيل الطفلين.. لكن الأمر يذكرني بدعابة الأحمق الذي كان يتدرب على الهبوط بالمظلة. قيل له اجذب الخيط لتنفتح المظلة على ارتفاع ٣٠٠ متر، ولكنه نسي .. نسي فلم يتذكر إلا على ارتفاع ٢٥ مترًا. قال لنفسه: لا مشكلة .. سوف أثب هذه الأمتار القليلة!.. »

وراحت تضحك والسعال يشخشخ في صدرها .. كل لفافات التبغ بالداخل تريد التحرر، ثم قالت:

«هذا ما حدث معي .. قلت لنفسي إن ما بقى فترة قصيرة جدًا .. فلأتحملها إذن .. »

ثم قطعت خيط الكانافاه وقالت:

«لكن الفرصة اليوم قد جاءتني لأعنى بك .. لأقدمن لك خدمة العمر .. لسوف تحمد الله على أنني زوجتك»

ودفنت لفافة التبغ في المطفأة ثم نهضت تاركة رائحة الغرفة خلفها لا تطاق ..

**

جرس الباب يدق في إلحاح ...

ثم صوت زوجته تصيح:

ـ«أنا قادمة»

تدفع شحوم جسدها وتقود ردفيها نحو الباب وهي تلهث كديناصور من العصر الباليوزي. يمكنه أن يراها تمشي كبطة بسبب آلام قدميها. يسمع صوت الباب ينفتح .. هذا حادث فريد من نوعه لأن

أحدًا لم يعد يزورهم، ونوال تنزل مرة كل أسبوع لتبتاع حاجيات البيت بعد ما طردت (مقصوفة الرقبة)..

صوت الباب ينفتح، ثم صوت مألوف يقول:

-«هل أستاذ حسن بخير؟»

أنا هنا يا رجائي .. رجائي المحامي الأصلع العزيز ...

صوت نوال:

-«هو في الإسكندرية مع ابنه منذ فترة»

«لقد كف عن المجيء للمقهى منذ فترة. هاتفه غير متاح أو مغلق .. لم تكن هناك طريقة للاطمئنان عليه، وقد طلب مني الرفاق أن أطمئن عليه.. »

صوت نوال:

«الحمد لله هو بخير .. زيارة مفاجئة، لكن ابنه أصر على استبقائه»

بدأ حسن يزوم بصوت عال .. راح يضرب الفراش برأسه و

يصرخ ..الغوث !... انا هنا يا رجائي .. تعال لتنقذني!.. خذني إلى المستشفى. مد يده السليمة .. بصعوبة استطاع أن يلمس الكوب .. رفع ذراعه ثم ألقى به بقوة.. اصطدم بالجدار فتهشم إلى عشرات القطع. لا شك أن الصوت كان عاليًا جدًا ...

صوت رجائي:

-«هل هناك أحد هنا؟»

قالت نوال في لهجة عابرة:

-«لا شيء .. إنه القط قد أسقط كوبًا بلا شك»

«هل لديكما قط؟»

ضحكت ولم تعلق .. ثم عادت تسأل بصوتها الخشن:

«لم لا تتفضل بعض الوقت؟»

كانت (عزومة مراكبية) طبعًا، فشكرها بحرارة وارتباك وانصرف .. وسمع حسن الباب ينغلق. هذا باب أمل يغلق، فالرجل اطمأن على صاحبه ولن يرجع. لن تكون هناك محاولات أخرى قبل شهر.

ظهرت نوال على باب الغرفة .. نظرت له حيث رقد على الفراش، ثم اختفت وعادت حاملة مكنسة وجاروفًا .. وراحت في صبر تجمع بقايا الكوب المهشم من على الأرض.. لم تقل شيئًا ولم تلمه .. رباه!.. لم تقل شيئًا ولم تلمه .. هذه المرأة تزداد خبالاً..

صحا من النوم .. لعلها كانت الثالثة بعد منتصف الليل. كان غارقًا في العرق يلهث ..

حرك ذراعه اليمنى وثنى اصابعه .. استغرق لحظة ليدرك أنه حرك أجزاء مشلولة من جسده!.. إنه يتحسن!.. لعل النزف ينحسر أو لعل أوعية جديدة تغزو الجلطة. ما زال واهنًا تمامًا، لكنه مع التمرين اليومي يمكن أن يتحسن أكثر .

لم يرد أن يخبرها ... هو يخشاها كالجحيم. من الأفضل أن يبقي ورقة في كمه.

لكنه لم يعرف أنها بدورها تخفي أوراقًا كثيرة في كمها.

٥

كان يخشى أن يجرب صوته فتسمعه .. فضل الصمت وإصدار صوت خرير .. لا يضمن ما سيحدث لو اكتشفت أنه صار قادرًا على نطق الحروف. لكن هل هو قادر فعلاً؟ لا يدري.

يقضي الوقت في الظلام يفتح ويغلق أنامل يده اليمنى محاولاً الحفاظ على هذه الهبة التي ظفر بها .. وراح يثني الرسغ ثم يحاول فتحه باليد اليسرى .. يثني الساعد ثم يحاول فتحه. أربع وعشرون ساعة من التمرين ..

لا شك أنه بدأ يتحسن .. لكن ماذا لو صارحها بذلك ؟ لا شك أنها ستزيد القيود عليه.

عليه أن يختزن قواه ويتأهب للحظة المناسبة ..

هناك كان أبوه المتوفى يقف جوار الفراش يهز رأسه في أسى وينفث دخان التبغ:

ـ«لشد ما آذتك يا بني .. تلك الشمطاء لم تكن مناسبة لك كما قلت لك»

تقول الأم وهي تستند إلى العكاز:

ـ«أنت لم تصدق أن فتاة أرستقراطية كهذه معجبة بك .. أصررت على أن تتزوجها وكان عليك أن تدفع الثمن. لعلك لم تجرب السعادة يومًا واحدًا في حياتك»

يدنو أبوه من الفراش وينحني ليجثو على ركبتيه ويلقي نظرة، ثم يقول في أسى:

-«هي كذلك تتسم بالقذارة .. لم تنظف ما تحت الفراش من فترة، والآن أرى أن ثعبانًا يلتف هناك !»

يصرخ حسن في جزع:

-«أنت تبالغ يا أبي .. مستحيل أن يكون هذا حقيقيًا»

يقول الأب في حكمة:

-«لو أن بوسعك أن تزحف تحت الفراش لرأيت ما أعنيه .. على كل حال من الواضح أنه ليس ثعبانًا سامًا. هي فقط تمارس طقسًا سحريًا ما»

قالت الأم في شفقة:

-«هناك وطواط ميت في خزانة الثياب .. الواقع أنك تعيش في وكر ساحرة يا بني. والمشكلة هي أنك غير قادر على الهرب !»

ثعبان !.. هل هي هلوسة أم أن هذا حقيقي. زحف إلى حافة الفراش وتحامل على نفسه ليلقي نظرة .. هناك من تحت الفراش رأى الشيء الأسطواني البشع يزحف بشكل بطيء شرير .. أصابته حالة هستيريا فراح يصرخ .. يصرخ بصوت رفيع كأنه

فتاة مراهقة .. إن هذا صحيح .. رباه !.. إن هذا صحيح !.. رباه .. أبوه على حق..

ومن مكان ما ظهرت نوال زاحفة كالديناصور .. تجر ردفيها الهائلين والسيجارة بين شفتيها. وقفت على الباب تحاول الفهم بينما هو يكرر في جنون:

-«ثع.. ثع .. ثعبان !»

قالت بلهجة باردة:

-«أنت صرت مخرفًا بالكامل»

ودت من الفراش ووقفت ترمقه للحظة، ثم أنها انحنت ورفعت طرف الملاءة .. لم يعد هناك شيء على الأرض .. اختفى الجسم الأسطواني. قالت له:

-«ثعبان ؟.. أين هو ؟»

الواقع أنه لا يوجد شيء .. لكنه كان متأكدًا من أن حواسه لم تبلغ هذه الدرجة من الهذيان ..

ابتعدت بعض الوقت، ثم أنها عادت للغرفة .. كانت تحمل إناء من البلاستيك و.. وسكينًا .. ومنشفة ....راح يرمقها بعينين

خرساوين، بينما كانت هي تضع المنشفة تحت رأسه وتحكم وضعها بحيث لا تتسخ الوسادة .. كانت تلهث من الجهد .. قالت له وهي تجلس على حافة الفراش:

-«فيما مضى كنا نلجأ إلى الصفد .. كان هناك حلاق صحة في كل حي، لديه مرطبان مليء بالعلق .. وكان يستخدم هذا العلق في امتصاص الدم الفاسد .. ثم مع الوقت عرفنا الحجامة .. إنها علاج شعبي معروف ومفيد»

فتح فمه معترضًا، لكنها كانت قد وضعت الوعاء البلاستيكي تحت رأسه كأنها ستنحره .. حاول المقاومة فثبتت رأسه بيدها الخشنة، ثم أنها هوت بطرف السكين الحادة على جانب صدغه ..

-«الحجامة .. سوف تريحك حقًا !»

راح يئن بينما هي تحدث جرحًا .. جرحين ... ثلاثة جروح متوازية .. ينهمر الدم ليملأ الوعاء ..

-«هذا كله دم فاسد ...»

في النهاية راحت تكبس الجروح بقطعة شاش قوية الرائحة. أدرك أن هذه رائحة بن .. البن يوقف النزف حسب الاعتقاد الشعبي، ثم أنها بدأت تضميد موضع الجروح وألصقت لكثير من البلاستر ثم حملت الوعاء ..

-«غدًا نكرر العلاج !»

ظل راقدًا وحده في الظلام يقاوم الألم الكاسح الذي يمزق جبهته. يرتجف من الداخل بلا توقف. هنا دنا أبوه من الفراش ووضع يده الباردة على جبينه .. قال له:

-«لم يعد هناك سوى حل واحد»

-«وما هو ؟»

-«نوال يجب أن تموت»

قال حسن وهو يضغط على أسنانه ألمًا:

-«أولاً لا أستطيع أن أفعل .. ثانيًا من يعنى بي لو ماتت ؟ هي تطعمني وتبدل ثيابي»

-«لربما كان الموت من دونها أسهل وأقل تعذيبًا»

لم يستطع أن يواصل المحادثة لأنه فقد وعيه من شدة الألم .. غيبوبة لها رائحة البن والدم معًا ...

عندما فتح عينه استطاع أن يرى ذلك الشيء على الجدار .. يمشي على خزانة الثياب في رشاقة غير مبال بقوانين الجاذبية .. إنه فأر ! لم يستطع أن يفهم إن كان هذا فأرًا متسللاً أم أن المرأة هي التي أتت به. لا داعي للصراخ فهي سوف تؤكد أنه لا يوجد أي فأر هنا ..

ثمة شيء في الضوء الخافت في مجال عينه ..

التفت ليلقي نظرة .. أدرك أن هذا الشيء هو سكين الفاكهة موضوعة على الكومود الأيمن. سكين مدببة جميلة المنظر.
بصعوبة راح يسند يده اليمنى باليسرى إلى أن تمكن من أن يوجهها .. تحررت يده اليمنى ثم بدأت تزحف إلى السكين .. في النهاية أطبقت يده عليها. ناولتها يده اليمنى ليده اليسرى وبعد جهد جهيد استطاع أن يضعها تحت الوسادة ..

الصباح:

كانت قد جاءت حاملة حساء لسان العصفور .. أجلسته في الفراش ثم بدأت تدس الملعقة بين شفتيه ..

ـ«هل تعرف يا حسن ؟ أنا فعلاً أميل لك بوضعك الحالي .. عديم القوة تعتمد بالكامل علي. أشعر بأنك طفل رضيع وهذا الشعور يروق لي .. أتمنى ألا تشفى أبدًا»

قالتها ولم تضحك .. وجففت الطعام عن شفتيه ولم تنتظر كي يبلع بل دست ملعقة أخرى، ثم قالت:

ـ«أنت تتحسن بفضل الحجامة .. اليوم سوف آخذ المزيد من الدم ..»

كانت هذه هي اللحظة ..مد يده تحت الوسادة .. أطبق على السكين. انقض على عنق المرأة وقد قرر أنه لا مجال للتردد .. لو لم تمت فهو ميت .. انغرست السكين في عنقها فنظرت له بغباء. أخرج السكين بصعوبة وغرسها من جديد. أنشبت نوال مخالبها في عنقه وجحظت عيناها غضبًا .. لكن فاتها الوقت كي تتجنب طعنة ثالثة ..

سرعان ما تهاوت لتسقط على الأرض وسط بركة من الدم .. أطلقت بعض الضوضاء ثم همدت تمامًا..

تحامل على نفسه حتى سقط من فوق الفراش فوق جسدها البدين .. ثم بدأ يزحف نحو الباب .. لابد أنه زحف ربع ساعة نحو باب الشقة. يجب أن يفتح باب الشقة بأي طريقة لكن كيف؟... كيف يرتفع إلى مستوى المقبض؟ لا يوجد مزلاج لكن هذا لم يحل المشكلة...

هناك رقد خلف الباب يوجه له اللكمات بيده اليسرى ويصرخ ....

لابد أنه فقد الوعي للحظات ..

عندما فتح عينيه من جديد أدرك أنه في مأزق خطير. سوف يموت جوعًا بالتأكيد .. لربما كانت هذه غلطة عمره لكنه لن يندم عليها أبدًا ....

سمع صوت مفتاح يدور في الباب فتراجع للخلف في لهفة ... هذا شخص يملك مفتاح الشقة ..

انفتح الباب وظهر ابنه ينظر لأبيه الراقد على الأرض في دهشة .. لقد عاد من الاسكندرية..

-«بابا .. ماذا حدث ؟»

لكن الأب لم يجب لأنه فقد وعيه ثانية.

تمت

سيمفونية المقصلة

١

الفرقة تعزف آخر فالس لهذه الليلة ..

يقف رمزي بعيدًا في ظل سنديانة عجوز، يدس يديه في جيبيه ويتنهد. عبق أزهار الليل يتصاعد ويمتزج بالموسيقى .. من أجل لحظات كهذه نغني .. من أجل لحظات كهذه ننشد الشعر .. من أجل لحظات كهذه نبكي .. من أجل لحظات كهذه نقبل الموت عندما يأتي أخيرًا.

الأرض تموج بالموسيقى ..لابد أن هذا لحن شتراوس. ليس واثقًا .. كل الموسيقى الكلاسيك تتشابه بالنسبة له. لا شك أنه يحمل عقلاً وقلبًا وأذنًا عربيين فلا يتذوق جدًا هذه الألحان.

مصري يقف وحده في حفل باريسي أنيق. يشعر بمزيج من النشوة والخجل والألم. تمضه الوحدة .. هناك في ساحة الرقص يمضي راقصو الفالس في دورات رشيقة . فتيات منتشيات ورجال حالمون. الكل لن يعاني الوحدة هذه الليلة ما عداك في تلك الشقة الصغيرة القريبة من شارع سان ميشيل. باردة كئيبة ..

شد ما يتألم .. لكنه ألم شهي محبب .. ألم يحب أن يجتره ويشعر به.

إنه زهرة حائط .. التعبير الذي يتحدث عن أشخاص يقفون وحيدين في الحفلات يراقبون الحياة ولا ينغمسون فيها. نظر لساعته وقدر أن عليه اللحاق بآخر مترو وإلا لاضطر إلى استئجار سيارة أجرة باهظة..

هنا دنت منه بريجيت ..

كيف عرف أنها بريجيت؟ لأنه من المستحيل ألا يكون اسمها كذلك.

رقيقة نحيلة لها أجمل وجه يمكن أن تراه في حياتك. الوجه الذي سيتفق عليه كل البشر ولن يتدخل الذوق الخاص فيه. ملاك ...

تحمل كأسًا وتلبس ثوب سهرة طويلاً شفافًا لكنه ذو ياقة منفوشة سابغة. الفتاة الوحيدة التي تغطي نحرها في الحفل كله. عينان لهما لون مستحيل.. هل هما زرقاوان أم رماديتان؟ زهرة حمراء حيث كان ينبغي أن يكون الفم.. لاحظ في دهشة أن يديها كبيرتان .. على الأقل أكبر مما يوحي به وجهها الرقيق ..

تقول لرمزي بفرنسية ساحرة:

-«أنت وحيد مثلي .. هل تمنحني هذه الرقصة الأخيرة ؟»

كالمسحور يأخذ منها الكأس ويضعه على إفريز النافذة التي يقف جوارها ثم يمسك بيدها الزجاجية القابلة للكسر. يرفعها ويتقدم معها ليبحرا في عالم الموسيقى ..

احسدوني .. انظروا لي في دهشة ....

أنا انتظرت حتى ظفرت بما هو أفضل وأروع ....

الحلم يستمر.. وهو يفكر في أن هذا كله سينتهي بطريقة ما. للأسف سوف ينتهي اللحن .. للأسف لم يستطع شتراوس كتابة سيمفونية أبدية ..

كل ما حدث بعد هذا كان أقرب للحلم ..

سيارتها.. الكلب الصغير .. حديقة الفيلا في ضوء الكشافات .. البيت الواسع .. أنت وأنا فقط ... هناك وقف عند المدخل وانحنى ليلثم عنقها. اشتهى هذا طويلاً منذ كانا في الحفل ..

فيما بعد سيحكي لها عن مصر وعن الدلنجات مسقط رأسه وعن أمه وأخته وهجرته لفرنسا و.. و.. هو الآن ثمل بنشوة الحب ولا يقدر على الكلام.

في حذر ورفق أبعدت شفتيه عن عنقها وهمست:

-«لا .. لا .. لو أردت أن تكون في عالمي فلا تحاول هذا ..»

كان هذا مخيبًا للآمال، وخطر له أنه تعجل جدًا .. لقد تصرف كحيوان غير مهذب ..

قالت له وهي تنظر في عينيه:

-«ادخل واجلس وتكلم .. لكن لا تحاول هذه الأشياء..»

-«ولكن .....»

-«هذا بيتي وتلكم شروطي وقوانين لعبتي»

التزم الصمت وخطر له أن اقترابه منها نصر كاف..

****

دومينيك دو جالفان تستند على حافة العربة التي تجرها الخيول. السجن قد قضى على جمالها لكن كبرياءها وترفعها كانا فاتنين.. ثيابها ممزقة لكنها تمنحها طابعًا خاصًا..

بعنق عال وشعر محلول يغطي كتفها ترمق الرعاع كريهي الرائحة الذين يملئون الشوارع. معها في العربة ماركيز منهار تمامًا وشيخ هده القنوط وامرأة باكية. هذه المشاهد كانت تمنح

الجماهير نشوة ما بعدها نشوة. كانت قد عرفت أن ماري انطوانيت أعدمت أمس. هكذا عرفت أنه لا أمل لها. لكنها لن تمنح الناس لذة مشاهدتها وهي ترتجف.

هناك في ميدان الكونكورد بباريس تقف المقصلة الرهيبة.. هدية د. جيلوتين للعالم. نصلها ملوث بدماء جافة والعلم ثلاثي الألوان يرفرف جوارها..

وقفت العربة فتصايح الناس فرحًا نفس صراخ الرومان عندما كانوا يلقون المسيحيين للأسود. ثم ظهر أهم شخص في المسرحية: الجلاد بقلنسوته التي تكشف عن عينيه فقط وعضلاته الهائلة.

لسبب ما بدأ الوجبة بدومنيك.. اقتادها من العربة وربط ذراعيها برباط جلدي . ثم إنه حملها إلى الآلة الرهيبة.. شهق الناس من النشوة ..

كانت هي تنظر في ثبات إلى السلة الملوثة بالدم الجاف بعد عمليات أمس. لم تشعر بأن النصل ارتفع في السماء ثم أزاح الجلاد الترباس فهوى النصل الثقيل .. وهوب .. سرعان ما رقد الرأس المتمرد في السلة ..

مد الرجل يده وقبض على الشعر ورفع الرأس ملوحًا فتعالى التهليل والصراخ.

ثم أنه ألقى بالرأس في السلة ..

بعد دقيقة ظهر رجل أصلع له شعر طويل يتدلى على كتفيه ويلبس المونوكل. مد يده ينقد الجلاد شيئًا، وفي لحظات انتقل الراس من السلة إلى كيس من خيش يحمله الرجل.

بعد دقيقة كانت عربة تجرها الخيول تحمل الرجل وصيده الثمين عبر شوارع باريس القذرة الفقيرة. الحوذي يلهب ظهور الخيل بالسوط ويسبها بأقذع السباب

..

توقفت العربة في زقاق حقير فوثب منها الرجل، وفتح بابًا خشبيًا في بناية من طابقين وانسل إلى الداخل. هناك كان مختبر صغير تنيره الشموع وكان شاب في العشرين يصب بعض السوائل في قوارير اختبار، فلما رأى العالم هتف:

-«د. رانفييه !.. أنت نجحت !»

قال الأصلع وهو يلهث:

«ليس بعد .. لقد تأخرنا جدًا»

ثم أمر الفتى بأن يحضر الجهاز الذي ابتكره وهو جهاز يتكون من مجموعة من الخراطيم يتصل بها جهاز زنبركي بقلب ساعة.
مهمة هذا الجهاز أن يضخ سائلاً رائق اللون في نظام الخراطيم.
وبيد مرتجفة متلهفة راح الطبيب يشرح الأوردة والشرايين الخارجة من عنق الفتاة.

٢

سألته بينما أشعة الشمس تغمر الغرفة:

-«هل أقدم لك الإفطار وعصير البرتقال ؟»

كان رأسه محاطًا بسحب دخانية كثيفة، وأحس بأنه بحاجة للبرتقال فعلاً.. ربما قهوة قوية نفاذة الرائحة أولاً. قال لها إنه يرحب ببعض القهوة ثم أراح رأسه على الأريكة المريحة .. ليلة دسمة حافلة برغم أنه لم يلمس سوى يدها. لقد كان وجودها هو كل شيء.. كأنه شرب وسكر وارتوى واستحم في نهر فردوسي.

الشمس تتخلل باقة من الأزهار فوق المنضدة، وكأسًا زجاجية ودورقًا من الكريستال ..

تذكر أنه لم يسألها عن اسمها .. لقد قرر أنه بريجيت لأنها لا يمكن أن تكون سوى بريجيت. لكن هذا تفكير غير واقعي البتة. الأغرب أنها لم تسأله عن اسمه .. قال لها:

-«رمزي»

رفعت حاجبيها في دهشة فقال:

-«اسمي رمزي .. أعتقد أنني لم أقله قط»

تحسست جبهتها مفكرة بعض الوقت ثم قالت:

«بصراحة لا أذكر إن كنت قد قلته لي. الأسماء لا تهم .. هذا أنت وهذه أنا .. كلانا يشعر بوحدة قاتلة وكلانا بحاجة للآخر»

قال لها:

-«لكنك بحاجة إلى معرفة خلفيتي كما في السينما .. من أنا ؟ من أين جئت ؟ ماذا أريد ؟.. أنا أيضًا أريد أن أعرف من أنت ومن أين لك هذه الفيلا ولماذا تعيشين وحدك ؟»

رفعت يدها لتسكته .. يدها كبيرة الحجم فعلاً بشكل ملفت.. وقالت له:

-«ثمة وقت لكل هذا، لكن لا تفسد لعبة الغموض الجميلة هذه. سوف نستنتج الأمر خطوة بخطوة .. مثلاً أنا عرفت اليوم أن اسمك رمزي وأنك فضولي كالقطط .. هذه بداية»

****

كان البروفسور رانفييه يستكمل توصيل الشرايين والأوردة بيد مرتجفة. هكذا صار الرأس المقطوع جزءًا من دائرة سريان سائل منتظمة ..

«اعتمدت كثيرًا على نظريات الأحمق لافوازييه»

ثم أنه وضع الرأس المقطوع في وعاء معدني صغير. وأحاط الوعاء بالشموع. أدار بعض التروس فبدأت المضخات تعمل .. وسُمع هدير عال ..

-«أنا أخلق دورة دم صناعية لهذا الرأس. وسؤالي هو : هل هو حي ؟ هل ما زال قادرًا على الحياة ؟»

قال الشاب بعينين لامعتين:

«الحق أن هذا أكثر ما رأيت في حياتي إثارة .. لكني لا أملك أسئلة .. لقد غادرت الروح هذا الجسد .. لا يمكن لشيء أن يعيدها للحياة. رحل السر المقدس»

ظل د. رانفييه يراقب الوجه بعض الوقت. ثم جاء بشمعة وقربها من العين .. بدت عليه خيبة الأمل ومط شفته السفلى. دقيقتان !.. لو كان شيء سيحدث لحدث فعلاً....

فجأة دارت العينان الناعستان في المحجر وتقلصت ملامح الوجه .. انتفض الطبيب .. فقال الشاب:

-«تقلصات الموت .. هذا شيء معروف. كما أن التحديق في جثث الموتى لفترة طويلة يوحي لك بأنها تتحرك»

لكن الطبيب قرب الشمعة أكثر، وراح يتأمل الوجه. كان في هذه اللحظة بالضبط يخطو عند الحدود الفاصلة بين الحياة والموت .. بين الوجود والعدم. لكنه لم يكن مؤمنًا ... كان قد قرأ فولتير في نهم وعرف أنه لا شيء يسمى الروح .. كلها ظواهر كيميائية فسيولوجية.

الآن ينفتح الفم .. محاولة واضحة لنطق شيء .. ليس هذا هو التصلب الرمي . الأمر أكبر من ذلك وأخطر. ثم انغلق الفم ولم يخرج صوت ..

قال في انبهار وقلبه يرتجف:

«لا توجد رئتان لهذا هي غير قادرة على الكلام. لكنها تسمعنا وترانا»

ارتجف الفتى وشعر بالشعيرات تنتصب على ساعديه. معنى هذا أنها تشعر .. بم يشعر المرء وهو رأس مقطوع فوق طبق؟ ترانا وتسمعنا وتفكر .... تقول لنفسها إنها ما زالت حية ..

هكذا راح الطبيب يستكمل الجهاز .. نظام لإذابة الأكسجين في السائل الصناعي الراقي الشبيه بالدم، وطريقة للتغذية .. يمكن لهذه الدورة أن تستمر للأبد ..

قال وهو يصدر فحيحًا بسبب الربو:

-«نحن غيرنا التاريخ .. »

في ضوء الشموع تراجع الفتى راجفًا .. كل هذا لا يطاق .. كل هذا لا يوصف .. إن النوم بعد مشاهد كهذه مستحيل. قال للعالم:

-«قد برهنت عن وجهة نظرك يا سيدي .. الآن حان الوقت كي ندفن هذا الرأس.»

نظر له رانفييه في جنون وهتف واللعب يطير من شدقيه:

-«هل تمزح ؟.. التجربة قد بدأت !!!»

طال الجدل فلم يستطع الشاب سوى أن يشرب كوبين من خمر قوية، ثم غادر المختبر الرهيب لينام. يمكن أن تتخيل كيف كان

نومه مع العرق والكوابيس.. لقد قطع رأسه ألف مرة ودبت فيه الحياة مئة مرة، وفي الصباح دعا الله أن يكون هذا كله كابوسًا.

لم يكن هذا كابوسًا .. ضوء الشمس يغمر كل شيء والناس يمشون في الطرقات يتبادلون الشتائم. نهض إلى المنضدة جوار الفراش فصب لنفسه المزيد من الخمر واقتطع لنفسه قطعة خبز.

ماذا كان اسمها؟ دومينيك .. دومينيك دا جالفان ..

من هي ؟ لماذا أعدموها ؟

قرر أن يخرج إلى السوق ويتشمم الأخبار. ذهب إلى الحانة في ساعة مبكرة وبحث عن أحد القادة الثوريين يجلس وقد لف ساعده بالراية المثلثة، فجلس بجواره وهتف:

-«صباح الخير أيها المواطن ..»

ثم دعاه إلى بعض الجعة. ودار حوار طويل عمن أعدموا أمس ..

بعد نصف ساعة كان يجري في الشارع قاصدًا مختبر البروفسور المخبول .. قرع الباب بجنون ففتح له الرجل وهو بعد بجلباب النوم. لم ينم بعد..

دخل الفتى ليجد أن العالم يجلس أمام الرأس المقطوع، وقد فتح كتابًا من الشعر وراح يقرأ له. لقد أجرى حشدًا من التجارب دوّنها جميعًا، ومن الجلي أن في جعبته الكثير ..

قال الفتى لاهثًا:

«سيدي .. يجب دفن هذا الرأس ..»

قال العالم في ملل:

«قل لي شيئًا جديدًا يا جان»

أردف الفتى وهو يجلس:

-«رباه!.. لا أستطيع الكلام أمام هذا المسخ .. لقد تحريت عنها. اسمها دومنيك دا جالفان .. قالوا لي إنها كانت صديقة الكونتيسة روزنبري وكانت المركيزة تلجأ لها في شئون .. شئون ..»

-«شئون ماذا ؟»

اتسعت عينا الشاب وهتف:

-«شئون السحر الأسود .. كانت عرافة، وكانت تستعين بجثث الموتى في سحرها، كما أنها كانت تقيم القداس الأسود حيث ترقص عارية ثم تذبح طفلاً تستحم بدمه»

كانت الثورة الفرنسية علمنية ولا تؤمن بهذه المقولات، لكن ذعر الشاب كان كاسحًا ...

-«سيدي .. هذا رأس خطر ويجب تركه يستريح في التراب»

ثم ارتجف عندما نظر للرأس .. كانت العينان تنظران له نظرة ثابتة كريهة، ورأى شبح ابتسامة في ركن الفم ..

-«هي تسمعنا يا سيدي .. تفهم كل شيء»

قال العالم وهو يضع قطعة من القماش على الرأس لتداري العينين:

-«أعترف أن نظراتها مزعجة .. ليس من المريح أن يتكلم المرء بينما رأس مقطوع يصغي له»

ثم هتف مداعبًا:

«هل تفهمين ما نقول أيتها الحسناء حقًا ؟»

وثب من الرعب عندما تقلص الفم .. ومن بين الشفتين وبلا صوت وبلا هواء خرجت حروف مكتومة تقول (نعم).

٣

في الأيام التالية – لك أن تتصور هذا – صار لرأس الأخت دومينيك حضور ثقيل مرعب في المختبر. للحظات يخيل لك أن هذا رأس أقيم حوله مختبر.

كان من الواضح أنها تسمع وترى وتفهم .. فقط هي عاجزة عن الكلام، وكان النظام الذي ابتكره د. رانفييه محكمًا فعلاً.. الدورة مستمرة بشكل صناعي دائم وتنقية السائل مستمرة .. لا أعرف كيف تنتهي حياة هذا الشيء، لكني أعتقد أنه باق للأبد .

كان هذا يثير الكثير من التساؤلات الميتافيزيقية .. وقد تساءل الشاب في رعب:

«هل يعني هذا أن الروح حبيسة هذا الرأس؟ لماذا لم تغادر الجسد لحظة قطع الرأس؟ وكيف يمكن أن تغادر هذا الرأس يومًا؟ لا يمكن لشيء من لحم ودم أن يكون خالدًا، ولكن كيف يمكن أن تموت هذه؟»

قال العالم في إصرار وعناد:

«لا توجد روح .. هذه تفاعلات كيميائية وطالما بقيت مستمرة فلسوف يظل هذا الرأس حيًا»

كان الرأس منهمكًا في لعق شفتيه كالقطة التي انتهت من التهام فأر. والحقيقة أن العالم لم يقاوم بعض الإغراءات مثل أن يضع قطرات من الخمر على الشفتين. بالطبع لن يحدث ابتلاع لكن تأثير القطرات وصل لرأسها بالتأكيد، وبالتأكيد تذوقتها.

المشكلة بالنسبة للشاب صارت ضميرية ..

أولاً تحولت حياته إلى حشد من الكوابيس، وصار يخشى ساعات الليل لأنه لن يجرؤ على النوم ليرى ما سيراه في الحلم، ثم أنه كان يشعر بأنه يهوذا وأنه يحمل آلام وخطايا الكون كله على كاهليه.
كان منبهرًا بالبروفسور، وقد كان يجد في خدمته لذة عظمى، لكن الأمر اليوم تحول إلى شيء مريع .. صار يكره ساعات النهار التي ستقوده إلى المختبر حيث ينتظر الشيء على المنضدة جوار الشمعة.

يكره رائحة المختبر، ويكره الإضاءة الخافتة ورائحة السائل اللعين الذي يستخدمونه في الدورة الصناعية.

في النهاية قرر أن يترك خدمة البروفسور .. لم يكلمه ولم ينذره أو يطلب ما بقي له من مال. فقط كف عن الذهاب إلى المختبر وترك البروفسور يبحث جاهدًا عن شخص يساعده.

لكن هذا لم يبعد الكوابيس ..

لم يبعد الشعور بالذنب والشعور بأنه هرطيق ..

لم يبعد أسوأ الاحتمالات التي خطرت له.

هكذا جاء اليوم الموعود.

كان يملك مفتاح المختبر .. وكان يعرف مواعيد خروج البروفسور. لذا أحضر زجاجة من الكيروسين وبعض الكبريت .. تأكد من أن أحدًا لا يراه، وكانت الساعة الثامنة مساء .. وقت ذهاب البروفسور إلى الحانة. فتح الباب ووقف يشهق الهواء الفاسد ..

كان الرأس هناك، وقد حرص على أن يلتف بعيدًا عن مجال رؤيتها لأنه لن يجسر أبدًا على مواجهة عيني كائن يعرف أنه سيحترق.

بدأ يسكب الكيروسين حول المنضدة وفي كل أرجاء المكان. وشعر بأن الرأس يحاول الالتفات في المكان الذي وضع فيه. لن تتألم إلا عندما تصل النار للرأس، أما الباقي فلا توجد أعصاب ولا أطراف. لن يكون هناك ألم. سامحيني يا فتاة ..عندما تتحقق لك الراحة النهائية في التراب ستدركين أنني فعلت هذا من أجلك ..

وقف يرقب المشهد .. بقيت النار كي تكتمل اللوحة المخيفة التي لن تفارق خياله أبدًا.

**

هكذا اعتاد رمزي أن يزور بريجيت – التي يعتقد أنها كذلك – كل ليلتين أو ثلاث ليال. هناك يجتاز الحديقة فيتواثب الكلب حوله في مرح.. لقد صار من أبناء الدار أو السيد الوحيد ..

هناك كانت تنتظره عند المدخل فيلثم شفتيها بطريقة عملية عابرة. لو أبدى حرارة أكثر من اللازم لنهرته. كل شيء معها رسمي متخشب حتى القبلات، لكنه برغم هذا سعيد معها ..

وفي الداخل كانت تعد عشاء بسيطًا يتناولانه جوار المدفأة، أو تدعوه للخروج في سيارتها إلى ناد ليلي أو مطعم ما .. باريس في الليل تبدو كمهرجان بصري ساحر. لكنك لو كنت وحيدًا تمنحك باريس أتعس لحظات ممكنة، بينما لو كنت عاشقًا فأنت على شفا أن تمسك بالسعادة ..

قالت له وهي تجرع جرعة من النبيذ الفوار:

«أنا سعيدة بلقائنا .. ولهذا سأقدم لك هدية صغيرة»

«وما هي؟»

«اسمي بريجيت!»

نظر لها في ذهول .. لا يبدو أنها تمزح أو تكذب، ولم يكن يعرف من قبل أنه من الشفافين.. صدفة غريبة بحق ..

انفجرت في الضحك لدى رؤية التعبير الأحمق على وجهه، وقالت وهي تشرق بالنبيذ:

«يا لدهشتك !... أنا لا أعبث بك .. كل هذا حقيقي وقد بدأت أعتقد أنني أميل لك»

شعر بقلبه يخفق .. الإضاءة خافتة والأحلام طفلة تعوي تبغي الدفء والغذاء ..

قالت بريجيت:

ـ«أنت لم تعرفني بما يكفي .. لا تعرف مئات الأشياء عني، ورهاني هو أنك لن تصر على معرفتي عندما تعرف كل شيء..»

«هذا مستحيـ ...»

قالت ضاحكة:

-«يا لحماسة العرب ..!... كنت أدرك أنك ستقول هذا .. وأدرك كذلك أنه غير صحيح»

ساد الصمت، وظل يرمقها وهو يعبث بالسكين في قطعة الخبز. ليس هذا أفضل وقت يقابل فيه المرء فتاة مولعة بالغموض تلعب هذه الألعاب طيلة الوقت ..

ترى ماذا تدارين يا فتاة؟

****

الفتى لم يجد الوقت الكافي ليفهم ..

لم يشعل الكبريت ..

فجأة شعر بأن ثقلاً هائلاً يهوي على رأسه.. أصدر أنينًا واستدار للخلف ليجد أن البروفسور رانفييه يحمل مطرقة هائلة، و

يتأهب لتسديد الضربة الثانية ..

لم يستطع أن يستكمل فهم المشهد .. الجنون في العينين في ضوء الشموع .. العرق الذي يغمر الوجه .. تعبير الكراهية المفترس ... كان قد سقط أرضًا قبل أن يفهم ..

«الخنزير!»

ووجه البروفسور ركلة إلى خاصرة الفتى، ثم أطلق سبة أخرى:

«يريد هدم أهم كشف عرفه العلم..»

كان البروفسور يتكلم، وهو يتجه إلى رف الأدوات على الجدار .. بحث حتى وجد منشارًا عملاقًا.. ثم بحث عن زجاجة دواء مخدر ..

لم يكن يعرف ما يقوم به .. لكنه كان يفعله..

فقط كان يدرك أن العينين أمرتاه .. الرأس المستقر في الوعاء وسط الخراطيم نظر له .. وهذه النظرة كانت كافية ...

الليلة كانت أطول ليلة في تاريخ البشرية .. وكانت أبشع ليلة كذلك ...

بالمنشار قطع رأس الفتى المخدر لكنه تخلص منها في القمامة. ما فعله هذه المرة هو أنه قام بتثبيت دورة الخراطيم إلى جسد الفتى ... استغرق هذا عدة ساعات ..

وضع الشموع من حول الجثة وجلس على الأرض وقد تلوث قميصه ووجهه بالدم، وكان يلهث ... لحسن الحظ أن الضربة جاءت على الرأس فلم يتأذ الجسد كثيرًا ..

دومينيك .. أنا فعلت ما أمرت به ..

كان يقولها وهو ينقل رأس دومنيك بحذر ليثبته فوق الجسد العضلي للفتى ....

٤

لابد أن الأمر استغرق عشر ساعات من العمل المتواصل.. الخياطة باستخدام عدسة على ضوء الشموع. هكذا أشرق الصباح ثم عاد الليل .. البروفسور لم يأكل وإن نهض لتناول كأس من الخمر من وقت لآخر.

لابد أن المشهد كان شنيعًا، ومن حسن جدنا أننا لم نره..

أخيرًا بدأت الصورة تتضح.. وإن كانت تقنيات الجراحة البدائية لم ترفق بالجلد. بدت الفتاة بدائرة قبيحة حول العنق كأنها مذبوحة. قام بلف قطعة من الشاش الدامي حول العنق لتخفي المنظر. وعندما انتهى كل شيء نهض إلى مقعد قريب فارتمى عليه وراح يتنفس لاهثًا.

أنت لا تنقل رأس إنسان كل يوم، لكنه كان يؤمن بأنه عبقري وقد استخدم مادة لاصقة للأعصاب ابتكرها بنفسه، وهي قريبة جدًا من مادة بوليثيلين جليكول التي اعتقد علماء عصرنا أنها قادرة على لحام الرؤوس بالأجساد.

لابد أنه نام يومًا أو يومًا وبعض يوم من فرط الإجهاد. غرق في غيبوبة مرهقة من الكوابيس.. لم يعد يعرف أي شيء حقيقي وأي شيء كابوسي. للحظات خيل له أن الجسد ينهض، لكنه لم يستطع التأكد قط.

فقط بعدما استعاد وعيه ونهض وسط الدم المتخثر الذي غطى يديه ووجهه وأرضية المختبر، أدرك أنه وحيد فعلاً...

الأغرب أنه اكتشف أن الآلة التي تجري دورة صناعية موجودة كما هي. لقد تركتها دومينيك. هذا يعني أن ما يسري في عروقها ليس دمًا وليس ذلك السائل الحيوي الغامض الذي ابتكره.. هذه المرأة تتحرك بقوة غامضة .. تتحرك بالسحر!

هذه لحظة عجيبة من زواج السحر والعلم للوصول لشيء مخيف غير معتاد ..

بدأ البروفسور يفيق .. قام بتنظيف الفوضى العارمة التي صنعها.. في قرارة نفسه كان يشعر بأن هذا كله كان حلمًا مخيفًا ...

ظل يعتقد هذا حتى عاد الشيء في المساء، وحتى أطبقت اليد القوية على عنقه فعوى كالكلاب ثم مات.

لم يكن للبروفسور مكان في هذا العالم الجديد .. عالم دومينيك دو جالفان. وبشكل ما كانت تشعر بأنه يستحق ما حدث له، لولا فضوله العلمي القاسي لكانت تنعم بالراحة تحت التراب كهيكل عظمي.

هكذا تمدد على أرض المختبر وقد تهشم عنقه. أمسكت دومينيك بالجثة من قدميها واتجهت بها إلى ركن الغرفة.

كانت العملية قاسية طويلة، وفي النهاية اندفعت عربة ذات خيول يقودها حوذي مخمور نحو نهر السين، وفي مكان مظلم تعاون اثنان.. أحدهما قوي البنية ضخم والآخر هو الحوذي المترنح .. تعاونا على إلقاء كيس مليء بشيء ثقيل في النهر.

في ذلك العصر كانت القذارة عنوان كل شيء، وكان من الممكن أن يغطس شيء كهذا في السين فلا يظهر ...

مدت دومينيك يدها تنقد الحوذي المال.

كان الحوذي يرتجف رعبًا من هذا العميل غريب الأطوار. له أجمل وجه يمكن أن تراه.. وجه ملاك حقيقي.. لكن جسده قوي

مزدان بالعضلات والشعر. الأغرب كان الصوت الذي يخرج من الحنجرة ..صوت فتاة بلا شك في ذلك ..

على كل حال لم يكن ليطيل الأسئلة. سوف يحصل على مال يتيح له المزيد من النبيذ لهذه الليلة. جريمة؟ نحن في عصر دموي تتناثر فيه الجثث في الشوارع، فلن تغير جثة إضافية الأمور.

ومنذ ذلك اليوم الرهيب صار مختبر البروفسور هو مسكن ذلك الكائن العجيب الذي جاء من عدم.

لاحظ الجيران ذلك الشاب الصموت ذا الوجه القسيم. كان مدثرًا بالثياب ويضع على كتفيه معطفًا رثًا واسعًا، ويلف عنقه بالشاش .. وكان قليل الكلام. لا يظهر إلا مع قدوم الليل حيث يخرج لشراء بعض الخبز والجبن والنبيذ . لم يكونوا يعرفون من هو، لكنهم كانوا سعداء بالخلاص من البروفسور رانفييه غريب الأطوار .

ماري كلير تعمل بأقدم مهنة في التاريخ.

قبيحة جدًا ملطخة بالمساحيق، يمكنك أن تشم رائحتها من على بعد أمتار. الاستحمام ترف بالنسبة لفتاة مثلها. هناك تقف عند ناصية شارع بيجال تحت مصباح كيروسين وقد ارتدت ثيابًا المفترض أنها مغرية، وهي تروح وتجيء منادية الزبائن.

كان حظها من المال لا يختلف كثيرًا عن حظها من الجمال، وكانت تتساءل إن كانت هذه أقذر مهنة في التاريخ أم أن هناك مهنًا أقذر.

منذ ثلاثة أيام لم يظهر زبون واحد، وقد بدأ الجوع يعذبها .. عندما تعود لغرفتها الحقيرة في الصباح تفتش في بقايا الخضروات العفنة التي تخلفت من البائعات أمس..ثم تعد لنفسها وجبة تبقيها حية.

هذه ليلة عجفاء أخرى ..

هنا سمعت من يناديها همسًا. نظرت للخلف فرأت في ضوء مصباح الكيروسين ذلك الوجه الوسيم .. أجمل وجه يمكن تصوره كأنه وجه فتاة من الحوريات. لكن الجسد قوي عضلي مشعر. يدنو منها وبصوت خافت غير واضح يهمس:

«عندي .. بيتي قريب من هنا»

لماذا يتكلم بهذا الصوت الغريب؟ ثم قدرت أن لديه مرضًا في الحنجرة. هكذا تمت الصفقة بسرعة ووجدت نفسها تمشي وراءه عبر الأزقة شاعرة أنها محظوظة .. ليس لأنه سيمنحها بعض المال فقط، بل لأنه أول شخص ذي منظر مقبول تقابله في هذه المهنة ..

هناك فتح ذلك الباب .. دخلت لتشم رائحة لم ترتح لها. كان المكان أقرب إلى مختبر مهجور وكانت رائحة الكيماويات طاغية فعلاً.. هناك ظلام وغبار، لكنها كانت قد اعتادت القذارة فلم تعد تشمئز منها.

كان هناك فراش

على الأرض، فجلست عليه وراحت تنزع جوربها، بينما بدأ الرجل ينزع معطفه ..

ناولها زجاجة من الخمر جرعت ثلثها مرة واحدة، ثم قال وهو يواصل نزع ثيابه:

«لا أدري إن كان من واجبي أن أخبرك ببعض التفاصيل، لكن لا أعتقد أنني سأشعر براحة ما لم تعرفي الخلفيات ..»

-«أي خلفيات؟ عم تتكلم؟ أنا هنا لغرض محدد فانته لأن وقتي ثمين».

بالطبع هي لا تملك سوى الوقت .. لكنها تحاول رفع قيمة بضاعتها. كان الفتى ينزع قميصه وهو يقول:

«المشكلة في أجسادنا كبشر هي أنها تبلى .. مهما بلغت الدقة العلمية أو قوة السحر فلابد أن يضمر الجسد.. هنا يواجه المرء ضرورة الاحتياج إلى جسد جديد»

ثم فك الرباط حول عنقه .. أصابها الذعر .. هذا عنق مقطوع وتمت خياطته لا شك في هذا. الرأس رأس فتاة جميلة والجسد جسد رجل كامل الرجولة ..

أصدرت أنينًا وحاولت أن تقوم لكن ساقيها كانتا واهنتين .. فقال لها:

«لقد بدأ المخدر يعمل .. هذه آخر علاقة لك بهذا الرأس .. عندما تصحين من النوم سيكون اسمك دومينيك .. دومينيك ستكون متناسقة ، لها وجه امرأة وجسد امرأة.. لا تقلقي .. أنا صرت قادرًا على عمل هذه العملية بسهولة ودون عون. هذه مزية أن يكون المرء مجيدًا للسحر..»

كادت تتكلم لكن الظلام كان قد زحف ليحيط بها من ست الجهات ...

٥

لو أن رجلاً قوي الملاحظة تابع المختبر لفترة، لرأى من تخرج وتدخل في ساعات عدة ... الغريب في الأمر أن الفتاة صارت

أقرب إلى الرقة وصار حجمها أصغر .. فتاة لها وجه حورية ومن الواضح أن جسدها لا يقل جمالاً.

دومنيك تخرج في الصباح لالتقاط رزقها في السوق. تعمل أي عمل في أي مكان حتى المساء، وفي الليل غالبًا ما تعود بزبون إلى المختبر ..

لاحظ الناس أنها لا تندمج بأحد ولا تتكلم مع أحد، بل إنها لم تنزع الوشاح الثقيل الذي تلفه حول عنقها قط ....

تثير فضول النساء في العمل، لكن شيئًا في وجهها كان يقضي على فضولهن .. لم يكن أحد يحب أن يتعمق في أسرارها أكثر من اللازم.

لو كان هناك من يتابع دومنيك بكاميرا من طراز Time lapse لأدرك أن حجمها يتغير أكثر من مرة. هناك من يتعامل معها فيلاحظ أن يدها أكبر من المعتاد أو أصغر من المعتاد. لكن الناس لا تعلق أهمية كبيرة على أمور كهذه ..

تدور الأيام ..

لقد ولى الماضي وولت معه أيام السعد، عندما كان بوسع أي شخص أن يقتل أي شخص ولا يلاحظ أحد. صارت القوانين

ونظام الشرطة أكثر صرامة .. وقلت التحولات في وجه دومنيك ..

لا يعرفون عنها الكثير. لكن المسنين يصرون بشكل غامض على أنها لم تشخ قط .. طيلة حياتها لها نفس الملامح .. أثار هذا خيال البعض عن قصص الساحرات لكن بالطبع لا يمكن أن يصل الفضول بالناس درجة كتاب مطرقة الساحرات، وصيد الساحرات القديمة ...

تدور الأيام .....

****

كان رمزي يتأمل جدران الفيلا.

لم يكن خبيرًا في الفنون جدًا لكن بعض اللوحات راقت له، ولم يعرف أن هذه لوحات تأثيرية معظمها لمونيه ... لا شك في أن بريجيت ثرية فعلاً. لا يعرف من أين جاءت ثروتها وهو لم يسأل على كل حال. تتصرف كالوريثة الغنية التي تعبث بكومة من المال عبثًا.

هذه الصورة التي تحمل طابع الروكوكو الواضح تمثل فتاة أو امرأة بارعة الحسن تبتسم ابتسامة هادئة ناعسة .. أثار ذهوله التشابه القوي جدًا بين صاحبتها وبريجيت.

جاءت بريجيت جواره وهي تجفف شعرها المغسول وراحت تراقب ما يلفت نظره هكذا ..

قال لها:

-«هل هي جدتك؟»

هزت رأسها بطريقة ذات معنى وقالت:

-«اسمها دومينيك دو جالفان .. من صديقات ماركيزة شهيرة، وقد قطع رأسها بالمقصلة .. ظلت صورتها تذكر الناس بالوجه الجميل الذي كان»

قال في دهشة:

-«التشابه مطلق .. كأنها صورة رسمت لك أمس»

-«ألعاب الجينات لا تنتهي»

عندما تناولا الغداء معًا، كانت في قمة فتنتها الأنثوية وسحرها. كانت تلتقط طعامها في رفق، ثم قالت له:

-«هل يمكنك أن تأتي غدًا عند منتصف الليل؟»

هز رأسه .. هو مستعد دائمًا لأن يزورها في أي وقت، لكنها لم تحدد من قبل ساعة متأخرة كهذه وبهذه الدقة .. قالت باسمة:

-«أسئلة كثيرة سوف تجوب ذهنك لكني سأفسر كل شيء».

ورشفت رشفة من النبيذ ..

****

مدخل الفيلا كان مفتوحًا .. لابد أن الكلب يعبث في مكان ما من الحديقة ..

باب البيت مفتوح أيضًا. هناك فوضى عامة .. يبدو أنها كانت ليلة صاخبة .. لكن ما أثار دهشته هو أن هناك حقيبة أنثوية ومعطفًا في قاعة الجلوس. أشياء لا تخص بريجيت ..

هناك بعض الكؤوس وزجاجة كونياك مفتوحة ورائحة تبغ.

صاح بأعلى صوته:

-«بريجيت!»

جاء صوتها من بعيد .. كان قادمًا من الطابق العلوي .... لم يتبين ما قالته، لكنها كررت النداء:

-«أنا في الحمام بالطابق العلوي .. أغلق الباب وتعال»

متوجسًا اتجه إلى الدرجات وصعد فيها .. لربما هي لعبة إغراء معينة منها، لكن بريجيت علمته أنه لا يوجد شيء اسمه علاقة جسدية .. كأنها كائن بلا جسد..

كان الصوت قادمًا من الحمام .. وقف خلف الباب دقيقة .. يمكنه أن يشم رائحة دم مسفوك لا يعرف مصدرها ....

-«تعال يا رمزي .. ادخل»

في خجل مد رأسه .. هنا رأى مشهدًا لا يمكن وصفه .....

بريجيت لم تكن امرأة ..

بريجيت لم تكن رجلاً...

بريجيت لم تكن حيوانًا ..

بريجيت لم تكن شيطانًا ....

قالت له وهي منهمكة:

-«يمكنك أن ترى ما أفعله كلما مرت ستة أشهر ... في الماضي قام عالم مجنون بعمل هذه الجراحة لي، أما اليوم فأنا أعرف كيف أعملها مستعينة بالسحر»

أفرغ معدته .. وتمنى لو كانت لديه أحشاء أكثر يفرغها ..

لما استطاع الكلام سألها:

-«من هي؟ .. صاحبة الرأس!»

-«صديقة جديدة لي قلت لها إنني أريد أن أعرفها عليك»

كانت العملية تتم ببطء وسط بركة من الدماء. جسد بريجيت مقطوع الرأس يسبح هنالك.. ورأس الفتاة متدحرج هنالك على بعد أمتار، بينما التحم رأس بريجيت بالجسد الجديد المكتنز ..

كان يرتجف .. هذا يتجاوز حدود الكوابيس ....ولولا أن ساقيه منهكتان رخوتان لفر من هنا للأبد ...

-«هل أنت شيطان؟»

-«ربما أنا أسوأ»

هناك جلس في قاعة الجلوس وغطى وجهه.. لابد أنه غاب عن الوعي بضع دقائق، وعندما عاد إلى الوعى فطن إلى أن هذا كله يحدث فعلاً...

هناك وقف على باب الحمام يراقب العملية البشعة، والفتاة تحكي له قصة دومنيك الشيطانة. الشيطانة التي أخطأ رجال الثورة الفرنسية إعدامها ...

تصديق كل هذا

مستحيل لكن أي مستحيل بعد ما يراه أمام عينيه؟

قالت له:

-«دائرة لا تنتهي ولن تنتهي .. سوف تستمر للأبد. لن أظفر بالراحة يومًا. والحل الوحيد في يدك أنت .. لقد وقعت في حبك ووثقت فيك وخمنت أنك قادر على منحي الراحة فعلاً».

-«كيف؟»

-«أنا في وضع هش الآن .. مرحلة الانتقال الأولى. سوف تذهب إلى القبو فتحضر فأسًا وبعض الكيروسين ... ستهشم رأسي ثم تحرقه بالنار إلى أن يتفحم. صدقني هذا هو الخلاص الوحيد لي،

ولو لم تفعله فلسوف تسقط فتاة أخرى ميتة خلال ستة أشهر عندما يبلى هذا الجسد»

-«لكن الشـ ....»

-«لا أحد يعرف بقدومك هنا أو علاقتك بي. الحادث ضد مجهول»

التقزز يغمره ..

لكنه ذهب للقبو فعلاً وبحث عن الفأس والكيروسين، وخمن من الرائحة أن هذا المكان يستعمل كمدفن كذلك .. ثم أنه عاد لها حيث رقدت في الحمام...

همس من بين أسنانه:

«أنت تسامحينني.. أنت من طلب هذا ...»

ورفع الفأس وهوى به .. وأغمض عينيه وهوى عدة مرات.. ثم استكمل المهمة القذرة بالنار ..

كان قلبه يتواثب انفعالاً وهو يجمع حاجياته كلها تأهبًا لمغادرة الفيلا للأبد ..

غسل وجهه من أثر الدم. أما عن بقع الدم على الثياب فليأمل أن الليل سيداريها.

ركض نحو باب الفيلا المطل على الشارع، ونظر في الظلام .. لاحظ كثرة غير عادية للأضواء الوهاجة الملونة وسمع صوت السرينة. عندما رفع عينيه أدرك أن هناك أربع سيارات شرطة تحاصر المكان....

الفتاة التي ماتت كانت مرتابة .. لربما تركت بياناتها لدى صديق يبلغ الشرطة في حالة تأخرها. لربما سمع الجيران كذلك صوت صرخة ..

سيكون تفسير ما قام به مستحيلاً... دومنيك التي ظلت رأسها حية تبدو قصة عسيرة على التصديق. فقط براعته وبراعة محاميه ..سوف تنقذه من الإعدام لتنقله إلى مستشفى الأمراض العقلية. تقدم نحو الأضواء في بطء...

تــمــت

تلك المقبرة

١

سوف أحدثك عن مقبرة قريتنا.

لا تقل لي إني ابن المدينة، وإن نضارة الريف جفت في عروقي، فالحقيقة هي أنني سأظل ريفيًا إلى الأبد أحمل القرية داخلي. لا تتحرك كثيرًا فهذا يوتر أعصابي .. صدقني ليست قصتي طويلة ولن تثير مللك في الساعة القادمة. كما قلت لك: الريف يحيا داخلي، ولا أستطيع أن أشعر بألفة في المدينة .. أبحث عن متجر البقال البدائي وعن الكُتّاب المتهدم جوار المسجد الذي تتماسك جدرانه بمعجزة ..عن الساقية والترعة. عندما لا أجد هذا كله وأجد بدلاً منه الشوارع والسيارات فإنني أشعر باغتراب مقبض.

سأحدثك عن مقبرة قريتنا.

هناك عند الجهة الغربية من القرية يوجد حزام من أشجار التوت العتيقة، ومنحدر وعر يطل على حقل نصف محروث. تمشي في هذا الممر الطويل محاذرًا أن تتعثر فتسقط.. هنا يجري أمامك كلب أجرب أو قط هزيل، وترى السور المهدم الذي يحيط بالمقابر. لا تنس قراءة الفاتحة للأموات وأنت تمشي بين الشواهد. في الريف يزاولك الشعور بأن هؤلاء موتى .. هذه مساكن قوم يميلون للانطواء وعدم الاختلاط بالآخرين لا أكثر.

ولكن من قال إن الموت يساوي بين الرءوس؟ كل أنواع الطبقية ستجدها هنا بين قبور طينية فقيرة وقبور رخامية متغطرسة وأحواش أقرب إلى القصور! لا توجد مساواة في الموت كما ترى.

بعض الأسماء تعرفه على الفور .. أسرة الدهبي .. أسرة الدمام .. الخ .. وبعض الأسماء مجهول ..

كل مقبرة لها طابع يخصها، لكن المقبرة التي أتكلم عنها هنا فريدة من نوعها. مقبرة فقيرة هي أقرب إلى حجر يعلو كومة من الطين، وبخط طفولي ساذج كتبت آية قرآنية (فيها خطأ لغوي) واسم صاحب القبر: (المرحوم عزت الدرهيبي) الذي يقال إنه توفي عام ١٩٣٦. لا شك أن القبر لم يُفتح منذ أغلق على عزت، فلا أقارب له في البلدة ولا أولاد. لم يزرع أحدهم بعض الصبار أو يرش الماء على التربة قط .. بالواقع لا يذكر أي واحد حرفًا عن عزت هذا.. لقد وُجد ثم زال فلم يبق منه سوى اسمه ..

على كل حال يوجد احتمال لا بأس به أن المقبرة خالية من الجثث. هناك آثار نبش قوية حولها، وثمة اعتقاد أن بعض اللصوص سرقوا الجثة وباعوها. أنت الآن تفهم كيف بدأ الأمر وأعتقد أنني لم أخبرك بشيء جديد ..

أرجو أن تصغي لي باهتمام ..

الأسطورة الشائعة في القرية هي أن المقبرة مسحورة، وأن التعامل معها يجلب الوبال، لكنهم يعتقدون كذلك أنك لو دفنت فيها مالاً لمدة ليلتين ثم عدت للمقبرة لوجدته قد تضاعف. لا شك أن هناك من جرب هذا، لكن لم تكن هذه التجربة تلاقي إقبالاً على كل حال بسبب الخوف من المقبرة، وكما قال إمام المسجد:

-«التعاطي مع الجن له فوائد جمة، لكن له أخطارًا جمة كذلك»

في سن العشرين ذهبت ليلاً إلى المقبرة وبعناية دفنت خمسة جنيهات. ثم فررت وقلبي يتواثب كالطبل .. بعد ليلتين عدت إلى هناك ورحت أحفر الأرض بملعقة معدنية على ضوء الكشاف. وجدت ورقة مطوية بعشرة جنيهات !.. الإشاعة حقيقية إذن!

****

بعد هذه التجربة بأيام أصبت بوعكة لعينة من التيفويد. كدت أفقد حياتي وأحتاج العلاج إلى شهر كامل، ولم أكن قد أخبرت أحدًا بتجربتي مع المقبرة، لكني قدرت أن سبب المرض هو لعنة الجان على الأرجح .. من يلهُ بالنار يحترق بها، ولابد أنني لهوت أكثر من اللازم.

جاءت أمي بقطعة من الورق قطعتها على شكل دمية، ثم راحت تثقبها بالإبرة وهي تردد بعض الأدعية، ثم وضعتها فوق البخور

المشتعل فتفحمت .. قالت لي إن الدمية تمثلني، ويبدو أن هناك عينًا شريرة أصابتني.

كنت أفكر في عشرة الجنيهات القادمة من المقبرة، وأعترف أنني لم أجسر على صرفها قط. طاقة التابوو المحيطة بها جعلتني عاجزًا عن إنفاقها أو حتى لمسها. وضعتها بين دفتي كتاب لا أفتحه إلا نادرًا ..

في سيارة الأجرة المتجهة إلى بنها، مدينة الجن والملائكة بالنسبة لنا نحن القرويين، كنت جالسًا جوار صبري صديقي وهو طالب في كلية الزراعة.

قال لي صبري بلا مناسبة إنه جرب أن يدفن بعض المال في قبر الدرهيبي، وعاد بعد ليلتين ليتفقده ..

جف ريقي وتساءلت في لهفة عما وجده.. قال في خيبة أمل:

ـ«لم أجد المال أصلاً.. هناك من سرقه .. كانت هناك آثار أقدام قرب المقبرة .. هناك مخادع ينشر هذه الأكاذيب ليجمع المال، كما يحدث في تلك الآبار التي يزعمون أنك لو ألقيت فيها مالاً لتحققت أمنيتك. طبعًا ليذهب أحدهم لينزح العملات في قاع البئر بعد هذا.. مقبرة الدرهيبي خدعة وقد كلفتني مائة جنيه».

ابتسمت في عصبية ولم أخبره أن تجربتي أنا قد نجحت ..

لا أعرف التفسير لكنه مخيف على الأرجح، وعلى الأرجح كذلك تضاعف ماله لكن هناك من سرقه قبل أن يعود صبري لموضع المال. قال صبري وهو يرتجف:

-«هذا قبر غريب .. هل لاحظت أن الطيور لا تحلق فوقه أبدًا، وأنه لا توجد نباتات من حوله ؟»

قلت في ملل وأنا أراقب الطريق:

-«هذا متوقع .. الرجل مقطوع من شجرة ولا يعرف أحد شيئًا عنه ..لا أحد يُعنى بالقبر .. »

-«الطيور لا تعرف هذا»

«حيث لا توجد نباتات لا توجد طيور».

٢

كنت طالبًا في كلية الآداب، وكنا نقيم في شقة رخيصة فقيرة في حي شعبي قريب من الجامعة. طعامنا هو ما نأتي به من القرية أو هو الفول وعلب السردين. كنت أحب مطالعة رواية الأيام لطه حسين؛ لأنها تعطيني بعض الأمل أن هذه البداية قد تقود لنهاية طيبة. كان معنا طالب حقوق وطالب طب ومعظمهم من قريتي..

لم تقع أحداث مهمة طيلة سني الكلية إلا أنني قابلت طالبًا اسمه سيد الدرهيبي. كان هذا اسمًا عجيبًا غير مألوف، وقد أخبرته بأن له قريبًا مدفونًا في قريتنا اسمه عزت الدرهيبي. اندهش جدًا ووعدني بأن يسأل أهله عن هذا الجد، وأعتقد أننا صرنا صديقين حميمين ..

بعد أسبوعين التقينا فكررت سؤالي عن جده غريب الاسم، فقال في عصبية:

«لقد سألت الكبار .. هناك تفاصيل كثيرة، لكن أنصحك أن تنسى هذا الرجل. هناك أشياء إن تبد لكم تسؤكم. من مصلحة الجميع أن ينسوا هذا الرجل، وأبي يذكر القصة بشكل ضبابي، لكنه أوصاني ألا أتعمق في الأمر ..»

تساءلت في فضول:

«أنت أشعلت تطلعاتي ولم تطفئها .. بعد كل هذا الذي قلته لا أحسبني سأفكر في أي شيء غير عزت الدرهيبي وقبره»

قال الفتى وهو يبتعد:

«وأنا أعرف الآن أنه قريبي .. وأنصحك أن تنساه تمامًا إذا أردت الاحتفاظ بصداقتي!»

كان الأمر يفوق قدراتي على التحمل.

انتهت سنوات الدراسة .. أرجو ألا تتحرك كثيرًا فهذا يشتت ذهني فلا أستطيع استكمال القصة. هل ترغب في لفافة تبغ؟. لا بأس ... هذا يريح أعصابك قليلاً وإن كان يسبب لي مشكلة. سيكون الأمر عسيرًا.

أقول إن سنوات الدراسة انتهت ووجدت نفسي معلمًا في مدرسة صغيرة في بلدة مجاورة، وقد تمكنت بكثير من الجهد والوساطة أن أعمل في مدرسة ببنها. تعلمت التدخين كما ترى، ومعه تعلمت أشياء كثيرة. الإقامة وحدك في مدينة مع أصدقاء تدفعك لتجربة عدة أشياء .. ليس كلها مستحبًا ...

بالإضافة لهذا كنت قد وقعت في حب «مي» المدرسة الحسناء زميلتي في المدرسة، وقد عرضت عليها حبي فلم تبد معترضة. لكنها كانت تنتظر اللحظة التي أتقدم لها طالبًا يدها من أبيها، وكنت أخشى هذه الخطوة جدًا لأنني أدرك أنني مفلس تقريبًا .. لا أحتكم إلا على راتبي. إن مقابلة أبيها براتبي هذا نوع من الإهانة للرجل بلا شك.

في النهاية تشجعت وذهبت لأقابل أباها ومعي أخي الأكبر، وكانت جلسة ناجحة لأنني بذلت الكثير من الوعود المالية .. وعود لا

أملك قرشًا منها، وكان أخي ينظر لي في دهشة وحيرة عاجزًا عن الاعتراض .. لا يريد فضائح هاهنا ..

عندما غادرنا الدار بعد قراءة الفاتحة، كان موشكًا على فقدان الوعي وقال لي:

«أنت تورطت وورطتني معك في وعود مستحيلة»

قلت في غموض إنني سأعرف كيف أتصرف ..

لكني في النهاية جربت الاقتراض من كل أصدقائي ومن كل جهة يمكنها أن تقرضني .. لا جدوى هنالك .. لا أحد يعطيك مالاً في هذا العالم .. كنت أشعر باختناق وازددت عصبية.

لابد من طريقة لصنع المال في هذا العالم. هناك السرقة وهناك الميراث وهناك الزواج من حيزبون ثرية وهناك الذهاب للعمل في الخليج.. وكلها خيارات غير متاحة لي. واضح أنني سأعود إلى مي لأخبرها أني عاجز وأطلب منها أن تعتذر لأبيها على ضياع وقته.

على أنني في تلك الليلة نمت مهمومًا، وفي المنام رأيت رجلاً فارع الطول يصعب أن أميز وجهه، وكان يتقدم نحوي عبر مقابر مظلمة يغطي الضباب شواهدها، وكان يمد يده لي. يردد بصوت عميق:

«عد إلى الدرهيبي .. أنت تعرف الجواب».

شعرت بحاجة شديدة إلى أن ألحق به وأمد يدي له. في الوقت نفسه كنت أتهيب اللقاء. عندما صحوت من النوم كنت غارقًا في العرق البارد وشفتاي كانت جافتين كالقش. أمسكت بكوب الماء جوار الفراش وجرعت منه.

سيد الدرهيبي .. يجب أن أجده وأعرف ما يعرفه .. لكن كيف ألقاه ثانية؟ هو ليس من قريتي. على الأقل أعرف أنه مدرس وأنه خريج نفس كلية الآداب. كنا صديقين أيام الكلية كما عرفت، لكن بشرط ألا أذكر سيرة قريبه الغامض.

حان الوقت لإعادة التجربة. أنا ناضج اليوم وأعرف أنها هراء على الأرجح، لكني في ظروف تجعلني أجرب كل شيء.

هكذا عدت لقريتي فقضيت يومًا عاديًا مع الأصدقاء والأقارب .. عندما جاء المساء أخذت الكشاف ومشيت وحدي نحو المقابر. لم يكن من داع للكشاف لأن قمرًا حزينًا باهتًا كان يطل على المكان، ويراقب كل شيء. جواره ذلك النجم الذي يسمونه (أخت القمر). وكانت بعض الذئاب تعوي من بعيد بصوتها الكئيب الباعث للرهبة. أحفظ جيدًا الطريق إلى قبر عزت الدرهيبي الذي ألهب خيالي في الماضي، ولو جئت أنت قريتنا فلسوف تعرفه على الفور من طابعه المخيف وخلو المساحة حوله من أي نبات.

سوف أجرب حظي مرة أخرى. لا تلمني فقد أخبرتك بالمأزق الذي أمر به.

٣

على ركبتي جثوت، ورحت أزيل الغبار عن الشاهد الحجري ذي الكتابة البدائية. شخص آخر أشجع مني وأكثر جرأة كان سيجرب نبش هذا القبر ليعرف ما فيه ..

القبر أقرب لكومة من طين ترتفع فوق الأرض.. هناك على اليمين فتحة مسدودة بالملاط واضح أنها التي أدخلوا الجثة منها. لا أنكر أن هناك رائحة عطنة، ومن المستحيل طبعًا أن تكون رائحة الجثة بالداخل، فهي مدفونة منذ نحو تسعين عامًا .. لابد أن حيوانًا قد نفق هنا في وقت قريب.

أخرجت ورقة بمئة جنيه، ولففتها في قطعة من غشاء السلوفين، ثم دفنتها بعناية وأهلت فوقها الغبار. كان قلبي يرتجف، وخطر لي أن أحدهم سيأتي من خلفي ويضع يده على كتفي ليقول شيئًا!... تبًا!. سأخيف نفسي حتى الموت!

لقد نفذت جزئي من الصفقة .. دعنا نرَ ما سيفعله القبر.

نهضت وبخطوات مسرعة وقلبي يثب في فمي مغادرًا الجبانة. كلب أجرب راح ينبح في وجهي، لكني رحبت به كثيرًا .. على الأقل هذا كائن طبيعي من عالمنا ...

عندما عدت لداري ونمت كان نومًا كئيبًا يسبح في العرق والكوابيس ..

بعد ليلتين قمت بالمغامرة مرة أخرى. حملت الكشاف وانتظرت حتى تغطى العالم بالليل، وزحفت تحت ذلك الغطاء الكثيف نحو المقابر. مشيت في الممر الضيق الذي يطل على الحقل المحروث، ولعله الارتباك الذي جعلني أتعثر أكثر من مرة ..

في النهاية وصلت إلى المقبرة المرهوبة، فركعت على الأرض ورحت أعبث بحثًا عن الكيس الذي أخفيته أمس .. أين هي؟ ثم شعرت بالسلوفين فقبضت على الشيء وأخرجته. على ضوء الكشاف تأملت اللفافة ثم فتحتها لأجد ورقة بمائتي جنيه**!**

كان قلبي موشكًا على التوقف من فرط الانفعال. الأمر حقيقي إذن .. ما حدث في صباي لم يكن وهمًا أو مصادفة.

ليكن ما يكون .. ليكن هذا لعبًا مع النار أو لا .. هذا القبر هو سري الخاص ولسوف يحل مشاكلي الخاصة. عدت للبيت حيث نامت الأسرة، فدخلت إلى غرفتي الريفية الواسعة واستلقيت في

الفراش أتفحص الورقة ذات المائتي جنيه .. لا غبار عليها .. ليست مزورة ..

لا توجد أي آثار أقدام حول المقبرة .. ليس هناك من يتسلى بي أو يعابثني. وفي النهاية لم يرني أحد وأنا أدفن اللفافة فكيف يأتي بعدها ليبدلها؟

في الصباح ذهبت إلى المدينة .. ذهبت إلى المصرف وسحبت معظم مدخراتي: عشرة آلاف جنيه، ثم ركبت سيارة أجرة متداعية عائدًا إلى قريتي ..

سألتني أمي عن سبب خروجي المتكرر ليلاً فقلت لها إنه الملل لا أكثر .. وعندما جاء المساء خرجت مسلحًا بالكشاف وكيس صغير فيه المبلغ الهائل الذي أملكه. عندما تحمله في يدك تدرك كم هو ضئيل تافه ..

مضيت بين أشجار التوت وبين شواهد القبور الغافية .. وعلى ضوء الكشاف حفرت حفرة أعمق نوعًا في المقبرة، ثم تلفت حولي ودفنت المال.

فلنأمل أن تكون الأسطورة صادقة وألا أكون أحمق شخص في العالم كما أتوقع.

لم أستطع البقاء في القرية ليومين.. كنت متوترًا بحق .. لو نجحت التجربة الجديدة فكل ما علي هو أن أكرر هذا العمل عدة أيام. عشرة آلاف جنيه ستكون نصف مليون بعد مثابرة عدة أيام.

دعني أواصل الحكاية أرجوك وكف عن التململ .. أكره المستمعين نافدي الصبر فعلاً. يستفزونني. أقول إنني قضيت يومين في المدينة. كنت في حالة عصبية أوشك على دفع عقارب الساعة بكتفي لتتحرك ..

هل قلت لك إنني قابلت سيد الدرهيبي بالصدفة؟ وجدته في ميدان المحطة وكان يبتاع جريدة، فهرعت نحوه. لم أبذل جهدًا لتذكيره بي لأنه عرفني على الفور. تعانقنا وسألني عن أحوالي.. قال إنه تزوج ويقيم في القاهرة. إذن لماذا أنت هنا؟ لم يفسر ..

جلسنا على أحد المقاهي وتبادلنا الأحاديث، ثم جاء السؤال الذي أرهقني كل هذه الأعوام:

«للمرة الأخيرة أسألك.. ماذا تعرف عن عزت الدرهيبي؟»

توقعت أن ينصرف غاضبًا، لكنه هذه المرة تردد قليلاً.. سحب الدخان من الشيشة وأطلق سحابة كثيفة، ثم قال:

«كل أسرة لديها وصمة عار، وقد أرغموه على ترك الأسرة والإقامة في قريتكم حيث مات...»

«وما هي وصمة عاره بالضبط؟»

«لا أدري بالضبط .. كان ماجنًا وارتكب الكثير جدًا من الموبقات .. ويقال إنه مارس السحر الأسود. كان لديه كتاب اسمه (شمس المعارف الكبرى) وكان يستعمله ككتاب مقدس يهتدي به..»

بدأ الأمر يتضح لي .. توقعت شيئًا كهذا. فقال سيد:

«أقول لك هذا الكلام للمرة الأخيرة .. في أسرتنا لا يذكرونه بتاتًا ويعتقدون أن سيرته تجلب الشؤم»

شمس المعارف الكبرى!.. الرجل كان يمارس السحر إذن ..لا أعرف خواص مقابر السحرة، لكنها بالتأكيد تختلف عن المقابر العادية التي ندفن نحن فيها ..

افترقنا وأنا أفكر في نقودي العزيزة التي تكمن هناك في قبر منسي مهمل في قريتي. ماذا حدث لها؟

عدت لقريتي بعد يومين وانتظرت حتى جاء الليل، فتسلحت بالكشاف ومشيت في طريقي المعتاد بين أشجار التوت حتى الطريق المتعرج الذي يطل على حقل منحدر. ثم بلغت القبر … مددت يدي في لهفة ورحت أحثو التراب عنه حيث دفنت مالي أمس.

لم يكن هناك شيء!!!

٤

الكيس الذي وضعته منذ يومين قد اختفى بمالي الذي يمثل معظم ثروتي. لقد وقعت في الفخ، مثل ضحايا النصابين الذين نقرأ عنهم في الصحف .. لكني كنت أحسبني أكثر ذكاء من ذلك. مدبر هذا الأمر ذكي حقًا أنفق القليل ليجني الكثير.

جلست على الأرض أحك رأسي .. صورة ناطقة بالعجز والحيرة. صوت الكلاب تنبح من بعيد وصرصور الحقل يغازل أنثاه .. لا مخرج أمامي .. لا يوجد من أتهمه حتى لو طلبت الشرطة .. المشكلة مشكلتي ويجب أن أجد حلاً لها.

بدأت تمشيط التربة المحيطة بالقبر بحثًا عن آثار أقدام سارقي.. لم تكن هناك أي آثار وهذا غريب. ثم لاحظت أن هناك أقدامًا مخلبية شبيهة بأقدام الكلاب.. هذه الأقدام تنحدر من شاهد القبر نحو .. نحو الفتحة الموجودة على اليمين في مستوى الأرض وهي الفتحة التي يدخلون الجثة منها. أثار دهشتي أن الفتحة لم تعد مسدودة بالملاط كما كانت .. إنها مفتوحة كأنها جحر ثعلب.

ثعلب أو بنت آوى .. لا أدري .. لكن من المستحيل أن يسرق مالي. الحيوانات أذكى من أن تهتم بأوراق كريهة المذاق مثلنا

معشر البشر. ما أعرفه يقينًا هو أن هذا الجحر يحوي لغزًا. كنت أحمل مطواة صغيرة من النوع الذي يُطوى فأخرجتها ورحت بنصلها أحاول أن أوسع الفتحة أكثر فأكثر ..

كانت التربة هشة .. وسرعان ما نجحت في صنع فتحة تكفي لدخول رجل بالغ. رميت بضوء الكشاف داخل القبر وحاولت أن أرى شيئًا .. هنا خطر لي أن هذا القبر أوسع وأكبر مما تخيلت بكثير.

لا تضايقني أرجوك .. قصتي موشكة على الانتهاء. قلت لك إنني تسللت إلى داخل المقبرة وأضأت الكشاف .كانت المقبرة واسعة بحجم غرفة .. أكثر مما تخيلت بكثير.

أدركت أن هناك عددًا من الأنفاق الجانبية في الجدران .. نحو أربعة أنفاق لا أعرف أهميتها ولا قيمتها، ولم أفهم كيف لا تتداعى التربة لتسد هذه الأنفاق. رحت أبحث على ضوء الكشاف عن مالي .. بالفعل وجدت الكيس الذي دفنته .. بيد مرتجفة وعلى ضوء الكشاف فتحته فوجدت نقودي كما هي .. لم تزدد ولم تنقص. السؤال هو: من جاء بها هنا؟

قررت أن الوقت قد حان لكي أعود .. بعد كل شيء أنا في مقبرة تحت الأرض في منتصف الليل. لست من الطراز قوي الأعصاب إلى هذا الحد. لقد استرددت مالي وفيما بعد سأقضي الساعات

محاولاً فهم ما حدث: جان .. شياطين .. ثعالب .. شخص يمزح .. أي شيء..

لكني اكتشفت أن الفتحة التي مررت منها قد انسدت .. كيف ومتى؟ لا بأس .. يمكن أن أحفر واحدة أخرى فالتربة هشة هنا. فجأة تحول كل شيء إلى هلاوس مخيفة .. لست واثقًا مما رأيت ولربما أثر المناخ علي. لقد رأيت الجدران تذوب وتتحول إلى كتل من لهب .. كانت أجسادًا مشتعلة تخرج من اللهب وترقص حولي. الجان خلقوا من مارج من نار، فهل هؤلاء جان؟

كانت الأرض تذوب بدورها، وتتحول إلى حمم لكنها غير حارقة .. لم تحترق قدماي. وأمامي رأيت الجدار ينصهر .. ينصهر كاشفًا عن فجوة أقرب لمحراب في الصخر، وعندما دققت النظر أكثر أدركت ان هذه مومياء جالسة .. مومياء رجل فارع الطول مدثر في كفن أبيض. عرفت على الفور من هو.. هذه مومياء عزت الدرهيبي. نفس الرجل الذي كان يطاردني في المنام.

سمعت صوتًا قادمًا من لا مكان يردد:

«عد إلى الدرهيبي .. أنت تعرف الجواب»

ثم أردف ذلك الصوت القادم من لا مكان:

«كنت أنتظر نحو مئة عام حتى يتجاسر أحدهم ويدخل هنا. لقد سئمت الحياة أو بمعنى أصح سئمت الموت.. أن تطاردك لعنة أبدية تحرمك الراحة إلى يوم الدين. تقتات بالجيران الذين تجدهم في القبور وتسرقهم من الأنفاق .. كانت الشياطين تلعب مع الفانين لعبة مضاعفة المال، وخطر لي أن أحدهم سيستبد به الفضول ويدخل هاهنا . أنت أول من تجاسر ودخل، وقد حقت لي الراحة .. حق لي أن أتحلل. انتهت حياتي كغول وبدأت حياتك**!»**

ورأيت وأنا موشك على فقدان الوعي المومياء تذوب بدورها .. ملامحها تضمحل وتتلاشى ... كأنها قطعة فحم مشتعلة تتلاشى جذوتها.. ومن حولي دارت رقصة الشياطين .. وسمعت أغنية مخيفة لم أفهم حرفًا من كلماتها ..وسرعان ما تداعيت وغبت عن العالم.

عندما أفقت كنت خارج المقبرة .. وكان الفجر دانيًا..

عدت لداري وعرفت ما يجب علي القيام به .. عزت كان ميتًا لهذا كان يقتات على الجيف، أما أنا فمن حقي أن أجرب لحمًا طازجًا نضرًا .. لقد تغيرت حياتي بالكامل.

الآن أنت تعرف القصة يا سامي، وتعرف لماذا اصطحبتك للمقبرة ليلاً، وتعرف لماذا أنت مقيد ومكمم الفم جوارها الآن .. لقد انتهت قصتي وحان وقت العمل. لا تحاول الصراخ فلن يسمعك أحد .. سأحاول أن تمر اللحظات القادمة بسرعة.

تمت